﴿سِلْسِلَةُ الرَّسَائِلِ المِقْدَادِيَّة فِي تَبْسِيْطِ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّة﴾

﴿١٤﴾

إِتْحَافُ السَّادَةِ الْمُتَّقِيْن

بِالتَّعْرِيْفِ بِعَالَمِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْن

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُوْر

عَلِيّ مِقْدَادِي الحَاتِمِي الأَشْعَرِي

المُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا ، من يَهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليله ، قال تعالى : **﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران : ١٠٢] ، وقال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾** [النساء:١] ، وقال تعالى : **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾** [الأحزاب: ٧٠-٧١] ، أمَّا بعد :

فإنَّ الإيمان بالأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام ركنٌ من أركان السِّتَّة ، وقد طالب الله المؤمنين بالإيمان بجميع رُسل الله تعالى وبما أُنزل إليهم ، وأن لا يفرِّقوا بين أحد منهم ، وعلى ذلك قامت عقيدة المسلمين الذين يعتقدون بكفر من أنكر نبوَّة من ثبتت نبوَّته ، وأنَّ الكفر بواحد منهم كفرٌ بجميعهم ، قال تعالى: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهَّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُّ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [البقرة:١٣٦-١٣٧] ، وقال تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهَّ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾** [النساء:١٣٦] ، وقال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهَّ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهَّ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً * أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهَّ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللهُّ غَفُوراً رَحِيماً﴾** [النساء: ١٥٠- ١٥٢] .

فالإيمان بالأنبياء والرُّسل يشمل جميعهم ، لأنَّهم مرسلون من قِبَلِ الله تعالى ، قال تعالى: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾** [الشعراء: ١٠٥] ، مع أنَّهم لم يكذِّبوا إلَّا نوحاً عليه السَّلام ...

الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، فلا يصح إيمان العبد إلا به. والأدلـة الشرـعية متـواترة على تأكيد ذلك، فقد أمر سبحانه بالإيمان بهم، وقرن ذلك بالإيمان به فقال: { فآمنوا بالله ورسله } (النساء: ١٧١) وجاء الإيمان بهم في المرتبة الرابعة من التعريف النبوي للإيمان كما في حديث جبريل: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ..) رواه مسلم ، وقرن الله سبحانه الكفر بالرسل بالكفر بـه، فقـال:{ ومـن يكفـر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا } (النساء:١٣٦)، ففي هذه الآيات دليـل على أهمية الإيمان بالرسل، ومنزلته من دين الله عز وجل، وقبل بسط الكلام في ذلك، يجدر بنا ذكر تعريـف كل من الرسول والنبي، وتوضيح الفرق بينهما .

الفَصْلُ الأوَّل : وُجُوْبُ الإيْمَانِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُل .

الفَصْلُ الثَّانِي : الحَاجَةُ إِلَى الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُل .

الفَصْلُ الثَّالِثُ : دَلَائِلُ الرِّسَالَة .

االفَصْلُ الرَّابِعُ : صِفَاتُ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام .

الفَصْلُ الخَامِسُ : سِيْرَةُ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الذِيْنَ وَرَدَتْ أَسمَاؤُهُمْ فِي القُرْآن .

الفَصْلُ السَّادِسُ : الإِيْمَانِ بِنُبُوَّةِ سِيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الفَصْلُ السَّابِعُ : الكَرَامَات .

الفَصْلُ الثَّامِنُ : تَعَدُّدُ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّة

الفَصْلُ التَّاسِعُ : الوَحْيُ وَأَنْوَاعَه .

والله تعالى نسأل أن يُسهِّل ويُسدِّد ، وأن ينفع به وبغيرة من الكتب ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ... الكريم

وَسُبْحَـــــــــــــانَكَ اللَهُمَّ وَبِحَمْدِكَ

نَشْهَدُ أنْ لَا إِلَــــــــــــهَ إِلَّا أَنْتَ

نَسْتَغْفرُكَ وَنَتُــــــوْبُ إِلَيْكَ

وَالحَمْــــــــدُ لله رَبِّ

العَالَمِيْن

الفَصْلُ الأوَّل

وُجُوْبُ الإيْمانِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُل

والآن إلى جملة من الأسئلة التي ستتعرَّف من خلال الجواب عنها على كلِّ ما يتعلَّق بوجوب الإيمان بالأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام ...

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا حُكْمُ الإِيْمانِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُل ؟

الجواب : الإيمان بالأنبياء والرُّسل ركنٌ من أركان الإيمان، لا يصحُّ الإيمان إلَّا به ، قال تعالى : **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِّ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** [البقرة:٢٨٥] ، وقال تعالى : **﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِّ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا**

وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤] ، وقال تعالىٰ : **﴿مَا كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** [آل عمران:١٧٩] .

وروىٰ البخاري (١/ ١٩ برقم ٥٠) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: " الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ" .

وممَّا يدلِّل علىٰ أهميَّة الإيمان بالأنبياء والرُّسل أنَّ الله تعالىٰ قرن الكفر بالرُّسل بالكفر به، فقال سبحانه: **﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾** [النساء:١٣٦] .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا تَعْرِيْفُ النُّبُوَّةِ فِي اللُّغَةِ وَالاصْطِلَاح ؟

الجواب : قال ابن منظور في " لسان العرب" (١/ ١٦٢-١٦٤ باختصار) : " النَّبَأُ: الْخَبَرُ، وَالْجَمْعُ أَنْبَاءٌ، وإِنَّ لِفُلَانٍ نَبَأً أَي خَبَرًا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾** [النبأ:١] ، قِيلَ عَنِ الْقُرْآنِ، وَقِيلَ عَنِ البَعْث، وَقِيلَ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ أَنْبَأَه إِيّاه وَبِهِ، وَكَذَلِكَ نَبَّأَه، مُتَعَدِّيَةٌ بِحَرْفٍ وَغَيْرِ حَرْفٍ، أَي أَخبر ... قَالَ الفَرَّاءُ: النبيُّ: هُوَ مَنْ أَنْبَأَ عَنِ اللهِ، فَتُرِك هَمزه. قال: وإِن أُخِذَ مِنَ النَّبْوةِ والنَّباوةِ، وَهِيَ الِارْتِفَاعُ عَنِ الأَرض، أَي إِنه أَشْرَف عَلَى سَائِرِ الخَلْق، فأَصله غَيْرُ الْهَمْزِ ... ونَبَأَ عَلَيْهِمْ يَنْبَأُ نَبْأً ونُبُوءاً: هَجَم وطَلَع، وَكَذَلِكَ نَبَهَ ونَبَع، كِلاهُما عَلَى الْبَدَلِ. ونَبَأَتْ بِهِ الأَرْضُ: جاءَت بِهِ ق،اَل حَنَشُ بْنُ مَالِكٍ:

فَنَفْسَكَ أَحْرِزْ فإِنَّ الحُتُوفَ يَنْبَأْنَ بالمَرْءِ فِي كلِّ وَادِ

ونَبَأَ نَبْأً ونُبُوءاً: ارْتَفَعَ. والنَّبْأَةُ: النَّشْزُ، والنَبِيءُ: الطَّرِيقُ الواضِحُ" .

فالنُّبُوَّة قد تكون مشتقَّة من النَّبأ ، فتكون بمعنىٰ الإخبار ، وقد تكون مشتقَّة من النَّبوةِ والنَّباوةِ ، وهما يدلَّان علىٰ الارتفاع والعلو والرِّفعة ، وقد تكون مشتقَّة من النَبِيء فتكون بمعنىٰ الطَّريق الواضح ، وكلُّها اشتقاقات صحيحة ، لأنَّ النَّبيَّ مُخبرٌ عن الله تعالىٰ ، والمخبر عن الله تعالىٰ له مكانة سامقة سامية عالية رفيعة ، وقد ورد في القرآن العظيم العديد من الآيات التي دلَّلت علىٰ أنَّ النَّبأ هو الخبر ، قال تعالىٰ : **﴿نَبِّئْ عِبَادِي**

أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ * وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ﴾ [الحجر: ٤٩-٥١] ، وقال : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣] .

أمَّا عن معنى النُّبوَّة في الاصطلاح : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٣٦٨/١٢) نقلاً عن القرطبي في " المفهم" : " النُّبُوَّةَ مَعْنَاهَا أَنَّ اللَّهَ يُطْلِعُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ أَحْكَامِهِ وَوَحْيِهِ إِمَّا بِالْمُكَالَمَةِ وَإِمَّا بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ وَإِمَّا بِإِلْقَاءٍ فِي الْقَلْبِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ" .

فالنُّبُوَّة في الاصطلاح تعني : اصطفاء الله تعالى واختياره لعبد من خلقه وإرسال الوحي إليه ، وهي فضلٌ منه سبحانه وتعالى وتكرمة ، لا تُنال بالجدِّ والاجتهاد وسائر الرِّياضات ومختلف العبادات ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣] ، وقال سبحانه : ﴿وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] ، وقال : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥] ، وقال : ﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ * إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾ [ص:٤٥-٤٧] .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى الإِيْمَانِ بِالأَنْبِيَاء وَالرُّسُل ؟

الجواب : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١١٨/١) : " الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ التَّصْدِيقُ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ وَدَلَّ الْإِجْمَالُ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ عَلَى الِاكْتِفَاءِ بِذَلِكَ فِي الْإِيمَانِ بِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ إِلَّا مَنْ ثَبَتَ تَسْمِيَتُهُ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ عَلَى التَّعْيِينِ وَهَذَا التَّرْتِيبُ مُطَابِقٌ لِلْآيَةِ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَمُنَاسَبَةُ التَّرْتِيبِ الْمَذْكُورِ وَإِنْ كَانَتِ الْوَاوُ لَا تَرَتَّب بل الْمُرَاد من التَّقْدِيم أَنَّ الْخَيْرَ وَالرَّحْمَةَ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ أَعْظَمِ رَحْمَتِهِ أَنْ أَنْزَلَ كُتُبَهُ إِلَى عِبَادِهِ وَالْمُتَلَقِّي لِذَلِكَ مِنْهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمُ الْمَلَائِكَة" .

الفَصْلُ الثَّانِي

الحَاجَةُ إِلَى الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام

الفَصْلُ الثَّالِثُ

دَلَائِلُ الرِّسَالَةَ

....

﴿سُؤالٌ﴾ : هَل الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُوْرِهِم ؟

الجواب : لا بدَّ من توضيح مجموعة من الأمور التي تشكِّل بمجموعها جواباً شافياً كافياً شاملاً على السُّؤال ، وهي :

أَوَّلَاً : أنَّ الموت ليس بعدمٍ محضٍ ولا فناء صِرف ، قال الإمام القرطبي في "التَّذكرة" (١/ ١١١-١١٢) : " الموتُ ليس بعدمٍ محضٍ ولا فناء صِرف ، وإنَّما هو انقطاع تعلُّق الرُّوح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما ، وتبدُّل حالٍ وانتقال من دار إلى دار ... " .

وقال الإمام الجرجاني في " التَّعريفات " (ص٢٣٢) : " الموت: صفة وجوديَّة خُلقت ضدَّاً للحياة ، وباصطلاح أهل الحقّ : قمع هوىٰ النَّفس ، فمن مات عن هواه فقد حَيَىٰ بهداه " .

والموت هو انتقال من دار الدُّنيا إلى دار البرزخ ، وبينهما يقع اختبار العبد المُكلَّف ، يعيش بعد الدَّار الثَّانية حياة أبديَّة : إمَّا مُكرَّماً في الجنَّة التي تمثِّل الحياة الحقيقيَّة الأبديَّة ...

تلكم الدَّار التي آثر الكثير من النَّاسُ الغُفلُ عليها دار الدُّنيا التي لا تعدلُ عند الله تعالى جناح بعوضة ، قال تعالى : **﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾** [الأعلى:١٦-١٧] ، ولذلك زهَّد العباد فيها ، وأرشدهم أنبياء الله إلى أنَّ الآخرة هي القرار الأبدي ، فقال سبحانه على لسان سيِّدنا موسىٰ عليه السَّلام :

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩] ... أمَّا الدَّار الأخرىٰ فهي النَّار التي سيستقرُّ فيها الكفرة والمشركون والمنافقون ...

ثَانِيَاً : وردت آياتٌ محكمةٌ في كتاب الله تعالىٰ تنصُّ علىٰ حياة الشُّهداء بعد الوفاة، بل إنَّ القرآن ورد بالنَّهي عن تسمية الشَّهيد ميتاً، كما قال تعالىٰ : **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾** [البقرة:١٥٤] ، ولا شكَّ أنَّ الرُّسل الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام أرفع درجة، وأتمُّ فضلاً، وأعلىٰ كرامة من كلِّ مَنْ دونهم ...

كما وردت أحاديث عديدة تنصُّ بصراحة علىٰ أنَّ الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون... ذكر قسماً منها الإمام البيهقي في جزء خاصٍّ سمَّاه بـ(حياة الأنبياء بعد وفاتهم)، وكذا صنع الإمام السُّيوطي في جزء خاصٍّ من كتابه (الحاوي للفتاوي) سمَّاه بـ(إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء) .

ثَالِثَاً : مَعْنَىٰ الحَيَاة البَرْزَخِيَّة :

الحياةُ البرزخيَّة مرحلةٌ تلي مرحلة الحياة الدُّنيا، وتسبق الحياة الأخرويَّة الأبديَّة، قال تعالىٰ : **﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** [المؤمنون:٩٩-١٠٠] ، و " البرزخ: هو الحائل بين الشَّيئين، ويعبر به عن عالم المثال، أعني الحاجز من الأجسام الكثيفة وعالم الأرواح المجرَّدة، أعني الدُّنيا والآخرة" . انظر : التعريفات (ص٤٥) .

والحياة البرزخيَّة ليست كحياتنا "بل هي حياة خاصَّة لائقة بهم وبالعالم الذي هم فيه، لكن لا بدَّ أن نبيِّن للنَّاس أيضاً أنَّها ليست كحياتنا، لأنَّ حياتنا أقلّ وأحقر وأضيق وأضعف.

فالإنسان فيها بين عبادة وعادة وطاعة ومعصية وواجبات مختلفة لنفسه وأهله ولربِّه، وأنَّه تارة يكون طاهراً، وتارة يكون علىٰ ضدِّ ذلك، وتارة يكون في المسجد، وتارة يكون في الحمَّام ، وأنَّه لا يدري بمَ يختم له؟؟ فقد يكون بينه وبين الجنَّة ذراع ثمَّ ينقلب الأمر رأساً علىٰ عقب فيصير من أهل النَّار، وبالعكس، أمَّا في البرزخ فإنَّه إن كان من أهل الإيمان فإنَّه قد جاوز قنطرة الامتحان التي لا يثبت عندها إلَّا أهل الَّسعادة، ثمَّ إنَّه قد انقطع عنه التَّكليف وأصبح روحاً مشرقة طاهرة مفكِّرة سيَّاحة سبَّاحة جوَّالة في ملكوت الله وملكه سبحانه وتعالىٰ، لا همَّ، ولا حزن، ولا بأس، ولا قلق، لأنَّه لا دنيا، ولا عقار، ولا ذهب، ولا فضَّة،

فلا حسد ولا بغي ولا حقد. وإن كان غير ذلك ففي عكس ذلك" . انظر : مفاهيم يجب أن تصحح (ص٢٤٨-٢٤٩)

.

وفي تلك الحياة تكون الأرواح فيها سامعة مُبْصرة، فهي حياة حقيقيَّة، بمعنىٰ أنَّها ليست خياليَّة أو مثاليَّة، كما يتصوَّرها الملاحدة الذين لا يؤمنون إلَّا بالمحسوس دون الغيب ...

يقول السيِّد محمَّد بن علي المالكي في كتابه "مفاهيم يجب أن تصحَّح" (ص٢٤٤) : " إنَّ معنىٰ قولنا عن الحياة البرزخيَّة بأنَّها حقيقيَّة: أي ليست خياليَّة أو مثاليَّة، كما يتصوَّرها بعض الملاحدة ممَّن لا تتَّسع عقولهم للإيمان إلَّا بالمشاهد المحسوس دون الغيب الذي لا يطيق العقل البشري تصوّره، ولا تسليم كيفيَّته لقدرة الله جلَّ جلاله. إنَّ وقفة تأمُّل قصيرة عند قولنا عن الحياة البرزخيَّة بأنَّها حقيقيَّة لا تبقي من الإشكال أدنىٰ ذرَّة حتَّىٰ عند من يقصر فهمه وذوقه عن تعقُّل المعاني، فكلمة (حقيقيَّة) ليست إلَّا لنفي الباطل وطرد الوهم ونفي الخيال الذي قد يقع في ذهن الإنسان المتشكِّك المرتاب في أحوال عالم البرزخ وعالم الآخرة وغيرهما من العوالم الأخرىٰ كالنَّشر والبعث، والحشر، والحساب.

وهذا المعنىٰ يدركه الإنسان العربي البسيط الذي يعرف أنَّ كلمة (حقيقي) تعني حقيقة، وهي ما يقابل الوهم والخيال والمثال، فحقيقيَّة أي ليست بوهميَّة، وهذا هو المقصود بعينه، وهذا هو مفهومنا وتصوُّرنا لهذه القضيَّة، ولقد تضافرت الأحاديث والآثار التي تثبت بأنَّ الميِّت يسمع ويحسُّ ويعرف، سواء كان مؤمناً أم كافراً" .

فمن ذلك حديثه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أهل قليب بدر من المشركين، فلمَّا سئل عن ذلك قال: " «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» . أخرجه البخاري (٥/ ٧٦ برقم ٣٩٧٦) ومسلم (٤/ ٢٢٠٢ برقم ٢٨٧٣)

.

فإذا كان المشركون بعد الموت أشدّ سماعاً من المسلمين في الحياة، فكيف يكون شأن موتىٰ المسلمين؟!!

أمَّا ما ورد عن عائشة رضي الله عنها من نفي سماع الأموات، فالأظهر أنَّها تراجعت عنه لما ثبت عندها من رواية العديد من الصَّحابة لأحاديث النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصرِّحة بسماع الموتىٰ، يؤيِّد ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٧/ ٣٠٣-٣٠٤) ، قال: " وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ فِي الْمَغَازِي لِابْنِ إِسْحَاقَ رِوَايَةَ يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ عَائِشَةَ مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ ،وَفِيهِ : " مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ " ،

وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ ، فَإِنْ كَانَ مَحْفُوظًا فَكَأَنَّهَا رَجَعَتْ عَنِ الْإِنْكَارِ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهَا مِنْ رِوَايَةِ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ لِكَوْنِهَا لَمْ تَشْهَدِ الْقِصَّةَ . قَالَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ : كَانَ عِنْدَ عَائِشَةَ مِنَ الْفَهْمِ وَالذَّكَاءِ وَكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَالْغَوْصِ عَلَىٰ غَوَامِضِ الْعِلْمِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، لَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ رَدِّ رِوَايَةِ الثِّقَةِ إِلَّا بِنَصٍّ مِثْلِهِ ، يَدُلُّ عَلَىٰ نَسْخِهِ أَوْ تَخْصِيصِهِ أَوِ اسْتِحَالَتِهِ ، فَكَيْفَ وَالْجَمْعُ بَيْنَ الَّذِي أَنْكَرَتْهُ وَأَثْبَتَهُ غَيْرُهَا مُمْكِنٌ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : **﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾** لَا يُنَافِي قَوْلَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّهُمُ الْآنَ يَسْمَعُونَ " ، لِأَنَّ الْإِسْمَاعَ هُوَ إِبْلَاغُ الصَّوْتِ مِنَ الْمُسْمِعِ فِي أُذُنِ السَّامِعِ ، فَاللهُ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَسْمَعَهُمْ بِأَنْ أَبْلَغَهُمْ صَوْتَ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ ، وَأَمَّا جَوَابُهَا بِأَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ إِنَّهُمْ لَيَعْلَمُونَ ، فَإِنْ كَانَتْ سَمِعَتْ ذَلِكَ فَلَا يُنَافِي رِوَايَةَ يَسْمَعُونَ بَلْ يُؤَيِّدُهَا" .

ثمَّ إنَّ العلماء اختلفوا في تأويل " الْمُرَادُ بِالْمَوْتَىٰ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾** [النمل: ٨٠] ، وَكَذَلِكَ الْمُرَادُ بِـ **﴿ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾** ، فَحَمَلَتْهُ عَائِشَةُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ وَجَعَلَتْهُ أَصْلًا احْتَاجَتْ مَعَهُ إِلَىٰ تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : " مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ " ، وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَجَازٌ ، وَالْمُرَادُ بِـ **﴿الْمَوْتَى﴾** وَبِـ **﴿مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾** الْكُفَّارُ شُبِّهُوا بِالْمَوْتَىٰ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، وَالْمَعْنَىٰ : مَنْ هُمْ فِي حَالِ الْمَوْتَىٰ أَوْ فِي حَالِ مَنْ سَكَنَ الْقَبْرَ ، وَعَلَىٰ هَذَا لَا يَبْقَىٰ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ مَا نَفَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وَالله أعلم " . انظر : فتح الباري (٧/ ٣٠٤) .

وممَّا يؤيِّد ويدعم تأويل الموتىٰ بالكفَّار قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه البخاري (٨/ ٨٦ برقم ٦٤٠٧) بسنده عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ» .

فالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف من لا يذكر ربَّه بالميِّت ...

ومن الأدلَّة علىٰ سماع الأموات ما رواه البخاري (٢/ ٩٠ برقم ١٣٣٨) ، مسلم (٤/ ٢٢٠٠ برقم ٢٨٧٠) بسندهما عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ" .

والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة، وهي دالَّة بوضوح علىٰ إثبات السَّماع للموتىٰ ، ولولا ذلك لكان خطاب الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم وكذا خطابنا إيَّاهم وقت زيارة المقابر عبثاً، والرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعبث، يضاف لذلك أنَّ الأمر لا يقف عند حدِّ السَّماع ، بل إنَّ الميِّت يعرفُ زَائره، ومُغسِّله، ومن يُدليه

فِي قبره ... فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ الْمَيِّتَ يَعْرِفُ مَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُغَسِّلُهُ، وَمَنْ يُدَلِّيهِ فِي قَبْرِهِ " . أخرجه أحمد في المسند (١٧/ ٢٩ برقم ١٠٩٩٧) ، قال الأرنؤوط : " إسناده ضعيف لإبهام راويه عن أبي سعيد، وبقية رجاله ثقات" .

جاء في "مجموع الفتاوىٰ للإمام ابن تيمية (٢٤/٣٦٣-٣٦٤ باختصار) : " هَلِ الْمَيِّتُ يَسْمَعُ كَلَامَ زَائِرِهِ وَيَرَىٰ شَخْصَهُ : سُئِلَ: هَلِ الْمَيِّتُ يَسْمَعُ كَلَامَ زَائِرِهِ، وَيَرَىٰ شَخْصَهُ؟ وَهَلْ تُعَادُ رُوحُهُ إِلَىٰ جَسَدِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَمْ تَكُونُ تُرَفْرِفُ عَلَىٰ قَبْرِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَغَيْرِهِ؟ وَهَلْ تَصِلُ إِلَيْهِ الْقِرَاءَةُ وَالصَّدَقَةُ مِنْ نَاحِلِيهِ وَغَيْرِهِمْ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْمَالِ الْمَوْرُوثِ عَنْهُ وَغَيْرِهِ؟ وَهَلْ تُجْمَعُ رُوحُهُ مَعَ أَرْوَاحِ أَهْلِهِ وَأَقَارِبِهِ الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَهُ، سَوَاءٌ كَانَ مَدْفُونًا قَرِيبًا مِنْهُمْ أَوْ بَعِيدًا؟ ...

الْجَوَابُ: الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَعَمْ يَسْمَعُ الْمَيِّتُ فِي الْجُمْلَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ" .

وَثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ تَرَكَ قَتْلَىٰ بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْت مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَسَمِعَ عُمَرُ – رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ – ذَلِكَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، كَيْفَ يَسْمَعُونَ، وَأَنَّى يُجِيبُونَ، وَقَدْ جُيِّفُوا؟ ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتَ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ» ، وَكَذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُمَرَ، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ عَلَىٰ قَلِيبِ بَدْرٍ فَقَالَ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ وَقَالَ: إنَّهُمْ يَسْمَعُونَ الْآنَ مَا أَقُولُ" .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِالسَّلَامِ عَلَىٰ أَهْلِ الْقُبُورِ. وَيَقُولُ: «قُولُوا السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إنْ شَاءَ اللهُّ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَيَرْحَمُ اللهُّ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، نَسْأَلُ اللهَّ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ» فَهَذَا خِطَابٌ لَهُمْ، وَإِنَّمَا يُخَاطَبُ مَنْ يَسْمَعُ. وَرَوَىٰ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ رَجُلٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إلَّا رَدَّ اللهُّ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّىٰ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ" .

وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ الصَّلَاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْك؟ وَقَدْ أَرِمْت – يَعْنِي صِرْتُ رَمِيمًا – فَقَالَ: إنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ

حَرَّمَ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الْأَنْبِيَاءِ» . وَفِي السُّنَنِ أَنَّهُ قَالَ: «إنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَائِكَةً يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ" .

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا تُبَيِّنُ أَنَّ الْمَيِّتَ يَسْمَعُ فِي الْجُمْلَةِ كَلَامَ الْحَيِّ وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ السَّمْعُ لَهُ دَائِمًا، بَلْ قَدْ يَسْمَعُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ كَمَا قَدْ يُعْرَضُ لِلْحَيِّ فَإِنَّهُ قَدْ يَسْمَعُ أَحْيَانًا خِطَابَ مَنْ يُخَاطِبُهُ، وَقَدْ لَا يَسْمَعُ لِعَارِضٍ يَعْرِضُ لَهُ، وَهَذَا السَّمْعُ سَمْعُ إدْرَاكٍ، لَيْسَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ جَزَاءٌ، وَلَا هُوَ السَّمْعُ الْمَنْفِيُّ بِقَوْلِهِ: **﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾** [النمل: ٨٠] ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ سَمْعُ الْقَبُولِ وَالِامْتِثَالِ. فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْكَافِرَ كَالْمَيِّتِ الَّذِي لَا يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ، وَكَالْبَهَائِمِ الَّتِي تَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَلَا تَفْقَهُ الْمَعْنَى.

فَالْمَيِّتُ وَإِنْ سَمِعَ الْكَلَامَ وَفَقِهَ الْمَعْنَى فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ إجَابَةُ الدَّاعِي، وَلَا امْتِثَالَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَنُهِيَ عَنْهُ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَإِنْ سَمِعَ الْخِطَابَ، وَفَهِمَ الْمَعْنَى. كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾** [الأنفال: ٢٣] ...

وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: هَلْ تُعَادُ رُوحُهُ إلَى بَدَنِهِ ذَلِكَ الْوَقْتَ، أَمْ تَكُونُ تُرَفْرِفُ عَلَىٰ قَبْرِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَغَيْرِهِ؟ فَإِنَّ رُوحَهُ تُعَادُ إلَى الْبَدَنِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ. وَتُعَادُ أَيْضًا فِي غَيْرِ ذَلِكَ. وَأَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيّ، وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ، وَغَيْرُهُمْ: «أَنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اللَّهُ إلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ» وَفِي لَفْظٍ «ثُمَّ تَأْوِي إلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ» وَمَعَ ذَلِكَ فَتَتَّصِلُ بِالْبَدَنِ مَتَى شَاءَ اللَّهُ، وَذَلِكَ فِي اللَّحْظَةِ بِمَنْزِلَةِ نُزُولِ الْمَلَكِ، وَظُهُورِ الشُّعَاعِ فِي الْأَرْضِ، وَانْتِبَاهِ النَّائِمِ " .

والأموات كما هو معلوم يعرفون زائرهم، ومن يسلِّم عليهم، ويردُّون عليهم السَّلام، جاء في "مجموع الفتاوىٰ للإمام ابن تيمية (٢٤/ ٣٣١) : " وَسُئِلَ: عَنْ الْأَحْيَاءِ إذَا زَارُوا الْأَمْوَاتَ هَلْ يَعْلَمُونَ بِزِيَارَتِهِمْ؟ وَهَلْ يَعْلَمُونَ بِالْمَيِّتِ إذَا مَاتَ مِنْ قَرَابَتِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ؟.

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَعَمْ قَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ بِتَلَاقِيهِمْ وَتَسَاؤُلِهِمْ وَعَرْضِ أَعْمَالِ الْأَحْيَاءِ عَلَى الْأَمْوَاتِ، كَمَا رَوَىٰ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ: قَالَ: "إذَا قُبِضَتْ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا الرَّحْمَةُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ كَمَا يَتَلَقَّوْنَ الْبَشِيرَ فِي الدُّنْيَا فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ يَسْتَرِيحُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ. قَالَ: فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ مَا فَعَلَ فُلَانٌ وَمَا فَعَلَتْ فُلَانَةُ هَلْ تَزَوَّجَتْ" الْحَدِيثَ. وَأَمَّا عِلْمُ الْمَيِّتِ بِالْحَيِّ إذَا زَارَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا مِنْ أَحَدٍ

يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ" . قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحَّحَهُ عَبْدُ الْحَقِّ صَاحِبُ الْأَحْكَامِ " .

وعن تلك الوقائع يقول الإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوىٰ" (٢٤/٣٧٦) : " وَمَا ذَكَرْنَا فِي أَنَّ الْمَوْتَىٰ يَسْمَعُونَ الْخِطَابَ، وَيَصِلُ إلَيْهِمْ الثَّوَابُ، وَيُعَذَّبُونَ بِالنِّيَاحَةِ، بَلْ وَمَا لَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ السَّائِلُ مِنْ عِقَابِهِمْ فِي قُبُورِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ يُكْشَفُ لِكَثِيرٍ مِنْ أَبْنَاءِ زَمَانِنَا يَقَظَةً وَمَنَامًا، وَيَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَيَتَحَقَّقُونَهُ، وَعِنْدَنَا مِنْ ذَلِكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ" .

وقال في موضع آخر في " مجموع الفتاوىٰ" (٥/٥٢٥-٥٢٦) في معرض ردِّه علىٰ من كذَّب بعذاب القبر: " وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ النَّائِمَ يَكُونُ نَائِمًا وَتَقْعُدُ رُوحُهُ وَتَقُومُ وَتَمْشِي وَتَذْهَبُ وَتَتَكَلَّمُ وَتَفْعَلُ أَفْعَالًا وَأُمُورًا بِبَاطِنِ بَدَنِهِ مَعَ رُوحِهِ وَيَحْصُلُ لِبَدَنِهِ وَرُوحِهِ بِهَا نَعِيمٌ وَعَذَابٌ؛ مَعَ أَنَّ جَسَدَهُ مُضْطَجِعٌ؛ وَعَيْنَيْهِ مُغْمَضَةٌ وَفَمَهُ مُطْبَقٌ وَأَعْضَاءَهُ سَاكِنَةٌ وَقَدْ يَتَحَرَّكُ بَدَنُهُ لِقُوَّةِ الْحَرَكَةِ الدَّاخِلَةِ وَقَدْ يَقُومُ وَيَمْشِي وَيَتَكَلَّمُ وَيَصِيحُ لِقُوَّةِ الْأَمْرِ فِي بَاطِنِهِ؛ كَانَ هَذَا مِمَّا يُعْتَبَرُ بِهِ أَمْرُ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ؛ فَإِنَّ رُوحَهُ تَقْعُدُ وَتَجْلِسُ وَتُسْأَلُ وَتُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ وَتَصِيحُ وَذَلِكَ مُتَّصِلٌ بِبَدَنِهِ؛ مَعَ كَوْنِهِ مُضْطَجِعًا فِي قَبْرِهِ. وَقَدْ يَقْوَىٰ الْأَمْرُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ ذَلِكَ فِي بَدَنِهِ وَقَدْ يُرَىٰ خَارِجًا مِنْ قَبْرِهِ وَالْعَذَابُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مُوَكَّلَةٌ بِهِ فَيَتَحَرَّكُ بَدَنُهُ وَيَمْشِي وَيَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَقَدْ سَمِعَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَصْوَاتَ الْمُعَذَّبِينَ فِي قُبُورِهِمْ وَقَدْ شُوهِدَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ مُعَذَّبٌ وَمَنْ يَقْعُدُ بَدَنُهُ أَيْضًا إذَا قَوِيَ الْأَمْرُ لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ لَازِمًا فِي حَقِّ كُلِّ مَيِّتٍ؛ كَمَا أَنَّ قُعُودَ بَدَنِ النَّائِمِ لِمَا يَرَاهُ لَيْسَ لَازِمًا لِكُلِّ نَائِمٍ بَلْ هُوَ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْأَمْرِ" .

ثمَّ إنَّ الميِّت يُعرض عليه مقعده من الجنَّة أو النَّار بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنَّة فمن أهل الجنَّة، وإن كان من أهل النَّار فمن أهل النَّار.

روىٰ البخاري (٢/٩٩ برقم ١٣٧٩) ، مسلم (٤/٢١٩٩ برقم ٢٨٦٦) بسندهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ " .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري " (٣/٢٤٣) : " وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَرْضُ عَلَى الرُّوحِ فَقَطْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مَعَ جُزْءٍ مِنَ الْبَدَنِ ، قَالَ : وَالْمُرَادُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ وَقْتُهُمَا وَإِلَّا فَالْمَوْتَى لَا صَبَاحَ عِنْدَهُمْ وَلَا مَسَاءَ ... ثُمَّ هُوَ مَخْصُوصٌ بِغَيْرِ الشُّهَدَاءِ ، لِأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ وَأَرْوَاحُهُمْ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَأَنَّ الرُّوحَ لَا تَفْنَى بِفِنَاءِ الْجَسَدِ ، لِأَنَّ الْعَرْضَ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى حَيٍّ" .

وقال الإمام النَّووي في " " (١٧/ ٢٠١) : " ولايمتنع فِي الْعَقْلِ أَنْ يُعِيدَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَيَاةَ فِي جُزْءٍ مِنَ الْجَسَدِ وَيُعَذِّبُهُ وَإِذَا لَمْ يَمْنَعْهُ الْعَقْلُ وَوَرَدَ الشَّرْعُ بِهِ وَجَبَ قَبُولُهُ وَاعْتِقَادُهُ وَقَدْ ذَكَرَ مُسْلِمٌ هُنَا أَحَادِيثَ كَثِيرَةً فِي إِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَسَمَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ مَنْ يُعَذَّبُ فِيهِ وَسَمَاعِ الْمَوْتَى قَرْعَ نِعَالِ دَافِنِيهِمْ وَكَلَامِهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ الْقَلِيبِ وَقَوْلِهُ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ وَسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ الْمَيِّتَ وَإِقْعَادِهِمَا إِيَّاهُ وَجَوَابِهُ لَهُمَا وَالْفَسْحِ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَعَرْضِ مَقْعَدِهِ عَلَيْهِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ" .

فالميِّت يعرف زائره، ويردُّ عليه السَّلام إذا سلَّم عليه، والحديث الذي ذكره الإمام ابن تيمية ذكره أبو عمر بن عبد البر في "الاستذكار" (١/ ٢٤٦) بسنده إلى ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وذكره... ثمَّ أورد ابن عبد البر العديد من الآثار الدالَّة على سماع الميِّت لسلام الحي ...

وفي كتابه "التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة " (١/ ١٤٣-١٤٤) ذكر الإمام القرطبي عدداً من الرِّوايات الدالَّة على أنَّ الميِّت يسمع كلام الحي ويردُّ عليه السَّلام، ثمَّ قال بعدها: " هذه الأحاديث تشتمل على فقه عظيم وهو جواز زيارة القبور للرِّجال والنِّساء ، والسَّلام عليها ، وردِّ الميِّت السَّلام على من يسلِّم عليه " .

وجاء في صحيح مسلم (١/ ١١٢ برقم ١٢١) ما يدلُّ على أنَّ الميِّت يستأنس بالحيِّ إذا زار قبره، حيث روى بسنده عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ،

فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي" .

وعليه، فالأرواح بعد مفارقة الأبدان حيَّة عالمة، سامعة مُبصرة، متكلِّمة، مستأنسة بالحيِّ، ولذا خوطبت في الزِّيارة كما يُخاطب الأحياء، فنقول في زيارتنا للمقابر: " السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ، - وَفِي رِوَايَةِ زُهَيْرٍ -: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا، إِنْ شَاءَ اللهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ " . أخرجه مسلم مرفوعاً (٢/ ٦٧١ برقم ٩٧٥) .

كما ورد أنَّ الموتىٰ يقرأون القرآن في قبورهم، فقد روىٰ التِّرمذي (٥/ ١٤ برقم ٢٨٩٠ ، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الْمُلْكِ حَتَّى خَتَمَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" . والحديث رواه البزار (١١/ ٤٣٩ برقم ٥٣٠٠) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٧٤ برقم ١٢٨٠١) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٨١) ، البيهقي في إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين (ص٩٩ برقم ١٥٠) .

كما أنَّ ثواب عمل الحي يصل للأموات إذا ما أُهدي إليهم.

فقد ذهب أئمَّة المذاهب الإسلاميَّة إلىٰ أنَّ الميِّت يستفيد من عمل الحي إذا ما أهدىٰ الحيُّ ثواب عمله إليه، كما جاء في الأحاديث الصَّحيحة أنَّ الأموات يسقط عنهم ما يترتَّب علىٰ الحقوق الدِّينيَّة والدُّنيويَّة إذا ما أدَّاها الأحياء عنهم . انظر في هذه المسألة: حاشية ابن عابدين (٢/ ٥٠٦) ، الفتاوىٰ الهندية (١/ ١٦٦) ، التذكرة (ص٦٥-٦٦) ، حاشية الدسوقي علىٰ الشرح الكبير (١/ ٤٢٣) ، جزء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال (ص١٢٦) ، المجموع شرح المهذب (٥/ ٣١١) ، روضة الطالبين (١/ ٦٥٧) ، مغني المحتاج (١/ ٣٦٥) ، نهاية المحتاج (٣/ ٣٦) ، المغني والشرح الكبير (٢/ ٤٢٤-٤٢٥) ،

كشاف القناع (٢/ ١٦٥) ، الإنصاف للمرداوي (٢/ ٥٣٢) ، فتاوىٰ ابن تيمية (١٤/ ٤٢٣) ، إتقان الصنعة (ص١١٧) ، صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٢٠٢) ، الأذكار مع شرحه لابن علان (٤/ ١٩٣-١٩٤) ، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٨٦) ، تفسير البحر المحيط (٨/ ١٦٤) ، تفسير الخازن (٦/ ٥٥-٥٦) ، تفسير ابن عطية (٦/ ٢٠٦) ، حاشية الشهاب علىٰ البيضاوي (٩/ ١٨) ، تفسير الآلوسي (١٤/ ٦٦) ، تفسير الرازي (٢٩/ ١٤) ، الروح (ص١٥٤ فما بعدها) ، فتاوىٰ ابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦) ، كتاب انتفاع الأموات بإهداء التلاوات والصدقات وسائر القربات لإبراهيم الحنبلي، كتاب توضيح البيان لوصول ثواب القرآن للغماري.

وهذا كلُّه تفضُّلٌ من الله تعالىٰ، إذ طريق العدل **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ مَا سَعى﴾** [النجم: ٣٩] ، إلَّا أَّن الله تعالىٰ يتفضَّل علىٰ الأموات بما لم يجب لهم، كما أنَّ زيادة الأضعاف فضلٌ منه تعالىٰ.

والمراد ممَّا سبق بيانه أنَّ صلة الميِّت بالدُّنيا لم تنقطع بالموت، بل حبلُ الصِّلة موصول ما بين الحيِّ والميت ... كما أنَّ ثواب العمل الذي باشره الإنسان بنفسه دائم لا ينقطع خيره عن الميِّت....

ثمَّ إنَّ تبادل المنفعة أمرٌ مشتركٌ بين الحيِّ والميِّت، فقد يستفيد الحيُّ من الميِّت، بدليل ما رواه مسلم (٣/ ١٢٥٥ برقم ١٦٣١) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " .

فالحيُّ ينتفع بما تركه الميِّت من أمور تجري منفعتها علىٰ الأحياء، كالوصيَّة، والعلم، والصَّدقة، وسائر الأعمال الخيِّرة ذات النَّفع الدَّائم ...

رَابِعَاً : حَيَاةُ الأَنْبِيَاءِ فِي قُبُوْرِهِم:

لقد تضافرت الأحاديث الدالَّة علىٰ حياته ، منها:

قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصَّحيح : " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون " . أخرجه البزار في المسند (١٣/ ٢٩٩ برقم ٦٨٨٨) ، أبو يعلىٰ في المسند (٦/ ١٤٧ برقم ٣٤٢٥) ، وصحَّحه البيهقي في " حياة الأنبياء صلوات الله عليهم بعد وفاتهم " (ص٦٩ برقم ١) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١١ برقم ١٣٨١٢) ، وقال : رَوَاهُ أَبُو يَعْلَىٰ وَالْبَزَّارُ ، وَرِجَالُ أَبِي يَعْلَىٰ ثِقَاتٌ . قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٨٧) : " وَقَدْ جَمَعَ الْبَيْهَقِيُّ كِتَاباً لَطِيفاً فِي حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي قُبُورِهِمْ ، أَوْرَدَ فِيهِ حَدِيثَ أَنَسٍ " الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ " ، أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيقِ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ ، وَهُوَ مِنْ رِجَالِ الصَّحِيحِ عَنِ الْمُسْتَلِمِ بْنِ سَعِيدٍ ، وَقَدْ وَثَّقَهُ أَحْمد وبن حبَان عَن الْحَجَّاج الْأسود ، وَهُوَ بن أبي زِيَاد الْبَصْرِيّ ، وَقد وَثَّقَهُ أَحْمد وبن مُعِينٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْهُ ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضاً أَبُو يَعْلَىٰ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَأَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ لَكِنْ وَقَعَ عِنْدَهُ عَنْ حَجَّاجٍ الصَّوَّافِ وَهُوَ وَهْمٌ ، وَالصَّوَابُ الْحَجَّاجُ الْأَسْوَدُ ، كَمَا وَقَعَ التَّصْرِيحُ بِهِ فِي رِوَايَةِ الْبَيْهَقِيِّ وَصَحَّحَهُ الْبَيْهَقِيُّ ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضاً مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بْنِ قُتَيْبَةَ عَن المستلم ... " ، وقال المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٤٢٦) : " قَالَ السمهودي رِجَاله ثِقَات وَصَححهُ الْبَيْهَقِيّ.

فالحديث يدلُّ دلالة واضحة علىٰ أنَّ الأنبياء أحياءٌ في قبورهم ، وأنهم يصلُّون ، والصَّلاة تستدعي جسداً حيَّاً ، قال الإمام القرطبي في " المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم " (١٩/ ١٠٤) في كلامه علىٰ حديث صلاة موسىٰ عليه السَّلام في قبره : " ... وهذا الحديث يدلُّ بظاهره علىٰ أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأىٰ موسىٰ رؤية حقيقيَّة في اليقظة ، وأنَّ موسىٰ كان في قبره حيَّاً يُصلي فيه الصلاة التي كان له يصليها في الحياة ، وهذا كله مُمكنٌ لا إحالة في شيء منه ، وقد صحَّ أنَّ الشُّهداء أحياء يرزقون ، ووجد منهم من لم يتغيَّر في قبره من السِّنين كما ذكرناه . وإذا كان هذا في الشُّهداء كان في الأنبياء أحرىٰ وأولىٰ ، فإنَّ قيل : كيف يصلُّون بعد الموت وليس تلك الحال حال تكليف ؟ فالجواب : أنَّ ذلك ليس بحكم التَّكليف ، وإنَّما ذلك بحكم الإكرام لهم والتَّشريف ، وذلك أنَّهم كانوا في الدُّنيا حبِّبت لهم عبادة الله تعالىٰ والصَّلاة ، بحيث كانوا يلازمون ذلك ، ثمَّ توفُّوا وهم علىٰ ذلك ، فشرَّفهم الله تعالىٰ بعد موتهم بأن أبقىٰ عليهم ما كانوا يحبُّون ، وما عُرفوا به ، فتكون عبادتهم إلهاميِّة كعبادة الملائكة ، لا تكليفيَّة ، وقد وقع مثل هذا لثابت البناني رضي الله عنه ؛ فإنَّه حُبِّبت الصَّلاة إليه حتىٰ كان يقول : اللهمَّ إن كنت أعطيت أحداً يصلِّي لك في قبره ، فأعطني ذلك . فرآه مُلْحِدُه ، بعدما سوَّىٰ عليه لحده قائماً يصلِّي في قبره " .

وقولُّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ما من أحد يسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله إليَّ روحي حتىٰ أردَّ عليه السَّلام " . فإن قيل : قوله في الحديث : " إلَّا ردَّ الله عليَّ روحي حتىٰ أردّ عليه " ، دالٌّ علىٰ عدم استمرار الحياة ، فالجواب من وجوه:

الأوَّلُ : أنَّ البيهقي استدلَّ به علىٰ حياة الأنبياء ، قال : وإنَّما أراد – والله أعلم – إلا وقد ردَّ الله عليَّ روحي حتىٰ أردّ عليه.

الثَّانِي : أنَّ السُّبكي ، قال : يحتمل أن يكون ردَّاً معنوياً ، وأن تكون روحه الشَّريفة مشتغلة بشهود الحضرة العليَّة والملأ الأعلىٰ عن هذا العالم ، فإذا سلَّم عليه أقبلت روحه علىٰ هذا العالم لتدارك السَّلام وترد علىٰ المسلِّم ، يعنىٰ : أنَّ ردَّ روحه الشَّريفة التفاتٌ روحاني وتنزُّلٌ إلىٰ دوائر البشريَّة من الاستغراق في الحضرة العليَّة.

الثَّالِثُ : قال بعضهم : هو خطاب علىٰ مقدار فهم المخاطبين في الخارج من الدُّنيا أنَّه لا بدَّ من عود روحه حتىٰ يسمع ويجيب ، فكأنَّه قال : أنا أجيب ذلك تمام الإجابة ، وأسمعه تمام السَّماع مع دلالته علىٰ ردِّ الرُّوح

عند سلام أول مسلِّم ولم، يرد أنها تُقبض ، بعد ولا قائل بتكرُّر ذلك ، إذ يفضي ذلك إلى توالي موتات لا تحصر ، مع أنَّا نعتقد ثبوت الإدراكات ، كالعلم والسَّماع لسائر الموتى فضلاً عن الأنبياء ، ونقطع بعودة الحياة لكلِّ ميِّت في قبره ، كما ثبت في السُّنَّة لأجل السُّؤال ، فيجب الإيمان به كالإيمان بنعيم القبر وعذابه ، وإدراك ذلك من الأعراض المشروطة بالحياة ، وقد يقال : لو كانوا أحياء لرأيناهم ، فنقول لهم : إنَّ الملائكة أحياء ، والشُّهداء أحياء ، والجنُّ أحياء ، ولا نراهم ، وتجوز رؤيتهم من حيث أنَّ كلَّ موجود يمكن رؤيته . وقد ألَّف الإمام السُّيوطي رحمه الله تعالى كتاباً سمَّاه : " نور الحلك في جواز رؤية الجنِّ والملك " ، وتعرَّض فيه لجواز رؤية النَّبيِّ أيضاً ، وأورد لذلك أدلَّة ، جزاه الله خيراً " . انظر : منهج السلف في فهم النصوص (ص١٣٤-١٣٥) .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري" (٦/ ٤٨٨) : " وَمِمَّا يُشْكِلُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ : " مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ " ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ ، وَوَجْهُ الْإِشْكَالِ فِيهِ أَنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ يَقْتَضِي انْفِصَالَهَا عَنْهُ وَهُوَ الْمَوْتُ . وَقَدْ أَجَابَ الْعُلَمَاءُ عَنْ ذَلِكَ بِأَجْوِبَةٍ:

أَحَدِهَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي أَنَّ رَدَّ رُوحِهِ كَانَتْ سَابِقَةً عَقِبَ دَفْنِهِ لَا أَنَّهَا تُعَادُ ثُمَّ تُنْزَعُ ثُمَّ تُعَادُ.

الثَّانِي : سَلَّمْنَا لَكِنْ لَيْسَ هُوَ نَزْعَ مَوْتٍ بَلْ لَا مَشَقَّةَ فِيهِ.

الثَّالِثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالرُّوحِ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِذَلِكَ.

الرَّابِعُ : الْمُرَادُ بِالرُّوحِ النُّطْقُ فَتَجُوزُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ خِطَابِنَا بِمَا نَفْهَمُهُ.

الْخَامِسُ : أَنَّهُ يَسْتَغْرِقُ فِي أُمُورِ الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، فَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهْمُهُ لِيُجِيبَ مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ.

وَقَدِ اسْتُشْكِلَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَهُوَ أَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ اسْتِغْرَاقَ الزَّمَانِ كُلِّهِ فِي ذَلِكَ لِاتِّصَالِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ مِمَّنْ لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَأُجِيبَ : بِأَنَّ أُمُورَ الْآخِرَةِ لَا تُدْرَكُ بِالْعَقْلِ وَأَحْوَالُ الْبَرْزَخِ أَشْبَهُ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ " .

وقولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " حياتي خيرٌ لكم ، تُحدثون ويُحدث لكم ، ووفاتي خير لكم ، تُعرض عليَّ أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدتُ الله عليه ، وما رأيت من شرٍّ استغفرتُ لكم " . أخرجه البزار (١/ ٣٩٧) (كشف) . وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٢٧ برقم ١٤٢٥٠) : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، وصحَّحه السيوطي في الخصائص

٢/ ٢٨١ ، وقال العراقي في طرح التثريب ٣/ ٢٩٧ : إسناده جيد ، ونصَّ المناوي في فيض القدير ٣/ ٤٠١ بأنه صحيح ، والملا علي القاري في شرح الشفا ١/ ١٠٢ ، وكذا عبد الله الغماري في جزء (نهاية الآمال في شرح وتصحيح حديث عرض الأعمال) . وجاء هذا الحديث عن طريق آخر مرسلاً عن بكر بن عبد الله المزني ، وهو غاية في الصحة . وقد أفاض الأستاذ محمود سعيد ممدوح في الردِّ على تضعيف الألباني للحديث ، وبيّن أنه – أي الألباني – اتبع في تضعيفه للحديث سبيلاً لم يسبق إليه ، وتلاعب تلاعباً يُعاب عليه ، وبما لا مزيد عليه ، ومما قاله في ذلك بعد أن ذكر طرق الحديث : أما تضعيفه للحديث فاتبع سبيلاً لم يسبق إليه كما صرح هو بذلك في ضعيفته (٢/ ٤٠٥) ، فإنه أضاف للحديث حديثاً آخر رواه جمع من الثقات ، وجعل حديث (حياتي خيرٌ لكم ...) زيادة على الحديث الأوَّل ، انفرد بها عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد فحكم على الحديث الثَّاني بالشُّذوذ لمخالفة عبد المجيد للثِّقات الذين رووا الحديث الأوَّل...!! وذلك أنَّ الحافظ البزَّار قال في مسنده : حدَّثنا يوسف بن موسى ، ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد ، عن عبد الله بن السَّائب ، عن زاذان ، عن عبد الله ، عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : " إنَّ لله ملائكة سيَّاحين يبلغوني عن أمَّتي السَّلام " . قال : وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " حياتي خيرٌ لكم تحدثون ويحدث لكم ... " الحديث . فالحديث الأوَّل : رواه عن سفيان جمع من الثِّقات . والحديث الثَّاني : انفرد به عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد ، فلمّا جعلهما الألباني حديثاً واحداً حكم على الثَّاني بالشُّذوذ ، ولم يعده حديثاً مستقلاً بل زيادة ، وهذا خطأ بيِّن ! . ذلك أنَّ المدقِّق لا بدَّ أن يعلم أنَّ هذين حديثين بسند واحد أخرجهما البزَّار كما ترى سعياً للاختصار ، وعدم تكرار الإسناد ، وهو ما يكثر حدوثه في كتب الحديث ، حيث يذكرون سنداً واحداً لعدَّة متون ، وهو ظاهر لا يحتاج لشرح وبيان ، وقد أصاب الحافظ السُّيوطي فجعل في جامعيه : الصَّغير والكبير الحديث الأوَّل في مكان ، والحديث الثَّاني في مكان آخر ، وهذا من شفوف نظره ، وثاقب فهمه ، رحمه الله تعالى ، والله أعلم.

ولكي تروق للألباني دعوته صرَّح بأنَّ عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد متكلَّم فيه من قِبَل حفظه ، وهو وإن وثَّقه بعضهم لكن ضعَّفه آخرون ، وبيَّن بعضهم السَّبب (كذا) في ضعيفته (٢/ ٤٠٤) ، فكلامه يرشح بضعف الرجل . ولأنَّ الرجل ثقة ، ومن رجال الصحيح ، فقد رأيت أنَّ هذا مقام الذب عنه وبيان ثقته . فقد وثقه ابن معين ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن شاهين ، والخليلي . ورجل يوثِّقه هؤلاء ، ويكثر مسلم من الاحتجاج به في صحيحه يكون قد جاوز القنطرة ، ويكون ما جاء فيه من الجرح مردوداً عند التأمُّل والنَّظر الصَّحيح الموافق لقواعد الحديث . فمن تكلَّم فيه فلأسباب:

١ .بسبب مذهبه ، فإنه كان مرجئاً ، وهذا لا يضرُّ في الرواية كما هو مقرَّر في محلِّه ، وقد قال الحافظ الذَّهبي في الميزان بعد ذكر عبد المجيد بن عبد العزيز في جماعة من الثِّقات المرجئين ما نصّه : الإرجاء مذهب لعدَّة من جلَّة العلماء لا ينبغي التَّحامل عليه به . أهـ.

٢ .كونه أخطأ في أحاديث ، فإنَّه روى حديث الأعمال بالنيَّات من طريق مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري به مرفوعاً . هكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٤٢) ، والقضاعي في مسند الشِّهاب (فتح الوهاب ١/ ١٦) ، وأبو يعلي الخليلي في الإرشاد (١/ ٢٣٣) . والمحفوظ هو عن مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمَّد بن إبراهيم التَّيمي ، عن علقمة ، عن عمر به مرفوعاً ، هكذا أخرجه الجماعة . ولذا عُدّ هذا الحديث ممَّا أخطأ فيه عبد المجيد فكان ماذا ؟ فمن ذا الذي ما غلط في حديث بل في أحاديث ؟ فإذا وقفت على ترجمة ابن عدي لعبد المجيد بن أبي روّاد في الكامل (٥/ ١٩٨٢) ، فتذكَّر قول الذَّهبي في الموقظة (ص٧٨) : وليس من حدّ الثِّقة أنَّه لا يغلط ، ولا يخطئ ، فمن الذي يسلم من ذلك ؟ غير المعصوم الذي لا يقر على خطأ ؟ وقد نبَّه الذَّهبي على هذا المعنى عدَّة مرَّات في ميزان الاعتدال . والحاصل أنَّ وجود بعض الوهم في حديث عبد المجيد بن أبي روّاد لا يخرجه عن حدِّ الثِّقة ، لا سيَّما وأنَّه كان حافظاً مكثراً وكثيراً ما يقع من المكثرين مثل ذلك . وقد وصفه الذَّهبي بالحفظ والصِّدق ، فقال في النُّبلاء (٩/ ٤٣٤) : العالم القدوة الحافظ الصَّادق . أهـ.

٣.من تكلّم فيه بجرح غير مفسَّر كقول أبي حاتم الرَّازي – وتشدّده معروف ومشهور – (لا يحتجّ به ، يعتبر به) ، وكقول ابن سعد : (كان كثير الحديث مرجئاً ضعيفاً) ، وكقول أبي أحمد الحاكم : (ليس بالمتين عندهم) ، وكقول أبي عبد الله الحاكم : (هو ممَّن سكتوا عنه).

فهذا فضلاً عن كونه من الجرح الخفيف الذي لم يسلم منه إلَّا الطَّبقة الأولى من الثِّقات ، فهو من الجرح الغير مفسَّر الذي ينبغي رده في مقابل توثيق ابن معين ، وأحمد ، وأبي داود ، والنَّسائي ، وغيرهم.

٤.من تكلم فيه بجرح فيه مبالغة وتشدد مردود ، وهو ابن حبان حيث قال في المجروحين (٢/ ١٦١) : منكر الحديث جداً ، يقلب الأخبار ، ويروي المناكير عن المشاهير فاستحقَّ التَّرك . أهـ. وقد نبَّه الحافظ في " التَّقريب " (ص٣٦١) على إفراط ابن حبَّان بمقولة التَّرك . وإن تعجب فعجب من الألباني الذي اقتصر في ضعيفته (٢/ ٤٠٤) على قول الحافظ صدوق يخطئ ، ولم يذكر تعقُّب الحافظ على ابن حبَّان وما فعل هذا إلَّا ليوهم القرَّاء أنَّ الرَّجل متروك ، وكلام ابن حبَّان مقبول غير متعقّب ، نعوذ بالله من اتِّباع الهوى وشرّه.

وكيف يكون الرَّجل مستحقاً للتَّرك ويغيب ذلك عمّن حدث عنه ووثقه كأحمد ، وابن معين .

وابن حبَّان يبالغ جداً في الجرح حتى قال عنه الذَّهبي في الميزان (١/ ٢٧٤) : ابن حبَّان ربما قصب الثِّقة حتى كأنَّه لا يدري ما يخرج من رأسه . وكأنَّ مستند ابن حبَّان في المبالغة في جرحه لعبد المجيد بن أبي رواد ما رواه في " المجروحين " (٢/ ١٦١) من طريق عبد المجيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، قال : " القدرية كفر ، والشيعة هلكة ، والحرورية بدعة ، وما نعلم الحق إلا في المرجئة " . قال الدَّارقطني في الأفراد : تفرَّد به عبد المجيد ، وزاد الحافظ في التهذيب (٦/ ٣٨٣) : وبقية رجاله ثقات .

قلت : ما قاله الدَّارقطني والحافظ حقّ لا مرية فيه ، ولا يعني هذا اتِّهام عبد المجيد ، فالصَّواب ، وهو الحقّ أيضاً الذي لا مرية فيه اتِّهام من دلَّسه ابن جريج ، فإنَّه كان مدلِّساً سيء التَّدليس .

قال الدَّارقطني : تجنَّب تدليس ابن جريج ، فإنَّه قبيح التَّدليس لا يدلِّس إلَّا فيما سمعه من مجروح . أهـ.

وقال الإمام أحمد بن حنبل : بعض هذه الأحاديث التي كان يرسلها ابن جريح أحاديث موضوعة ، كان ابن جريج لا يبالي من أين يأخذها . أهـ هكذا في الميزان) ٢/ ٦٥٩. (

وبذا تعلم ما في جرح ابن حبَّان من النَّظر ، وتُعَصّب الجناية في هذا الإسناد فيمن دلّسه ابن جريج ، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات . والحاصل أنَّ الرَّجل كما قال معاصروه أحمد، وابن معين: ثقة، ومن تكلَّم فيه فكلامه مردود لا ينتبه إليه.

ومن أجل هذا اعتمده مسلم في صحيحه ، وأخرج له في أصوله . ولهذا قال الحافظ الذَّهبي في "من تُكلّم فيه وهو موثَّق" (ص١٢٤) : ثقة مرجئ داعية ، غمزه ابن حبَّان . أهـ.

فكلام الذهبي يصرِّح بتوثيق الرَّجل ، وأنَّ بدعته وكلام ابن حبَّان لا يؤثِّران في ثقته ، وإن كان لهما تأثير لما صرَّح بتوثيقه فتنبَّه ، والله أعلم بالصَّواب. أمَّا كونه (أي الألباني) تلاعب تلاعباً يُعاب عليه فبيانه من وجهين:

الأَوَّلُ : قال في ضعيفته (٢/ ٤٠٥) : فلعلَّ هذا الحديث الذي رواه عبد المجيد موصولاً عن ابن مسعود أصله هذا المرسل عن بكر ، أخطأ فيه عبد المجيد فوصله عن ابن مسعود ملحقاً إيَّاه بحديثه الأوَّل . أهـ.

قلت : هذا ظنٌ ، والظَّنُّ ليس بكذب فقط ، ولكنَّه أكذب الحديث ، ويلزم من هذا الظَّن الفاسد ردّ المسند – الذي فيه راوٍ تكلّم فيه – للمرسل الذي جاء من وجه أقوى ، فلا يصحُّ بذلك مرسل إلَّا بشق الأنفس ، وفيه إهدار لشطر من السُّنَّة ، ولم أجد من سبق الألباني لهذه الخرافة.

الثَّانِي : فإنَّه قد تقرَّر أنَّ الحديث المرسل يتقوَّىٰ بأمور ، منها : إذا ورد هذا المرسل من طريق آخر موصول ضعيف تقوَّىٰ المرسل به ، وصار من باب الحسن لغيره ، وبه تقوم الحجَّة ويلزم العمل به ، وإذا كان الموصول الذي فيه عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد من قسم الضَّعيف كما ارتآه الألباني – دفعاً بالصّدر – فإنَّ المرسل الصَّحيح إذا ضمّ إليه صار من قسم الحسن المقبول الذي يجب العمل به اتِّفاقاً.

ولم أجد مبرِّراً عند الألباني يبعده عن اتِّباع القواعد الحديثيَّة هنا إلَّا التَّعنُّت ، واتِّباع الهوىٰ في ردِّ مثل هذه الأحاديث.

وأزيد هنا بخصوص هذا الحديث ردّه علىٰ نفسه واتِّباعه لما تقرَّر من قبول المرسل بالشُّروط المبسوطة في محلِّها قوله في ردِّه علىٰ الشَّيخ إسماعيل الأنصاري (كتاب الشيباني ١/ ١٣٤-١٣٥) ما نصَّه : المرسل الصَّحيح إسناده حجَّة وحده عند جمهور الفقهاء ، قال الحافظ ابن كثير : " والاحتجاج به مذهب مالك وأبي حنيفة وأصحابها وهو يحكي عن أحمد في رواية."

وأمَّا مذهب الشَّافعي فشرطه في الاحتجاج به معروف ، وهو أن يجيء من وجه آخر ولو مرسلاً ... فهذا الحديث المرسل صحيح حجَّة عند المذاهب الأربعة وغيرهم من أئمَّة أصول الحديث والفقه ، وبذلك يظهر لكلِّ منصف أنَّ القول بسقوط الاستدلال بهذا الحديث لمجرَّد وروده مرسلاً هو السَّاقط . أهـ.

ثمَّ حديث عرض الأعمال أولىٰ بالقبول من هذا المرسل الذي تقوَّىٰ بموصول ، فالموصول في الرَّد علىٰ الأنصاري ، فيه ليث بن أبي سليم حاله معروف في الضَّعف ، وموصولنا فيه عبد المجيد ابن عبد العزيز بن أبي روّاد وقد تقدَّم توثيقه ، وأنَّه من رجال مسلم ، فيكون قد جاوز القنطرة . انظر : رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسُّل والزيارة ، محمود سعيد ممدوح ، (ص١٦١ فما بعدها) .

فالحديث يدلُّ دلالة صريحة واضحة علىٰ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمُ بأعمالنا لأنَّها تُعرض عليه ، وأنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستغفرُ الله لنا إن كانت أعمالنا قبيحة ... فدلالة الحديث علىٰ استغفار الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين العاصين المذنبين واضحة جليَّة ، ولذلك لا غضاضة في الدُّعاء عنده ، والتَّوسُّل به إلىٰ الله تعالىٰ ، وسؤاله الاستغفار لعباد الله المذنبين...

وقد أخبرنا الله تعالىٰ في القرآن أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهيدٌ علىٰ أُمَّته يوم القيامة ، فإن لم يعرف ما جرىٰ من أُمَّته فكيف سيشهد عليهم ؟!!! لذا فإنَّ عَرضَ الأعمال عليه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضروريٌ لشهادته علينا ، قال الإمام عبد الله بن المبارك : " أَنَا رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، عَنِ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ يَقُولُ : لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ إِلاَّ يُعْرَضُ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً ، فَيَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لِيَشْهَدَ عَلَيْهِمْ ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾** [النساء: ٤١] . أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (٢/ ٤٢ برقم ١٦٦) .

ومن المعلوم ، أنَّ عرض الأعمال ليس خاصَّاً به صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بل يعمُّ قرابة الإنسان ، كما ورد في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَىٰ أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً

اسْتَبْشَرُوا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ، قَالُوا : اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُمْ ، حَتَّى تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا " . أخرجه أحمد (٣/ ١٦٥ برقم ١٢٧١٣) ، الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٢٩ برقم ٣٨٨٧) ، المعجم الأوسط (١/ ٥٣ برقم ١٤٨) .

قلت : وهذا تفسير ما جاء في قوله تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾** [التوبة : ١٠٥] ، فقد قال الإمام ابن كثير في "التَّفسير" (٤/ ٢٠٩) في تفسير هذه الآية : " وَقَدْ وَرَدَ : أَنَّ أَعْمَالَ الْأَحْيَاءِ تُعرَض عَلَى الْأَمْوَا تِ مِنَ الْأَقْرِبَاءِ وَالْعَشَائِرِ فِي الْبَرْزَخِ ، كَمَا قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ : حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ دِينَارٍ ، عَنِ الْحَسَنِ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقْرِبَائِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا : " اللَّهُمَّ ، أَلْهِمْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ" ، وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ سُفْيَانَ ، عمَّن سَمِعَ أَنَسًا يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً اسْتَبْشَرُوا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا : اللَّهُمَّ ، لَا تُمِتْهُمْ حَتَّى تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا " . أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٦٥ برقم ١٢٧١٣) .

وقولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أكثروا الصَّلاة عليَّ في يوم الجمعة ، فإنَّه ليس يصلِّي عليَّ أحدٌ يوم الجمعة إلا عُرضت عليَّ صلاته " . أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٤٢١ برقم ٣٥٧٧ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ ، فَإِنَّ أَبَا رَافِعٍ هَذَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ رَافِعٍ وَلَمْ يُخَرِجَاهُ) ، شعب الإيمان (٤/ ٤٣٣ برقم ٢٧٦٩) ، ابن ماجه (١/ ٥٢٤ برقم ١٦٣٧) .

وجاء في رواية ابن أبي شيبة ، والطَّبراني ، وابن ماجه ، والبيهقي : " ... فقال رجل يا رسول الله : كيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ يعني بليت ، فقال : " إنَّ الله حرَّم على الأرضِ أن تأكَلَ أَجسادَ الأنبياء " . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٥١٦ ، ٨٧٨٩برقم) ، الدارمي (٢/ ٩٨١ برقم ١٦١٣) ، ابن ماجه (١/ ٣٤٥ برقم ١٠٨٥) ، الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢١٦ برقم ٥٨٩) ، البيهقي في الدعوات الكبير (٢/ ١٣٢ برقم ٥٢٥) .

قال الإمام الشَّوكاني في " نيل الأوطار " (٣/ ٢٩٥) بعد أن ذكر جملة من الأحاديث الدالَّة على تحريم أكل أجساد الأنبياء على الأرض ، قال : " وَالْأَحَادِيثُ فِيهَا مَشْرُوعِيَّة الْإِكْثَارِ مِنْ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَأَنَّهَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَنَّهُ حَيٌّ فِي قَبْرِهِ.

وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ جَيِّد أَنَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُل أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ " . انظر سنن ابن ماجه (١/ ٥٢٤ برقم ١٥٣٧) .

وَفِي رِوَايَة لِلطَّبَرَانِيِّ "، قُلْنَا : وَبَعْدَ وَفَاتِك ؟ قَالَ : وَبَعْدَ وَفَاتِي ، إنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ ."

وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَة مِنْ الْمُحَقِّقِينَ إلَى أَنَّ رَسُولَ اللهَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَيّ بَعَدَ وَفَاته ، وَأَنَّهُ يُسَرُّ بِطَاعَاتِ أُمَّته ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُبْلَوْنَ ، مَعَ أَنَّ مُطْلَق الْإِدْرَاك كَالْعِلْمِ وَالسَّمَاع ثَابِت لِسَائِرِ الْمَوْتَى ... وَوَرَدَ النَّصّ فِي كِتَابِ اللهَّ فِي حَقّ الشُّهَدَاءِ أَنَّهُمْ أَحْيَاء يُرْزَقُونَ وَأَنَّ الْحَيَاة فِيهِمْ مُتَعَلِّقَة بِالْجَسَدِ فَكَيْف بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ " .

وقال السيِّد محمَّد بن علوي المالكي في " منهج السَّلف في فهم النُّصوص " (ص١٤٣) : " ويُفهم من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عُرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها " أنه بمجرَّد ما يبتدئ المصلِّي بالصَّلاة يسمعها حتى يفرغ منها.

ولقد أحسن السَّائل بالاستيضاح منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال له : وبعد الموت ؟ فبيَّن له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ ذلك العرض بعد الموت لوجود صفة الحياة فيه " .

وقد أكَّد على القول بحياة الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام علماء الأمَّة ، فمن أقوالهم في ذلك:

قال الإمام تاج الدِّين السُّبكي في " طبقات الشَّافعيَّة الكبرى " (٣/ ٤١١-٤١٢) : " فَإِذا ثَبت أَنَّ نَبيَّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ ، فالحيُّ لا بدَّ من أَن يكون إِمَّا عَالماً أَو جَاهِلاً ، وَلَا يجوز أَن يكون النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاهِلاً ... لِأَنَّ عندنَا رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ ، يحسُّ ، وَيعلمُ ، وَتُعرض عَلَيْهِ أَعمال الْأمَّة ، ويبلَّغ الصَّلَاة وَالسَّلَام على مَا بيَنَّا " .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري " (٦/ ٤٨٨) : " ... وَقَدْ ثَبَتَ بِهِ النَّقْلُ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى حَيَاتِهِمْ . قُلْتُ : وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ مِنْ حَيْثُ النَّقْلِ ، فَإِنَّهُ يُقَوِّيهِ مِنْ حَيْثُ النَّظَرِ ، كَوْنُ الشُّهَدَاءِ أَحْيَاءٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الشُّهَدَاءِ " .

وقال الإمام السَّخاوي في " القول البديع في الصَّلاة على الحبيب الشَّفيع " (ص١٦٧) : " ونحن نؤمن ونصدِّق بأنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ يُرزقُ في قبره ، وأنَّ جسده الشَّريف لا تأكلهُ الأرض ، والإجماعُ على هذا " . وقال الإمام السُّيوطي في " الحاوي للفتاوي" (٢/ ١٧٨-١٧٩باختصار) : " حَيَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَبْرِهِ هُوَ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ مَعْلُومَةٌ عِنْدَنَا عِلْمًا قَطْعِيّاً لِمَا قَامَ عِنْدَنَا مِنَ الْأَدِلَّةِ فِي ذَلِكَ وَتَوَاتَرَتْ بِهِ

الْأَخْبَارُ ، وَقَدْ أَلَّفَ الْبَيْهَقِيُّ جُزْءاً فِي حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي قُبُورِهِمْ ... وَأخرج الزُّبير بن بكار فِي أَخْبَار الْمَدِينَة عَن سعيد بن الْمسيب ، قَالَ : لم أزل أسمع الآذان وَالْإِقَامَة فِي قبر رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّام الْحرَّة حَتَّى عَاد النَّاس " .

وقال الإمام السُّيوطي في " الحاوي للفتاوي " (٢/ ١٨٠-١٨٤ باختصار) : " وَقَالَ الْقَاضِي شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم البارزي فِي كِتَابِ تَوْثِيقِ عُرَى الْإِيمَانِ : قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الِاعْتِقَادِ : الْأَنْبِيَاءُ بَعْدَ مَا قُبِضُوا رُدَّتْ إِلَيْهِمْ أَرْوَاحُهُمْ فَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ كَالشُّهَدَاءِ ، وَقَدْ رَأَى نَبِيُّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ جَمَاعَةً مِنْهُمْ ، وَأَخْبَرَ – وَخَبَرُهُ صِدْقٌ – أَنَّ صَلَاتَنَا مَعْرُوضَةٌ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ سَلَامَنَا يَبْلُغُهُ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الْأَنْبِيَاءِ ، قَالَ الْبَارِزِيُّ : وَقَدْ سُمِعَ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي زَمَانِنَا وَقَبْلِهِ أَنَّهُمْ رَأَوُا النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْيَقَظَةِ حَيّاً بَعْدَ وَفَاتِهِ ، قَالَ : وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْبَيَانِ نَبَأُ ابْنُ محمَّد بْنِ مَحْفُوظٍ الدِّمَشْقِيِّ فِي نَظِيمَتِهِ ... قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورٍ عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ طَاهِرٍ الْبَغْدَادِيُّ الْفَقِيهُ الْأُصُولِيُّ شَيْخُ الشَّافِعِيَّةِ فِي أَجْوِبَةِ مَسَائِلِ الْجَاجِرْمِيِّينَ . قَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَصْحَابِنَا : أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَأَنَّهُ يُسَرُّ بِطَاعَاتِ أُمَّتِهِ ، وَيَحْزَنُ بِمَعَاصِي الْعُصَاةِ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُ تَبْلُغُهُ صَلَاةُ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِهِ ... وَقَالَ الشيخ تقي الدِّين السُّبكي : حَيَاةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالشُّهَدَاءِ فِي الْقَبْرِ كَحَيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَيَشْهَدُ لَهُ صَلَاةُ مُوسَى فِي قَبْرِهِ ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ تَسْتَدْعِي جَسَداً حَيّاً ، وَكَذَلِكَ الصِّفَاتُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْأَنْبِيَاءِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ كُلُّهَا صِفَاتُ الْأَجْسَامِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهَا حَيَاةً حَقِيقَةً أَنْ تَكُونَ الْأَبْدَانُ مَعَهَا كَمَا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الِاحْتِيَاجِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَأَمَّا الْإِدْرَاكَاتُ كَالْعِلْمِ وَالسَّمَاعِ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ لَهُمْ وَلِسَائِرِ الْمَوْتَى ... قَالَ الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ بْنُ الصَّاحِبِ فِي مُؤَلَّفٍ لَهُ فِي حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ : هَذَا صَرِيحٌ فِي إِثْبَاتِ الْحَيَاةِ لِمُوسَى فِي قَبْرِهِ ، فَإِنَّهُ وَصَفَهُ بِالصَّلَاةِ ، وأَنَّهُ قَائِمٌ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ لَا يُوصَفُ بِهِ الرُّوحُ ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِهِ الْجَسَدُ ، وَفِي تَخْصِيصِهِ بِالْقَبْرِ دَلِيلٌ عَلَى هَذَا ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَوْصَافِ الرُّوحِ لَمْ يَحْتَجْ لِتَخْصِيصِهِ بِالْقَبْرِ .

وَقَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ السُّبْكِيُّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّلَاةُ تَسْتَدْعِي جَسَداً حَيّاً وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهَا حَيَاةً حَقِيقَةً أَنْ تَكُونَ الْأَبْدَانُ مَعَهَا كَمَا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الِاحْتِيَاجِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ الَّتِي نُشَاهِدُهَا ، بَلْ يَكُونُ لَهَا حُكْمٌ آخر " .

قلت : وقد روىٰ الإمام الدَّارمي في سننه بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، قَالَ : لَمَّا كَانَ أَيَّامُ الْحَرَّةِ لَمْ يُؤَذَّنْ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثاً ، وَلَمْ يُقَمْ ، وَلَمْ يَبْرَحْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ الْمَسْجِدَ ، وَكَانَ لَا يَعْرِفُ وَقْتَ الصَّلَاةِ إِلَّا بِهَمْهَمَةٍ يَسْمَعُهَا مِنْ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ مَعْنَاهُ . أخرجه الدارمي (١/ ٢٢٧ برقم ٩٤) .

وقال الإمام السَّمهودي في "وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ " (٤/ ١٧٩) : " ولا شكَّ في حياته صلَّىٰ الله عليه وسلَّم بعد وفاته ، وكذا سائر الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام أحياء في قبورهم حياة أكمل من حياة الشُّهداء التي أخبر الله تعالىٰ بها في كتابه العزيز."

وقال أيضاً في (٤/ ١٨١) : " وأما أدلَّة حياة الأنبياء فمقتضاها حياة الأبدان كحالة الدُّنيا ، مع الاستغناء عن الغذاء ، ومع قوَّة النفوذ في العالم " ..

وقال الإمام حسن بن عمَّار الشرنبلالي المصري الحنفي في " مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح" (ص٢٨٣-٢٨٤) : " وممَّا هو مقرَّر عند المحقِّقين أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ يُرزق ، مُمَتَّع بجميع الأعمال والعبادات ، غير أنه حُجب عن أبصار القاصرين عن شريف المقامات . ولَمَّا رأينا أكثر النَّاس غافلين عن أداء حقِّ زيارته ، وما يسنُّ للزائرين من الكليَّات والجزئيَّات ، أحببنا أن نذكر بعد المناسك وأدائها ما فيه نبذة من آداب تتميماً لفائدة الكتاب ، فنقول:

ينبغي لمن قصد زيارة النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكثر من الصَّلاة عليه ، فإنَّه يسمعها أو تبلغ إليه ، وفضلها أشهر من أن نذكره ، فإذا عاين حيطان المدينة المنوَّرة يصلِّي علىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ يقول : اللهمَّ هذا حرم نبيِّك ، ومهبط وحيك ، فامنن عليَّ بالدُّخول فيه ، واجعله وقاية لي من النَّار ، وأماناً من العذاب ، واجعلني من الفائزين بشفاعة المصطفىٰ يوم المآب ، ويغتسل قبل الدُّخول أو بعده قبل التَّوجُّه للزِّيارة إن أمكنه ويتطيَّب ويلبس أحسن ثيابه ، تعظيماً للقدوم علىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثمَّ يدخل المدينة المنوَّرة ماشياً إن أمكنه بلا ضرورة بعد وضع ركبه واطمئنانه علىٰ حشمه وأمتعته ، متواضعاً بالسَّكينة والوقار ، ملاحظاً جلالة المكان ، قائلاً : بسم الله وعلىٰ ملَّة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، **﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾** [الإسراء : ٨٠

] ، اللهمَّ صلِّ علىٰ سيِّدنا محمَّد وعلىٰ آل محمَّد ، إلىٰ آخره ، واغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك.

ثمَّ يدخل المسجد الشَّريف فيصلِّي تحيَّته عند منبره ركعتين ، ويقف بحيث يكون عمود المنبر الشَّريف بحذاء منكبه الأيمن ، فهو موقف النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنَّة ، كما أخبر به صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقال : " منبري علىٰ حوضي " . أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٩٧ برقم ٩١٤٢) ، البخاري في الصحيح (٢/ ٦١ برقم ١١٩٦) ، الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧/ ٣١٧ برقم ٢٨٧٨) ، ابن حبَّان في الصحيح (٩/ ٦٦ برقم ٣٧٥٠) ، الآجري في الشريعة (٥/ ٢٣٥٦ برقم ١٨٣٧) ، البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٨٦ برقم ٤١٤٦).

فيسجد شكراً لله تعالىٰ بأداء ركعتين غير تحيَّة المسجد شكراً لما وفقك الله تعالىٰ ومنَّ عليك بالوصول إليه ، ثمَّ تدعو بما شئت ، ثمَّ انهض متوجِّهاً إلىٰ القبر الشَّريف ، فتقف بمقدار أربعة أذرع بعيداً عن المقصورة الشَّريفة بغاية الأدب ، مستدبراً القبلة ، محاذياً لرأس النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ووجهه الأكرم ، ملاحظاً نظره السَّعيد إليك ، وسماعه كلامك ، وردِّه عليك سلامك ، وتأمينه علىٰ دعائك ، وتقول : السَّلام عليك يا سيِّدي يا رسول الله ، السَّلام عليك يا نبيَّ الله ، السَّلام عليك يا حبيب الله ، السَّلام عليك يا نبيَّ الرَّحمة ، السَّلام عليك يا شفيع الأمَّة ، السَّلام عليك يا سيِّد المرسلين ، السَّلام عليك يا خاتم النَّبيين ، السَّلام عليك يا مزمِّل ، السَّلام عليك يا مدثِّر ، السَّلام عليك وعلىٰ أصولك الطِّيبين وأهل بيتك الطَّاهرين الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهِّرهم تطهيراً ، جزاك الله عنَّا أفضل ما جزىٰ نبيَّاً عن قومه ، ورسولاً عن أمَّته ، أشهد أنَّك رسول الله قد بلَّغت الرِّسالة ، وأدَّيت الأمانة ، ونصحت الأمَّة ، وأوضحت الحجَّة ، وجاهدت في سبيل الله حقَّ جهاده ، وأقمت الدِّين حتىٰ أتاك اليقين ، صلَّىٰ الله عليك وسلَّم وعلىٰ أشرف مكان تشرف بحلول جسمك الكريم فيه ، صلاة وسلاماً دائمين من ربِّ العالمين ، عدد ما كان وعدد ما يكون بعلم الله ، صلاة لا انقضاء لأمدها ، يا رسول الله ، نحن وفدك ، وزوَّار حرمك ، تشرَّفنا بالحلول بين يديك ، وقد جئناك من بلاد شاسعة ، وأمكنة بعيدة ، نقطع السَّهل والوعر ، بقصد زيارتك ، لنفوز بشفاعتك ، والنَّظر إلىٰ مآثرك ومعاهدك ، والقيام بقضاء بعض حقك ، والاستشفاع بك إلىٰ ربِّنا ، فإنَّ الخطايا قد قصمت ظهورنا ، والأوزار قد أثقلت كواهلنا ، وأنت الشَّافع المشفَّع ، الموعود بالشَّفاعة العظمىٰ ، والمقام المحمود ، والوسيلة ، وقد قال الله تعالىٰ : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، وقد جئناك ظالمين لأنفسنا ، مستغفرين

لذنوبنا ، فاشفع لنا إلى ربِّك ، واسأله أن يُميتنا على سننك ، وأن يحشرنا في زمرتك ، وأن يُوردنا حوضك ، وأن يسقينا بكأسك ، غير خزايا ولا ندامى ، الشَّفـــاعة ، الشَّفاعة ، الشَّفاعة يا رسول الله – يقولها ثلاثاً ﴿ **وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الحشر: ١٠] .

وقال الإمام الشَّوكاني في "نيل الأوطار" (٣/ ٢٩٥) : " وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَة مِنْ الْمُحَقِّقِينَ إِلَى أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ بَعَدَ وَفَاته ، وَأَنَّهُ يُسَرُّ بِطَاعَاتِ أُمَّته ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُبْلَوْنَ ، مَعَ أَنَّ مُطْلَق الْإِدْرَاك كَالْعِلْمِ وَالسَّماع ثَابِت لِسَائِرِ الْمُوْتَى . وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً : " مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ عَلَى قَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِن ، وَفِي رِوَايَة : بِقَبْرِ الرَّجُلِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ " . انظر : الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والإختصار (٢/ ١٦٦ برقم ١٨٥٨) ، وانظر : تاريخ بغداد (٧/ ٥٩ ترجمة رقم ٣١٢٨).

وَلِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا : " إِذَا مَرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ رَدَّ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَعَرَفَهُ ، وَإِذَا مَرَّ بِقَبْرٍ لَا يَعْرِفُهُ رَدَّ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – " ، وَصَحَّ : " أَنَّهُ كَانَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَخْرُجُ إِلَى الْبَقِيع لِزِيَارَةِ الْمُوْتَى وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ " . وَوَرَدَ النَّصّ فِي كِتَابِ اللهَّ فِي حَقّ الشُّهَدَاءِ أَنَّهُمْ أَحْيَاء يُرْزَقُونَ ، وَأَنَّ الْحَيَاة فِيهِمْ مُتَعَلِّقَة بِالْجَسَدِ ، فَكَيْف بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ : " أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ " ، رَوَاهُ الْمُنْذِرِيُّ وَصَحَّحَهُ الْبَيْهَقِيُّ " .

وعلى كلِّ حال فإنَّ قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّاباً رَحِيماً** ﴾ [النساء: ٦٤] عامٌّ ، يشمل الحياة والمات ، ولا يوجد ما يخصِّصه بالحياة ... ثمَّ إنَّ استغفار الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاصل لجميع المؤمنين ، سواء منهم من أدرك حياته أو لم يدركها ، قال تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللهُّ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ** ﴾ [محمَّد:١٩] .

وقد ذكرنا– سابقاً – أنَّ جمعاً كبيراً من المفسِّرين فهم من الآية الكريمة العموم ، وهو بلا شكٍّ يظهر صحَّة الاستدلال بالآية الكريمة على حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنَّه حيٌّ في قبره يستغفرُ للمستغفرين ، وهذا الفهم هو الذي فهمه جمهور الفقهاء ، حيث ذكروه الآية في كتب المناسك ، في صفة زيارته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... فعمله دائم إلى يوم القيامة ، لأنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الدَّاعي إلى ما تعمله أُمَّته من الخير ،

فجميع الأعمال الصَّادرة عن الأُمَّة راجع ثوابها إليه ، كيف لا وهو القائل صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدىٰ ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَــــةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَــــامِهِمْ شَيْئاً " . أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٠ برقم ٢٦٧٤) ، أحمد في المسند (٢/ ٣٩٧ برقم ٩١٤٩) ، الدارمي (١/ ٤٤٤ برقم ٥٣٠) ، ابن ماجه (١/ ٧٥ برقم ٢٠٦) ، أبو داود (٤/ ٢٠١ برقم ٤٦٠٩) ، الترمذي (٤/ ٣٤٠ برقم ٢٦٧٤) ، ابن أبي عاصم (١/ ٥٢ برقم ١١٣) ، البزار (١٥/ ٨٥ برقم ٨٣٣٨) ، أبو عوانه في المستخرج (٣/ ٤٩٤ برقم ٥٨٢٣) ، ابن حبان (١/ ٣١٨ برقم ١١٢) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٥٧ برقم ٦) ، البيهقي في الاعتقاد (ص٢٣٠).

وفي هذا المعنىٰ قال الإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوىٰ" (١/ ١٣٢) : "... فَإِنَّهُ قَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : " مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً " ، وَهُوَ دَاعِي الْأُمَّةِ إلَىٰ كُلِّ هُدًىٰ ، فَلَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمْ فِي كُلِّ مَا اتَّبَعُوهُ فِيهِ " .

وكذا يَردُّ قولَه : " واستغفار الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر متعذِّر ... ما أوردناه من الأدلَّة علىٰ إثبات حياة الأنبياء ، وأنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ويستغفر للأمَّة...

كما أنَّ أبيات العتبي مكتوبة علىٰ واجهة حجرة النَّبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الشَّريفة في العمود الذي بين شباك الحجرة النَّبويَّة ، يراها القاصي والدَّاني منذ مئات السِّنين ، وهذا إن دلَّ علىٰ شيء فإنَّما يدلُّ علىٰ القبول ، ولم يعترض عليها أحد ، حتىٰ جاء من جعلوا السَّلف شمّاعة علَّقوا عليها مصائبهم وطامَّاتهم التي كانت بسبب الفهم السَّقيم الذي ما سبقهم إليه أحد ، والتي عادت علىٰ مجموع الأمَّة بالفُرقة والتَّفرقة ، والتَّكفير ، وعظائم الأمور...

ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ علماء الأمَّة ذكروا في مصنَّفاتهم استحباب الدُّعاء عند قبور الصَّالحين بعامَّة ، زمن ذلك ما قاله الإمام أبو العبَّاس شمس الدِّين أحمد بن محمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان " (٥/ ١٨٧) في ترجمة الملك العادل نور الدِّين أبو القاسم محمود بن عماد الدِّين زنكي (٥٦٩هـ) : " وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون : إنَّ الدُّعاء عند قبره مُستجاب ، ولقد جرَّبت ذلك فصحَّ ، رحمه الله تعالىٰ " .

وقال الذَّهبي في " سير أعلام النُّبلاء " (١٧/ ٢١٥) في ترجمة ابن فورك : " قَالَ عَبْدُ الغَافِرِ فِي (سِيَاق التَّارِيْخ) : الأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرٍ قَبْرُهُ بِالحِيْرَة يُسْتَسقَى بِهِ " .

وقال في (١٧/ ٤٢٨) في ترجمة أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ إِبْرَاهِيْمَ بنِ أَحْمَدَ الأَرْدَسْتَانِيُّ : " قَالَ شِيْرَوَيْه : كَانَ ثِقَةً يُحْسِنُ هَذَا الشَّأْن ، سَمِعْتُ عِدَّةً يَقُوْلُوْنَ : مَا مِنْ رَجُلٍ لَهُ حَاجَةٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَة يَزُوْرُ قَبْره وَيدعُوهُ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ . قَالَ : وَجَرَّبْتُ أَنَا ذَلِكَ " .

وقال في (١٨/ ١٠١) في ترجمة أَبِي الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ حُمَيْدِ بنِ عَلِيٍّ الذُّهْلِيُّ : " وَكَانَ وَرِعاً ، تَقيّاً ، مُحْتَشِماً ، يُتبَرَّك بِقَبرِهِ " .

وقال في " تذكرة الحفَّاظ " (٣/ ١٢٩) في ترجمة صالح بن أحمد بن محمَّد أبو الفضل التَّميمي الهمذاني السّمسار : " والدُّعاء عند قبره مُستجاب " .

وقال في (٤/ ١١١) : " قال أبو الرَّبيع بن سالم الحافظ : كان وقت وفاة أبي محمَّد بن عبيد الله قحط مضر ، فلمَّا وضع على شفير القبر توسَّلوا به إلى الله في إغاثتهم فسقوا في تلك الليلة مطراً وابلاً ، وما اختلف النَّاس إلى قبره مدَّة الأسبوع إلَّا في الوحل والطِّين " .

وقال في " تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام " (٦/ ٧٥٩) في ترجمة صالح بن يونس أَبُو شُعَيْب الواسطي الزَّاهد : " ... والدُّعاء عند قبره مُستجاب " .

وقال في (٧/ ٨٥٦) في ترجمة القاسم بْن محمَّد بْن محمَّد بْن عَبْدُوَيْه ، أَبُو أَحْمَد الهَمَذَانيّ الصَّيْرفيّ السّرّاج : " وكان أحد الصَّالحين يُتبرَّك بقبره " .

وقال في (٨/ ٧٨٣) في ترجمة أَحْمَد بْن عَلِيّ أَبُو بَكْر الهَمَذَاني الشافعي الفقيه، المعروف بابن لال : " والدُّعاء عند قبره مُسْتَجَاب " .

وقال في (٩/ ١٠٩) في ترجمة محمَّد بْن الحَسَن بْن فُورَك ، أبو بَكْر الإصبهانيّ الفقيه المتكلِّم : " قَالَ عَبْد الغافر بْن إسماعيل : قبرهُ بالحِيرة يُسْتَسْقى بِهِ " .

وقال في (١٣/ ٧٦٨) : " ... وسمعنا عليّ ابن صِيلا ، وأبي شاكر السّقلاطوني ، وتجنّي ، وابن يلدرك ، ومنوجهر ، وابن شاتيل .

وكان لَهُ ابنٌ شيخٌ إذا جَلَسنا تبيَّنَ كأنَّه الأبُ ، وعَمِيَ علىٰ كبرٍ ، وبقيَ سبعين يوماً أعمىٰ ، ثمَّ برئَ وعادَ بصرُهُ – يعني الابن – فسألنا الشيخَ عن السبب فذكر لنا : أنَّه ذهب به إلىٰ قبر الإمام أحمد ، وأنّه دَعا وابتهلَ ، وقلتُ : يا إمام أحمد ، أسألُكَ إلّا شفعت فيه إلىٰ ربِّك ، يا ربِّ شَفِّعه في وَلَدي ، وولدي يُؤمِّن ، ثمَّ مضينا . فلمّا كَـــانَ اللّيلُ استيقظ وقد أبصر " .

وقال الإمام ابن الجزري في " غاية النِّهاية في طبقات القرَّاء " (٢/ ٩٦-٩٧) في ترجمة الإمام الشَّافعي : " وقبره بقرافة مصر مشهور ، والدُّعاء عنده مستجاب ، ولما زرته قلت:

زرتُ الإمام الشـــــَّافعي لأنَّ ذلك نافعـــــــــي

لأنال منه شفاعـــــــــة أكرم به من شــــــــافع

وقال أيضاً في" غاية النِّهاية في طبقات القرَّاء" (١/ ١٦٨) في ترجمة إسماعيل بن محمَّد بن عبد الله التّستري : " ... شيخ القرَّاء العلَّامة الأوحد ، الأستاذ ، المقرئ ، النحوي ، الأصولي ، الشَّافعي ، برع في القراءات ، والأصول ، والعربيَّة ، وكان شيخ القراءات بالمدرسة الفاضليَّة ، مشهوراً بحسن القراءة ، وجودة الأداء ، انتفع به جماعة ، قرأ القراءات وأجادها علىٰ الشّطنوفي والصَّايغ وجماعة ، وأخذ العربيَّة عن جماعة ، وصحب القونوي ، وأخذ عنه العربيَّة والأصول وغير ذلك ، وكان والده من كبار الأولياء ، مدفون بتستر ، ينعت بالشَّيخ تاج الدِّين البناكتي ، يُزار ويتبرَّك به " .

وقال أيضاً في ترجمة الإمام الشَّاطبي غاية النِّهاية في طبقات القرَّاء" (٢/ ٢٣) : " ... ودفن بالقرافة بين مصر والقاهرة بمقبرة القاضي الفاضل عبد الرَّحيم البيساني ، وقبره مشهور معروف يقصد للزِّيارة ، وقد زرته مرَّات ـ وعرض عليَّ بعض أصحابي الشَّاطبية عند قبره ، ورأيت بركة الدُّعاء عند قبره بالإجابة – رحمه الله ورضي عنه " .

وقال الإمام أحمد بن إبراهيم بن محمَّد بن خليل ، موفق الدين ، أبو ذر سبط ابن العجمي في "كنوز الذَّهب في تاريخ حلب" (١/ ٢٧٩) في ترجمة السُّلطان نور الدِّين الشَّهيد : " قيل إنَّ الدُّعاء عند قبره مُستجاب" .

وقال الإمام السَّخاوي في "الضّوء اللامع لأهل القرن التَّاسع" (٥/ ١٦٤) في ترجمة عَليّ بن أَحْمد بن أبي بكر بن أَحْمد أَبُو الْحسن الْآدَمِيّ ثمَّ الْمصْرِيّ الشَّافِعِي : " ... وَيُقَال أَن الدُّعَاء عِنْد قَبره مُستجاب " .

وقال الإمام الخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد" (١/ ٤٤٥) : " أَخْبَرَنَا إسماعيل بْن أَحْمَد الحيري ، قَالَ : أَخبرنا محمَّد بْن الحسين السّلمي ، قَالَ : سمعت أبا الْحَسَن بْن مقسم ، يقول : سمعت أبا عَلِيّ الصفَّار ، يقول : سمعت إِبْرَاهِيم الحربي ، يقول : قبر معروف التُّرياق المجرَّب.

أَخْبَرَنِي أَبُو إسحاق إِبْرَاهِيم بْن عُمَر البرمكي ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الفضل عبيد الله بْن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن محمَّد الزهري ، قَالَ : سمعت أَبِي يقول : قبر معروف الكرخي مجرَّب لقضاء الحوائج ، ويقال : إِنَّه من قرأ عنده مائة مرَّة قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، وسأل الله تعالىٰ ما يريد ، قضىٰ الله له حاجته.

حَدَّثَني أَبُو عَبْد الله محمَّد بْن عَلِيّ بْن عَبْدِ اللهَّ الصُّوري ، قَالَ : سمعت أبا الحسين محمَّد بْن أَحْمَد بْن جميع ، يقول : سمعت أبا عَبْد الله ابْن المحاملي ، يقول : أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة ما قصده مهموم إلا فرَّج الله همَّه ، وبالجانب الشَّرقي مقبرة الخيزران، فيها قبر محمَّد بْن إسحاق بْن يسار صاحب السِّيرة ، وقبر أَبِي حنيفة النعمان بْن ثابت الفقيه إمام أصحاب الرأي.

أَخْبَرَنَا الْقَاضِي أَبُو عَبْد الله الحسين بْن عَلِيّ بْن محمَّد الصَّيمري ، قَالَ : أَخبرنا عُمَر بْن إِبْرَاهِيمَ المقرئ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مكرم بْن أَحْمَد ، قَالَ : حَدَّثَنَا عُمَر بْن إسحاق بْن إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن ميمون ، قَالَ : سمعت الشَّافعي ، يقول : إني لأتبرَّك بأبي حنيفة وأجيء إِلَىٰ قبره في كلّ يوم ، يَعْنِي زائراً ، فإذا عرضت لي حاجة صلَّيت ركعتين ، وجئت إِلَىٰ قبره وسألت الله تعالىٰ الحاجة عنده ، فما تبعد عنِّي حتَّىٰ تقضىٰ " .

وفي كلامه عن معروف الكرخي ، قال الإمام ابن العماد في "شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب" (٢/ ٤٧٨) : " ... وأهل بغداد يستسقون بقبره ، ويسمُّونه ترياقاً مجرَّباً " .

وقال الإمام عبد الحي بن أحمد العكري الدِّمشقي في ترجمة صبح بن أحمد الحافظ أبو الفضل التَّميمي الأحنفي الهمذاني السّمسار : " ... والدُّعاء عند قبره مُستجاب."

وقال أيضاً في ترجمة أبي بكر أحمد بن علي بن أحمد الهمذاني : " والدُّعاء عند قبره مُستجاب"

وقال أيضاً في ترجمة الملك العادل محمود بن زنكي : " وروي أَنَّ الدُّعاء عند قبره مُستجاب."

وقال أيضاً في ترجمة سيف الدِّين أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس القيمري : " والدُّعاء عند قبره مُستجاب."

وقال أيضاً في ترجمة الشَّيخ أبو بكر بن داود الصَّالحي : " والدُّعاء عند قبره مُستجاب " . انظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٣/ ١٠٩) (٣/ ١٥٠) ، (٤/ ٢٧٨) ، (٥/ ٢٦٠) ، (٧/ ٥٧) ، بالترتيب.

وقال الإمام عبد الرزَّاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدِّمشقي في " حلية البشر في تاريخ القرن الثَّالث عشر " (١/ ٣٣) ، في ترجمة الشَّيخ إبراهيم أبو إسحق برهان الدِّين الدِّمشقي : " ودفن بالمغارة المعروفة بمغارة الشَّيخ إبراهيم في سفح جبل قاسيون في صالحيَّة دمشق ، يُزار ويتبرَّك به ، والمشهور أنَّ الدُّعاء عند قبره مستجاب ، ولأهل دمشق اعتقاد بزيارته " .

وقال الإمام محمَّد بن محمَّد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف في " شجرة النُّور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة " (١/ ٢٨٨) ، في ترجمة الشَّيخ أبو زيد عبد الرَّحمن بن عبد الله الهزميري : " والدَّعاء عند قبره مُستجاب " ...

....

الفَصْلُ الرَّابِعُ

صِفَاتُ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام

سُؤَالٌ : مَا هِيَ الصِّفَات الوَاجِب تَوَافُرُهَا فِي الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام ؟

الجواب : الصِّفات الواجب توافرها في الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام هي :

أَوَّلاً : صِفَةُ الصِّدْق :

ثَانِياً : صِفَةُ الفطَانَة :

ثَالِثَاً : صِفَةُ التَّبْلِيْغ:

رَابِعَاً : صِفَةُ الذُّكُوْرَة:

﴿سُؤَالٌ﴾ : تَكَلَّم لَنَا عَنْ نُبُوَّة النِّسَاءِ بَيْنَ المَانِعِيْن وَالمُجِيْزِيْن ؟

الجواب :

أَوَّلاً : المَانِعُوْنَ لِنُبُوَّةِ النِّسَاء :

ذهب جمهور أهل العلم إلى القول بأنَّ الذُّكورة شرط في النُّبوَّة ، وأنَّه لم تكن قط امرأة نبيَّة ، قال تعالى : **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾** [يوسف:١٠٩] .انظر : فتح الباري (٦/ ٤٤٧) ، (٦/ ٤٧٣) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٩٩) ، تفسير روح البيان (٢/ ٤) ، المسامرة شرح المسايرة (ص٢٣) ، حاشية المرجاني على شرح العقائد العضدية (١/ ٩) ، تفسير البيضاوي (٢/ ١٦) .

قال الإمام السَّفاريني في " " (٢/ ٢٦٦) : " وَالْحَقُّ اعْتِبَارُ الذُّكُورِيَّةِ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ تَقْتَضِي الِاشْتِهَارَ بِالدَّعْوَةِ، وَالْأُنُوثَةُ تَقْتَضِي التَّسَتُّرَ وَتُنَافِي الِاشْتِهَارَ لِمَا بَيْنَ الِاشْتِهَارِ وَالِاسْتِتَارِ مِنَ التَّمَانُعِ" .

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن حسن حبنَّكة الميداني في " العقيدة الإسلاميَّة وأسسها" (ص٣٩٤) : " وبالنَّظر لواقع حال الرُّسل ، نرى أنَّ الله سبحانه لم يختر رسله من النِّساء ، وفي ذلك حكمة عالية ، لأنَّ الاصطفاء بالرِّسالة من أصناف البشر لا بدَّ أن يلاحظ فيه الأجدر بحمل الرِّسالة ، وصنف الرِّجال أجدر بحمل الرِّسالة من صنف النِّساء لأمور تقتضيها ظروف الدَّعوة في صفوف الرِّجال ، ولأنَّ الرَّسول هو الآمر النَّاهي والحاكم والقاضي في أُمَّته ، وهو القوَّام عليهم في أُمورهم كلّها ، ولو كانت أنثى لم يتم ذلك بوجه كامل ، ولاستنكف الأقوام عن الاتِّباع والطَّاعة ، واتَّهموا حكمة الله . وكلُّ ذلك ممَّا يجعل كمال الحكمة الرَّبَّانيَّة أن يكون الاصطفاء بالرِّسالة من خصائص صنف الرِّجال من البشر " .

وقال الدُّكتور البوطي في " كبرى اليقينيَّات الكونيَّة " (ص٢٠٢) : " الصِّفة الأولى : الذُّكورة : فلا تكون الُّنبوَّة والرِّسالة لأنثى ، واعلم أنَّ دليلنا على ذلك هو كلّ من الواقع الذي دلَّ عليه إخبار الله تعالى عن الرُّسل والأنبياء الذين بعثهم الله إلى النَّاس على مرِّ الزَّمن ، وصفة الكمال التي يجب توفُّرها للرُّسل والأنبياء ، وهي تنافي الأنوثة كما هو معلوم ، ولم يقع خلاف عند جمهور المسلمين في اشتراط هذه الصِّفة".

ومن أهمِّ الأدلَّة التي اعتمدها جمهور العلماء في اشتراط صفة الذُّكورة في الأنبياء والمرسلين :

الدَّلِيْلُ الأَوَّلُ : قوله تعالى : **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾** [يوسف:١٠٩] . والآية نصٌّ صريحٌ محكمٌ في أنَّ الله تعالى لم يُرسل إلَّا رجالاً ، وعليه فالنَّبوَّة محصورة في جنس الرِّجال ...

قال الإمام الطَّبري في " التَّفسير" (١٣/ ٣٨٠) : " يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾** [النساء: ٦٤] يَا مُحَمَّدُ **﴿مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾** [يوسف: ١٠٩] لَا نِسَاءَ وَلَا مَلَائِكَةَ، **﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾** [يوسف: ١٠٩] آيَاتِنَا بِالدُّعَاءِ إِلَى طَاعَتِنَا وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَنَا **﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** [يوسف: ١٠٩] يَعْنِي مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، دُونَ أَهْلِ الْبَوَادِي" .

وقال الإمام الزَّمخشري في " الكشَّاف" (٢/ ٤٨٠) : " **﴿إلاَّ رِجَالاً﴾** لا ملائكة ؛ لأنَّهم كانوا يقولون: **﴿لَوْ شَاء رَبُّنَا لأنزَلَ مَلَائِكَةً﴾** [فصلت : ١٤] ، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما : يريد ليست فيهم امرأة " .

وقال الإمام البغوي في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن "(٢/٥١٨) : " قال الْحَسَنُ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ بَدْوٍ وَلَا مِنَ الْجِنِّ وَلَا مِنَ النِّسَاءِ، وَقِيلَ: إِنَّمَا لم يبعث من أهل البوادي لِغِلَظِهِمْ وَجَفَائِهِمْ " .

وقال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (١٨/ ٥٢١) : "وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ شُبَهِ مُنْكِرِي نُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ لَوْ أَرَادَ إِرْسَالَ رَسُولٍ لَبَعَثَ مَلَكًا، فَقَالَ تَعَالَى: **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾** ، فَلَمَّا كَانَ الْكُلُّ هَكَذَا فَكَيْفَ تَعَجَّبُوا فِي حَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مَا بَعَثَ رَسُولًا إِلَى الْحَقِّ مِنَ النِّسْوَانِ وَأَيْضًا لَمْ يَبْعَثْ رَسُولًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ " .

وقال الإمام البيضاوي في "أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل " (٣/ ١٧٨) : " **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا﴾** ردٌّ لقولهم : **﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾** ، وقيل : معناه نفي استنباء النِّساء " .

وقال الإمام في " البحر المحيط" (٦/ ٣٣٣-٣٣٤) : **﴿إِلَّا رِجالًا﴾** حَصَرَ فِي الرُّسُلِ دُعَاةً إِلَى اللَّهِ، فَلَا يَكُونُ مَلَكًا. وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: **﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾** . وَكَذَلِكَ قَالَ: **﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا﴾** ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي رِجَالًا لَا نِسَاءً، فَالرَّسُولُ لَا يَكُونُ امْرَأَةً" .

وقال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٤/ ٤٢٢) : " يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أرسل رسُلَه مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ. وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحي تَشْرِيعٍ" .

وقال الإمام البروسوي في " " (٤/ ٢١٦) : " وفي عبارة الرِّجال دلالة على أنَّ الله تعالى ما بعث رسولاً إلى الخلق من النِّسوان ، لأنَّ مبنى حالهنَّ على التَّستُّر ، ومنتهى كمالهنَّ هي الصِّدِّيقيَّة لا النُّبوَّة" .

الدَّلِيْلُ الثَّانِي: نبَّه الشَّرعُ الحنيف إلى أنَّ هنالك ثمَّة فوارق بين الذَّكر والأنثى ، وهي بمجموعها تؤكِّد أنَّ جنس النِّساء لا يصلحُ للنُّبوَّة ، ومن تلك الفوارق :

(١) أنَّها خُلقت من ضلعٍ أعوج ، فقد روى البخاري (٤/ ١٣٣ برقم ٣٣٣١) ، مسلم (٢/ ١٠٩١ برقم ١٤٦٨) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ

الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» .

قال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج" (١٠/ ٥٧) : " وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مُلَاطَفَةُ النِّسَاءِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِنَّ وَالصَّبْرُ عَلَى عِوَجِ أَخْلَاقِهِنَّ وَاحْتِمَالُ ضَعْفِ عُقُولِهِنَّ وَكَرَاهَةُ طَلَاقِهِنَّ بِلَا سَبَبٍ وَأَنَّهُ لَا يُطْمَعُ بِاسْتِقَامَتِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ" .

(٢) أنَّها كُتب عليها الحيض الذي يُعطِّلها عن بعض الواجبات الشَّرعيَّة ، كالصَّلاة ، والصَّوم ، وقراءة القرآن ... فقد روى البخاري (١/ ٦٦ برقم ٢٩٤) بسنده عَنْ عَائِشَةَ ،قَالَتْ : خَرَجْنَا لاَ نَرَى إِلَّا الحَجَّ، فَلَمَّا كُنَّا بِسَرِفَ حِضْتُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي، قَالَ: «مَا لَكِ أَنُفِسْتِ؟» . قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَاقْضِي مَا يَقْضِي الحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لاَ تَطُوفِي بِالْبَيْتِ ... " .

(٣) أنَّها ناقصة عقلٍ ودين ، فقد روى البخاري (١/ ٦٨ برقم ٣٠٤) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى المُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» ، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا» .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١/ ٤٠٦) : " قَالَ الطِّيبِيُّ فِي قَوْلِهِ : " مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ إِلَخْ زِيَادَةٌ عَلَى الْجَوَابِ تُسَمَّى الِاسْتِتْبَاعَ ، كَذَا قَالَ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ، وَيَظْهَرُ لِي أَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِ كَوْنِهِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ، لِأَنَّهُنَّ إِذَا كُنَّ سَبَبًا لِإِذْهَابِ عَقْلِ الرَّجُلِ الْحَازِمِ حَتَّى يَفْعَلَ أَوْ يَقُولَ مَا لَا يَنْبَغِي ، فَقَدْ شَارَكْنَهُ فِي الْإِثْمِ وَزِدْنَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ أَذْهَبَ ، أَيْ : أَشَدَّ إِذْهَابًا ، وَاللُّبُّ أَخَصُّ مِنَ الْعَقْلِ ، وَهُوَ الْخَالِصُ مِنْهُ والحازم الضَّابِطِ لِأَمْرِهِ ، وَهَذِهِ مُبَالَغَةٌ فِي وَصْفِهِنَّ بِذَلِكَ ، لِأَنَّ الضَّابِطَ لِأَمْرِهِ إِذَا كَانَ يَنْقَادُ لَهُنَّ فَغَيْرُ الضَّابِطِ أَوْلَى ، وَاسْتِعْمَالُ أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ مِنَ الْإِذْهَابِ جَائِزٌ عِنْدَ سِيبَوَيْهِ حَيْثُ جَوَّزَهُ مِنَ الثُّلَاثِيِّ وَالْمَزِيدِ قَوْلُهُ : قُلْنَ : وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا ؟ كَأَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِنَّ ذَلِكَ حَتَّى سَأَلْنَ عَنْهُ ، وَنَفْسُ السُّؤَالِ دَالٌّ عَلَى النُّقْصَانِ ، لِأَنَّهُنَّ سَلَّمْنَ مَا نُسِبَ إِلَيْهِنَّ مِنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ الْإِكْثَارِ وَالْكُفْرَانِ وَالْإِذْهَابِ ثُمَّ اسْتَشْكَلْنَ كَوْنَهُنَّ نَاقِصَاتٍ . وَمَا أَلْطَفَ مَا

أَجَابَهُنَّ بِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَعْنِيفٍ وَلَا لَوْمٍ ، بَلْ خَاطَبَهُنَّ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِنَّ وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ : مِثْلُ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن ترْضونَ من الشُّهَدَاء﴾** لِأَنَّ الِاسْتِظْهَارَ بِأُخْرَىٰ مُؤْذِنٌ بِقِلَّةِ ضَبْطِهَا ، وَهُوَ مشْعر بِنَقص عقلهَ" .

(٤) أنَّها ضعيفة ، فقد روىٰ أحمد في المسند (١٥/٤١٦ برقم ٩٦٦٦) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " اللهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ " . قال الأنؤوط : " إسناده قوي من أجل محمد بن عجلان، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين" .

وفي حديث رواه البخاري (٨/٣٨ برقم ٦١٦١) بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ مَعَهُ غُلاَمٌ لَهُ أَسْوَدُ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ، يَحْدُو، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ يَا أَنْجَشَةُ رُوَيْدَكَ بِالقَوَارِيرِ» .

قال الإمام النَّووي في " " (١٥/٨١) : " قَالَ الْعُلَمَاءُ سُمِّيَ النِّسَاءُ قَوَارِيرَ لِضَعْفِ عَزَائِمِهِنَّ تَشْبِيهًا بِقَارُورَةِ الزُّجَاجِ لِضَعْفِهَا وَإِسْرَاعِ الِانْكِسَارِ إِلَيْهَا " .

(٥) أنَّها لا تؤم الرِّجال ، قال الإمام البغوي في " شرح السُّنَّة" (١٠/٧٧) : " اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ إِمَامًا وَلا قَاضِيًا، لأَنَّ الإِمَامَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الْخُرُوجِ لإِقَامَةِ أَمْرِ الْجِهَادِ، وَالْقِيَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقَاضِي يَحْتَاجُ إِلَىٰ الْبُرُوزِ لِفَصْلِ الْخُصُومَاتِ، وَالْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ لَا تَصْلُحُ لِلْبُرُوزِ، وَتَعْجَزُ لِضَعْفِهَا عِنْدَ الْقِيَامِ بِأَكْثَرِ الأُمُورِ، وَلأَنَّ الْمَرْأَةَ نَاقِصَةٌ، وَالإِمَامَةُ وَالْقَضَاءُ مِنْ كَمَالِ الْوِلايَاتِ، فَلا يَصْلُحُ لَهَا إِلا الْكَامِلُ مِنَ الرِّجَالِ" .

كما أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جعل صفوف النِّساء خلف صفوف الصِّبيان، ستراً لحالهنَّ ...

(٦) أنَّها لا يجب عليها صلاة الجمعة والجماعة بعكس الرِّجال ، فقد روىٰ البخاري (١/١٣١ برقم ٦٤٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ، فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ، فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالٍ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُ ... " . وفي حقِّ المرأة من هذه النَّاحية روىٰ البخاري (١/١٧٢ برقم ٨٦٥) ، مسلم (١/٣٢٧ برقم ٤٤٢) بسندهما عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا اسْتَأْذَنَكُمْ نِسَاؤُكُمْ بِاللَّيْلِ إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَأْذَنُوا لَهُنَّ» . ولو كانت الجماعة واجبة عليهنَّ لما دعت الحاجة إلىٰ أخذ الإذن من الرِّجال

...ومعلوم أنَّ النَّبيَّ هو الذي يؤمُّ النَّاس في الجمعة والجماعات ، ولو كانت المرأة نبيَّة لزمها أخذ الإذن للجماعة من زوجها ، ولكن ...

(٧) أنَّ المرأة تُحرم للحجِّ بثيابها ، ولا ترفع صوتها بالتَّلبية ، ستراً لحالها ، وليس عليها رمل ولا اضطباع ، كما أنَّه ليس على الحائض طواف الوداع ، لما رواه البخاري (٢/ ١٧٩ برقم ١٧٥٥) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ، إِلَّا أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِ الحَائِضِ» .

(٨) أنَّه لا جهاد على النِّساء غير الحجِّ والعمرة ، فقد رو البخاري (٢/ ١٣٣ برقم ١٥٢٠) بسنده عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى الجِهَادَ أَفْضَلَ العَمَلِ، أَفَلاَ نُجَاهِدُ؟ قَالَ: «لاَ، لَكِنَّ أَفْضَلَ الجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ» . وفي رواية عند البخاري (٤/ ٣٢ برقم جِهَادُكُنَّ الحَجُّ) : " جِهَادُكُنَّ الحَجُّ " . فلو كانت المرأة نبيَّة فكيف يتسنَّى لها الجهاد وقيادة الجيوش ، والشَّرع لا يجدُ ولا يُحدِّد لها جهاداً غير الحجِّ والعمرة ؟!!

(٩) أنَّها لا تُفصِحُ في البيان عند الخِصام ، قال تعالى : **﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** [الزخرف:١٨] ، قال الإمام الرَّازيُّ في " التَّفسير" () في تفسيره للآية : " المراد من قوله : **﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾** التَّنْبِيهُ عَلَى نُقْصَانِهَا، وَهُوَ أَنَّ الَّذِي يُرَبَّى فِي الْحِلْيَةِ يَكُونُ نَاقِصَ الذَّاتِ، لِأَنَّهُ لَوْلَا نُقْصَانٌ فِي ذَاتِهَا لَمَا احْتَاجَتْ إِلَى تَزْيِينِ نَفْسِهَا بِالْحِلْيَةِ، ثُمَّ بَيَّنَ نُقْصَانَ حَالِهَا بِطَرِيقٍ آخَرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ : **﴿وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** ، يَعْنِي : أَنَّهَا إِذَا احْتَاجَتِ الْمُخَاصَمَةَ وَالْمُنَازَعَةَ عَجَزَتْ وَكَانَتْ غَيْرَ مُبِينٍ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ لِسَانِهَا وَقِلَّةِ عَقْلِهَا وَبَلَادَةِ طَبْعِهَا، وَيُقَالُ قَلَّمَا تَكَلَّمَتِ امْرَأَةٌ فَأَرَادَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحُجَّتِهَا إِلَّا تَكَلَّمَتْ بِمَا كَانَ حُجَّةً عَلَيْهَا، فَهَذِهِ الْوُجُوهُ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ نَقْصِهَا " . فكيف تكون نبيَّة ، والنَّبيُّ لا بدَّ له من الفطانة ، والمحاجحة ، وإقامة الحجَّة على الخصوم ؟ فالعاجز عن ذلك لا يجوز له أن يكون نبيَّاً ...

هذه بعض الفوارق بين الرَّجلُ والأنثى والتي من شأنها أن تمنع المرأة من أن تكون نبيَّة ، وهناك العديد العديد العديد من الفوارق التي لا تخفى على ذي لبّ ، وهي بمجموعها تُنبئُ عن أنَّ المرأة مخلوق ضعيف ... ومن شأن ضعفها أن يجعلها غير صالحة لأن تكون نبيَّة ، لأنَّ شأن النُّبوَّة شأن عظيم لا يقوم به إلَّا من اصطفاهم الله له ، واختارهم ليكابدوا ويصبروا ويصابروا على أمر الدَّعوة إلى الله تعالى ، والذي لا يثبت له ولا يقوم به إلَّا أشدَّاء الرِّجال ...

الدَّلِيْلُ الثَّالَثُ: أنَّ مقام النُّبوَّة يقتضي الاشتهار بالدَّعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ومناظرة المخالفين ومجادلتهم وإقامة الحجَّة عليهم ، وهذا لا يتوائم ولا يتلائم مع طبيعة المرأة حيث قام أمرهنَّ وحالهنَّ علىٰ السّتر ... فالدَّعوة إلىٰ الله تعالىٰ لا يصمد لها ضعف المرأة ، لما يقتضيه الأمر من مواجهة الرِّجال في السِّرِّ والعلانية ، وما يتبع ذلك من ضرورة الصَّبر علىٰ الصُّدود والمواجهة والمقاومة ...

الدَّلِيْلُ الرَّابِعُ: النُّبوَّة تستدعي القوامة من النَّبي علىٰ من يتابعه ، لأنَّ من شأن القائم علىٰ الأمر إصدار الأوامر والنَّواهي ، وإعداد الجيوش وقيادتها ، والاصطلاء بلهبها ونارها ، والإمامة في الصَّلاة وغيرها من أمور الدُّنيا والآخرة ... ولما كانت الأنفة تقضي بأن يكون الرَّجل هو السَّيِّد المُطاع ، فإن الأحرار يأنفون أن ينساقوا تابعين للنِّساء ، ولذلك جعل الله تعالىٰ القوامة لرِّجال علىٰ النِّساء ، قال تعالىٰ : **﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ﴾** [النساء:٣٤] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" (١٠/ ٧٠-٧١) : " الْقِوَامُ اسْمٌ لِمَنْ يَكُونُ مُبَالِغًا فِي الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ، يُقَالُ: هَذَا قَيِّمُ الْمَرْأَةِ وَقِوَامُهَا لِلَّذِي يَقُومُ بِأَمْرِهَا وَيَهْتَمُّ بِحِفْظِهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَمَةَ وَزَوْجِهَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ أَحَدِ نُقَبَاءِ الْأَنْصَارِ، فَإِنَّهُ لَطَمَهَا لَطْمَةً فَنَشَزَتْ عَنْ فِرَاشِهِ وَذَهَبَتْ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَذَكَرَتْ هَذِهِ الشِّكَايَةَ، وَأَنَّهُ لَطَمَهَا وَأَنَّ أَثَرَ اللَّطْمَةِ بَاقٍ فِي وَجْهِهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اقْتَصِّي مِنْهُ ثُمَّ قَالَ لَهَا اصْبِرِي حَتَّى أَنْظُرَ» فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: **﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾** ، أَيْ مُسَلَّطُونَ عَلَى أَدَبِهِنَّ وَالْأَخْذِ فَوْقَ أَيْدِيهِنَّ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ أَمِيرًا عَلَيْهَا وَنَافِذَ الْحُكْمِ فِي حَقِّهَا، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَدْنَا أَمْرًا وَأَرَادَ اللهَّ أَمْرًا وَالَّذِي أَرَادَ اللهَّ خَيْرٌ" . وَرَفَعَ الْقِصَاصَ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَثْبَتَ لِلرِّجَالِ سَلْطَنَةً عَلَى النِّسَاءِ وَنَفَاذَ أَمْرٍ عَلَيْهِنَّ بَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ مُعَلَّلٌ بِأَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿بِما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾** [النساء:٣٤] .

واعلم أنَّ فضل الرَّجل عَلَى النِّسَاءِ حَاصِلٌ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، بَعْضُهَا صِفَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا أَحْكَامٌ شَرْعِيَّةٌ، أَمَّا الصِّفَاتُ الْحَقِيقِيَّةُ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ الْحَقِيقِيَّةَ يَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى أَمْرَيْنِ: إِلَى الْعِلْمِ، وَإِلَى الْقُدْرَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ عُقُولَ الرِّجَالِ وَعُلُومَهُمْ أَكْثَرُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قُدْرَتَهُمْ عَلَى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ أَكْمَلُ، فَلِهَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ حَصَلَتِ الْفَضِيلَةُ لِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ فِي الْعَقْلِ وَالْحَزْمِ وَالْقُوَّةِ، وَالْكِتَابَةِ فِي الْغَالِبِ وَالْفُرُوسِيَّةِ

وَالرَّمْيِ، وَإِنَّ مِنْهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْعُلَمَاءَ، وَفِيهِمُ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَىٰ وَالصُّغْرَىٰ وَالْجِهَادُ وَالْأَذَانُ وَالْخُطْبَةُ وَالِاعْتِكَافُ وَالشَّهَادَةُ فِي الْحُدُودِ وَالْقِصَاصِ بِالِاتِّفَاقِ، وَفِي الْأَنْكِحَةِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَزِيَادَةُ النَّصِيبِ فِي الْمِيرَاثِ وَالتَّعْصِيبُ فِي الْمِيرَاثِ، وَفِي تَحَمُّلِ الدِّيَةِ فِي الْقَتْلِ وَالْخَطَأِ، وَفِي الْقَسَامَةِ وَالْوِلَايَةِ فِي النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالرَّجْعَةِ وَعَدَدِ الْأَزْوَاجِ، وَإِلَيْهِمُ الِانْتِسَابُ، فَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ فَضْلِ الرِّجَالِ عَلَىٰ النِّسَاءِ.

وَالسَّبَبُ الثَّانِي: لِحُصُولِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ يَعْنِي الرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ لِأَنَّهُ يُعْطِيهَا الْمَهْرَ وَيُنْفِقُ عَلَيْهَا " .

الدَّلِيْلُ الخَامِسُ: وعلاوة علىٰ ما سبق بيـــانه، فإنَّه يترتَّب علىٰ القول بنبوَّة النِّساء العديد من المحاذير، من أهمِّها :

(أ) الاختلاط : ذلك أنَّ الرِّسالة تقتضي التَّردُّد إلىٰ مجامع الرِّجال ، والجلوس معهم ، وتبادل النَّظرات والحديث معهم ... ولاشكَّ في أنَّ هذا خطر كبير ومرض اجتماعيٌّ عظيم ، لأنَّه سبيلٌ لإفساد الأخلاق ، حذَّر منه الشَّرع الحنيف ، نظراً للعواقب الوخيمة المترتِّبة عليه ، ويكفي في تحريمه قول الله تعالىٰ : **﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [النور:٣٠] ، وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا إِذَا هِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » أخرجه ا بن حبان في الصحيح (١٢/ ٤١٣ برقم ٥٥٩٩) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم " .

(ب) الخلوة : والخلوة سبيل من السُّبل المؤدِّية إلىٰ إفساد الأخلاق ، وتمييع المجتمعات ، لا يرضاها صاحب الغَيْرَة والشَّهامة فضلاً عن أن يكون صاحب دين ... فكيف تكون المرأة نبيَّة ، والنَّبيُّ لا بدَّ له من الخلوات لتبليغ دعوة الله إلىٰ الخلق ؟ وقد جاءت الأحاديث الشَّريفة تترىٰ تحذِّر من الخلوة بالأجنبيَّات ، من ذلك :

قوله : " صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَىٰ النِّسَاءِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ: «الحَمْوُ المَوْتُ»" أخرجه البخاري (٧/ ٣٧ برقم ٥٢٣٢) ، مسلم (٤/ ١٧١١ برقم ٢١٧٢) .

وقوله : " لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا" . أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٦٩ برقم ١١٤) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير علي بن إسحاق – وهو المروزي – فقد روىٰ له الترمذي، وهو ثقة ".

(ج) السَّفر : ذلك أنَّ تبليغ دعوة الله تعالىٰ لا بدَّ لها من سفر وتنقُّل من مكان لآخر ... والمرأة لا يتناسب وضعها وطبيعتها مع ذلك ، مع العلم أنَّ الإسلام نهىٰ عن سفر المرأة إلَّا مع محرم ، فقد روىٰ البخاري (٢/ ٤٣ برقم ١٠٨٧) ، مسلم (٢/ ٩٧٥ برقم ١٣٣٨) بسندهما عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ تُسَافِرِ المَرْأَةُ ثَلاَثًا إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» .

وروىٰ البخاري (٢/ ٤٣ برقم ١٠٨٨) ، مسلم (٢/ ٩٧٧ برقم ١٣٣٩) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حُرْمَةٌ» .

وروىٰ مسلم (٢/ ٩٧٨ برقم ١٣٤١) بسنده عَنْ أَبِي مَعْبَدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ يَقُولُ: «لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ ...» .

الدَّلِيْلُ السَّادِسُ: أنَّ الأمَّة أجمعت علىٰ عدم جواز تولِّي المرأة الولاية العامَّة ، ذلك أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما بلغه أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ، قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَىٰ، قَالَ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» . أخرجه البخاري (٦/ ٨ برقم ٤٤٢٥) .

ولذلك اشترطت الذُّكوريَّة في صحَّة الولاية العامَّة . انظر : الأحكام السلطانية للماوردي (ص٦٥) ، الأحكام السلطانية لأبي يعلىٰ الفراء (ص٣١–٦٥) ، الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص٣٨٨) ، أحكام القرآن لابن عربي (٣/ ١٤٤٥) .

ومن حكمة إبعاد المرأة عن هذه المهمة الكبرىٰ : الرَّحمة بها من جهة ، وضمانة لحقِّ الأمَّة وصيانة حماها من جهة أخرىٰ ، مع العلم أنَّ الواقع التَّاريخي للحضارة الإنسانيَّة كان ولا يزال شاهداً علىٰ أنَّ من تولَّين الولاية العامَّة في شتَّىٰ المجتمعات لسن أكثر من أصابع اليد الواحدة ... وأنَّهنَّ ما تولَّين إلَّا بعد أن تخلَّين عن الكثير الكثير من أُنوثتهنَّ ... وهو أمر يرفضه الإسلام ...وما ذكرناه هو علىٰ سبيل التَّمثيل لا الحصر ، وهي بمجموعها تمثِّل الحكمة من كون الأنبياء والرُّسل من الرِّجل دون النِّساء ، والله أعلم .

وأخيراً ، فهذه بعض المحاذير التي تترتَّب علىٰ القول بنبوَّة النِّساء ، وهي أكثر من ذلك بكثير ...

ثَانِياً: الْمُجِيْزُوْن لِنُبُوَّةِ النِّسَاء :

ذهب بعض أهل العلم إلى القول بنبوَّة بعض النِّساء ، ومن هؤلاء : الإمام أبو الحسن الأشعري ، والإمام ابن حزم الظَّاهري ، والإمام القرطبي . انظر : الفصل في الملل والأهواء والنِّحل (٢/ ١٨٦-١٨٨) ، تفسير القرطبي (٤/ ٨٣) ، فتح الباري (٦/ ٤٤٧) .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٦/ ٤٤٧) : " وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ من النِّسَاء من نبيء وَهُنَّ سِتٌّ حَوَّاءُ وَسَارَةُ وَأُمُّ مُوسَىٰ وَهَاجَرُ وَآسِيَةُ وَمَرْيَمُ وَالضَّابِطُ عِنْدَهُ أَنَّ مَنْ جَاءَهُ الْمَلَكُ عَنِ اللهِ بِحُكْمٍ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَوْ بِإِعْلَامٍ مِمَّا سَيَأْتِي فَهُوَ نَبِيٌّ وَقَدْ ثَبَتَ مَجِيءُ الْمَلَكِ لِهَؤُلَاءِ بِأُمُورٍ شَتَّىٰ مِنْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَوَقَعَ التَّصْرِيحُ بِالْإِيحَاءِ لِبَعْضِهِنَّ فِي الْقُرْآنِ" .

قلت : أمَّا نسبة القول بنبوَّة النِّساء للإمام الأشعري ، فلم أعثر عليه في أيٍّ من كُتُبه ، بل إنَّني وجدت الحافظ ابن كثير في " التَّفسير" (٤/ ٤٢٣) ينفي هذا الكلام عن الإمام الأشعري عند تفسيره لقول الله تعالىٰ : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** ، قال : " الَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَشْعَرِيُّ عَنْهُمْ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ، وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَاتٌ " .

وأمَّا الإمام القرطبي ، فقد تناقض مع نفسه في هذه المسألة ، فعند تفسيره لقوله الله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ﴾** [آل عمران:٤٢] ، قال في " الجامع لأحكام القرآن" (٤/ ٨٢-٨٣) : " وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ (٤/ ١٨٨٦ برقم ٢٤٣١) عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كمل مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَإِنَّ فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ ... وَلَا شَكَ أَنَّ أَكْمَلَ نَوْعِ الْإِنْسَانِ الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ يَلِيهِمُ الْأَوْلِيَاءُ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْكَمَالَ الْمَذْكُورَ فِي الْحَدِيثِ يَعْنِي بِهِ النُّبُوَّةَ فَيَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَآسِيَةُ نَبِيَّتَيْنِ، وَقَدْ قِيلَ بِذَلِكَ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ مَرْيَمَ نَبِيَّةٌ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْهَا بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ كَمَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ سَائِرِ النَّبِيِّينَ ...

فَظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ يَقْتَضِي أَنَّ مَرْيَمَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ نِسَاءِ الْعَالَمِ مِنْ حَوَّاءَ إِلَى آخِرِ امْرَأَةٍ تَقُومُ عَلَيْهَا السَّاعَةُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ بَلَّغَتْهَا الْوَحْيَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّكْلِيفِ وَالْإِخْبَارِ وَالْبِشَارَةِ كَمَا بَلَّغَتْ سَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ، فَهِيَ إِذًا نَبِيَّةٌ وَالنَّبِيُّ أَفْضَلُ مِنَ الْوَلِيِّ فَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ النِّسَاءِ: الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مُطْلَقًا" .

ومع جزمه هنا بنبوَّة السَّيِّدة مريم عليه السَّلام إلَّا أنَّه عاد ونفى النُّبوَّة عن النِّساء ، فقال في " الجامع لأحكام القرآن" (٩/ ٢٧٤) عند تفسيره لقول الله تعالى : **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾** : " هذا ردٌّ على القائلين: **﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾** [الأنعام: ٨] ، أَيْ : أَرْسَلْنَا رِجَالًا لَيْسَ فِيهِمُ امْرَأَةٌ وَلَا جِنِّيٌّ وَلَا مَلَكٌ، وَهَذَا يَرُدُّ مَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:" إِنَّ فِي النِّسَاءِ أَرْبَعُ نَبِيَّاتٍ حَوَّاءُ وَآسِيَةُ وَأُمُّ مُوسَى وَمَرْيَمُ"... **﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾** يُرِيدُ الْمَدَائِنَ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِغَلَبَةِ الْجَفَاءِ وَالْقَسْوَةِ عَلَى أَهْلِ الْبَدْوِ، وَلِأَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ أَعْقَلُ وَأَحْلَمُ وَأَفْضَلُ وَأَعْلَمُ. قَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ قَطُّ، وَلَا مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا مِنَ الْجِنِّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: **﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾** ، أَيْ : مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ. وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: مِنْ شَرْطِ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا آدَمِيًّا مَدَنِيًّا " .

وهذا القول من الإمام القرطبي متأخِّر بالنِّسبة للقول الأوَّل ، فلعلَّه تراجع عمَّا قاله سابقاً ، والله أعلم .

أمَّا الإمام ابن حزم الظَّاهري ، فقد أفرد عنواناً رئيساً في كتابه " الفصل في الملل والأهواء والنِّحل" (٥/ ١٢-١٤) بعنوان : " نُبُوَّةُ النِّسَاء" ، قال فيه : " مَا نعلم للمانعين من ذَلِك حجَّة أصلا إِلَّا أَنَّ بَعضهم نَازع فِي ذَلِك بقول الله تَعَالَى : **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾** .

قَالَ أَبُو مُحَمَّد : وَهَذَا أَمر لَا ينازعون فِيهِ ، وَلم يدَّع أحد أَنَّ الله تَعَالَى أرسل امْرَأَة ، وَإِنَّمَا الْكَلَام فِي النُّبُوَّة دون الرِّسَالَة ، فَوَجَبَ طلب الْحق فِي ذَلِك بِأَن ينظر فِي معنى لَفْظَة النُّبُوَّة فِي اللُّغَة الَّتِي خاطبنا الله بهَا عزَّ وَجلَّ فَوَجَدنَا هَذِه اللَّفْظَة مَأْخُوذَة من الْإِنْبَاء وَهُوَ الْإِعْلَام ، فَمن أعلمهُ الله عزَّ وَجلَّ بِمَا يكون قبل أَن يكون أَو أُوحِي إِلَيْهِ منبئا لَهُ بِأَمْر مَا فَهُوَ نَبِي بِلَا شكّ .

وَلَيْسَ هَذَا من بَاب الإلهام الَّذِي هُوَ طبيعة كَقَوْل الله تَعَالَى : **﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾** [] وَلَا من بَاب الظَّن والتَّوهُّم الَّذِي لَا يقطع بحقيقته إِلَّا مَجْنُون ، وَلَا من بَاب الكهانة الَّتِي هِيَ من استيراق الشَّيَاطِين للسَّمع من السَّمَاء ، فيرمون بِالشُّهُبِ الثَّاقب ، وَفِيه يَقُول الله عَز وَجلَّ : **﴿شَياطِيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوْحِي**

بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوْرًا﴾ ، وَقد انْقطَعت الكهانة بمجيء رَسُول الله صلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَّلم ، وَلَا من بَاب النُّجُوم الَّتِي هِيَ تجارب تُتعلَّم ، وَلَا من بَاب الرُّؤْيَا الَّتِي لَا يدْرِي أصدقت أم كذبت .

بل الْوَحْي الَّذِي هُوَ النُّبُوَّة قصد من الله تَعَالَىٰ إِلَىٰ إِعْلَام من يوحي إِلَيْهِ بِمَا يُعلمهُ بِهِ وَيكون عِنْد الْوَحْي بِهِ إِلَيْهِ حَقِيقَة خَارِجَة عَن الْوُجُوه الْمَذْكُورَة ، يحدث الله عزَّ وَجلَّ لمن أوحىٰ بِهِ إِلَيْهِ علماً ضَرُورِيًّا بِصِحَّة مَا أُوحِي بِهِ ، كعلمه بِمَا أدْرك بحواسِّه وبديهة عقله سَوَاء ، لَا مجَال للشَّكّ فِي شَيْء مِنْهُ ، إِمَّا بمجيء الْملك بِهِ إِلَيْهِ وَإِمَّا بخطاب يُخَاطب بِهِ فِي نَفسه ، وَهُوَ تَعْلِيم من الله تَعَالَىٰ لمن يُعلِّمهُ دون وساطة معلِّم ، فَإِن أَنْكَرُوا أَن يكون هَذَا هُوَ معنىٰ النُّبُوَّة فليعرفوا مَا مَعْنَاهَا ، فَإِنَّهُم لَا يأْتونَ بِشَيْء أصلاً ، فَإِذْ ذَلِك كَذَلِك .

فقد جَاءَ الْقُرْآن بِأَنَّ الله عزَّ وَجلَّ أرسل الْمَلَائِكَة إِلَىٰ نسَاء ، فأخبروهنَّ بِوَحْي حقّ من الله تَعَالَىٰ ، فبشَّروا أمَّ إِسْحَاق بِإِسْحَاق عَن الله تَعَالَىٰ ، قَالَ عزَّ وَجلَّ : **﴿وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ * قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهَّ رَحْمَتُ اللهَّ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾** [هود:٧١-٧٣] ، فَهَذَا خطاب الْمَلَائِكَة لأمِّ إِسْحَاق عَن الله عزَّ وَجلَّ بالبشارة لَهَا بِإِسْحَاق ثمَّ يَعْقُوب ثمَّ بقَوْلهمْ لَهَا : **﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله﴾** ، وَلَا يُمكن الْبَتَّة أَن يكون هَذَا الْخطاب من مَلك لغير نَبِي بِوَجْه من الْوُجُوه .

ووجدناه تَعَالَىٰ قد أرسل جِبْرِيل إِلَىٰ مَرْيَم أم عِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام يخاطبها وَقَالَ لَهَا :**﴿إِنَّمَا أَنا رَسُول رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَامَاً زَكِيًّا﴾** ، فَهَذِهِ نبوَّة صَحِيحَة بِوَحْي صَحِيح ورسالة من الله تَعَالَىٰ إِلَيْهَا ، وَكَانَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام يجد عِنْدهَا من الله تَعَالَىٰ رزقاً وارداً تمنَّىٰ من أَجله ولداً فَاضلاً .

وَوجدنَا أمَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِمَا الصَّلَاة وَالسَّلَام قد أوحىٰ الله إِلَيْهَا بإلقاء وَلَدهَا فِي اليمِّ وأعلمها أَنه سيردُّه إِلَيْهَا ويجعله نَبيَّاً مُرْسلاً ، فَهَذِهِ نبوَّة لَا شكَّ فِيهَا ، وبضرورة الْعقل يدْرِي كلُّ ذِي تَمْيِيز صَحِيح أَنَّهَا لَو لم تكن واثقة بنبوَّة الله عزَّ وَجلَّ لَهَا لكَانَتْ بإلقائها وَلَدهَا فِي اليمِّ برؤيا تَرَاهَا أَو بِمَا يَقع فِي نَفسهَا أَو قَامَ فِي هاجستها فِي غَايَة الْجُنُون والمرار الهائج ، وَلَو فعل ذَلِك أَحدنَا لَكَانَ فِي غَايَة الْفسق أَو فِي غَايَة الْجُنُون مُسْتَحقّا لمعاناة دماغه فِي البيمارستان ، لَا يشكُّ فِي هَذَا أحد ، فصحَّ يَقِيناً أَنَّ الْوَحْي الَّذِي ورد لَهَا فِي إِلْقَاء وَلَدهَا فِي اليمِّ كالوحي الْوَارِد علىٰ إِبْرَاهِيم فِي الرُّؤْيَا فِي ذبح وَلَده ، فَإِنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام لَو لم يكن نَبيَّاً واثقاً بِصِحَّة الْوَحْي والنُّبوَّة الْوَارِد عَلَيْهِ من ذبح وَلَده . لكنَّه ذبح وَلَده لرؤيا رَآهَا أَو ظنّ وَقع فِي نَفسه لَكَانَ بِلَا

شكٍّ فَاعل ذَلِك من غير الْأَنبِيَاء فَاسِقًا فِي نِهَايَة الْفسق أَو مَجْنُونا فِي غَايَة الْجُنُون ، هَذَا مَا لَا يشكُّ فِيهِ أحد من النَّاس ، فَصحَّت نبوتهنَّ بيَقِين .

وَوجدنَا الله تَعَالَى قد قَالَ وَقد ذكر من الْأَنبِيَاء عَلَيْهِم السَّلَام فِي سُورَة كهيعص ذكر مَرْيَم فِي جُمْلَتهمْ ثمَّ قَالَ عزَّ وَجلّ : **﴿ولَئِكَ الَّذيْنَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّنَ مِنْ ذُرِّيَّة آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلنَا مَعَ نوْح﴾** ، وَهَذَا هُوَ عُمُوم لَهَا مَعَهم لَا يجوز تخصيصها من جُمْلَتهمْ ، وَلَيْسَ قَوْله عزَّ وَجلَّ : **﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَة﴾** بمانع من أَن تكون نبيَّة ، فقد قَالَ تَعَالَى : **﴿يُوسُف أَيُّهَا الصِّدِّيْق﴾** ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك نَبِي رَسُول ، وَهَذَا ظَاهر وَبِاللَّه تَعَالَى التَّوْفِيق .

وَيلْحق بهن عَلَيْهِنَّ السَّلَام فِي ذَلِك امْرَأَة فِرْعَوْن بقول رَسُول الله صلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلم: " كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ " أخرجه البخاري (٤/ ١٦٤ برقم ٣٤٣٣) ، أَو كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام .

والكمال فِي الرِّجَال لَا يكون إِلَّا لبَعض الْمُرْسلين عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام ، لِأَنَّ مَنْ دونهم نَاقص عَنْهُم بِلَا شكّ ، وَكَانَ تَخْصِيصه صلَّى الله عَلَيْهِ وَسلَّم مَرْيَم وَامْرَأَة فِرْعَوْن تَفْضِيلًا لَهما على سَائِر من أُوتيت النُّبُوَّة من النِّسَاء بِلَا شكّ ، إِذْ من نقص عَن منزلَة آخر وَلَو بدقيقة فَلم يكمل ، فصحَّ بِهَذَا الْخَبَر أَنَّ هَاتين الْمَرْأَتَيْنِ كملتا كمالاً لم يلحقهما فِيهِ امْرَأَة غَيرهَا أصلاً ، وَإِن كنَّ بنصوص الْقُرْآن نبيَّات ، وَقد قَالَ تَعَالَى : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْض﴾** ، فالكامل فِي نَوعه هُوَ الَّذِي لَا يلْحقهُ أحد من أهل نَوعه ، فهم من الرِّجَال الرُّسُل الَّذين فَضَّلهمْ الله تَعَالَى على سَائِر الرُّسُل ، وَمِنْهُم نَبيّنَا وَإِبْرَاهِيم عَلَيْهِمَا الصَّلَاة وَالسَّلَام بِلَا شكّ ، للنُّصوص الْوَارِدَة بذلك فِي فَضلهمَا على غَيرهمَا ، وكمل من النِّسَاء من ذكر عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام " .

....

.... مُنَاقَشَةُ أَقْوَالِ الْمُجِيْزِيْن لِنُبُوَّةِ النِّسَاء :

بعد استعراضنا لأدلَّة المانعين والمجيزين لنبوَّة النِّساء ، وما علمناه من خلاله من أنَّ جمهور أهل العلم ذهب إلى القول بعدم جواز نبوَّة النِّساء ، نخلص إلى مناقشة أقوال المجيزين ، فنقول :

أمَّا عن استدلالهم باصطفاء السَّيِّدة مريم عليه السَّلام على أنَّها نبيَّة ، فلا يُسعفهم الاستدلال ، لأنَّ الله تعالى صرَّح أنَّه اصطفى من ليسوا بأنبياء ، قال تعالى : **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾** [فاطر: ٣٢] ، قال الإمام الطَّبري في " التَّفسير" (١٩/ ٣٦٨) : " وَالْمُصْطَفُونَ مِنْ عِبَادِهِ: أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: أَهْلُ الْإِجْرَامِ مِنْهُمْ " ، ثمَّ روى ذلك عن : ابن عبَّاس ، ابن مسعود ، كعب الأحبار ، محمَّد بن الحنفيَّة .

وقال الإمام الطَّاهر بن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير" (٢٢/ ٣١١) : " وَالْمُرَادُ بِالَّذِينِ اصْطَفَاهُمُ اللهُ: الْمُؤْمِنُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ﴾** [الحج: ٧٧- ٧٨] . وَقَدِ اخْتَارَ اللهُ لِلْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ أَفْضَلَ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ رُوِيَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ ذَكَرَهَا ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» .

ولا ينافي هذا الكلام ما ذكره الإمام الطَّبري أوَّلاً ، لأنَّ المؤمنين متفاوتون : فمنهم ظالم لنفسه بارتكاب الآثام ، ومنهم المقتصد ، ومنهم السَّابق بالخيرات ، مع العلم أنَّ ارتكاب المعاصي والآثام لا يُخرج الإنسان من كونه من أُمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلَّم ، ، قال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٦/ ٥٤٧) : " وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَكَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ طُرُقٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا " .

وقال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٢/ ٣٩) في تفسير الآية : " هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مَرْيَمَ، عَلَيْهَا السَّلَامُ، عَنْ أَمْرِ اللهِ لَهُمْ بِذَلِكَ: أَنَّ اللهَ قَدِ اصْطَفَاهَا، أَيِ: اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَزَهَادَتِهَا وَشَرَفِهَا وَطُهْرِهَا مِنَ الْأَكْدَارِ وَالْوَسْوَاسِ وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين " .

فأنت ترى أنَّ الإمام ابن كثير لم يتعرَّض البتَّة لموضوع النُّبوَّة ، وأنَّ الأمر محصور بأفضليَّتها على نساء العالمين ... ثمَّ أردف هذا الفهم بالرِّوايات التي جاءت بأفضليَّتها على نساء العالمين ، وهي روايات ضمَّت مع السَّيِّدة مريم من لم يقل أحد عنهنَّ بأنَّهنَّ نبيَّات .

وقال الإمام الزَّمخشري في " الكشَّاف" () : " " .

قال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٣/١٥٨) في تفسير هذه الآية : " وَقَوْلُهُ: **﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾** ، أَيْ: مُؤْمِنَةٌ بِهِ مُصَدِّقَةٌ لَهُ. وَهَذَا أَعْلَىٰ مَقَامَاتِهَا ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ، كَمَا زَعَمَهُ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَىٰ نُبُوَّةِ سَارَّةَ أُمِّ إِسْحَاقَ، وَنُبُوَّةِ أُمِّ مُوسَىٰ، وَنُبُوَّةِ أُمِّ عِيسَىٰ اسْتِدْلَالًا مِنْهُمْ بِخِطَابِ الْمَلَائِكَةِ لِسَارَّةَ وَمَرْيَمَ، وَبِقَوْلِهِ: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾** [القصص: ٧] .

وقال الإمام الألوسي في "روح المعاني" (٣/ ٣٧٣) : " واستدلَّ بالآية من ذهب إلىٰ عدم نبوَّة مريم عليها السَّلام، وذلك أنَّه تعالىٰ شأنه إنَّما ذكر في معرض الإشارة إلىٰ بيان أشرف ما لها الصدِّيقيَّة، كما ذكر الرِّسالة لعيسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام في مثل ذلك المعرض، فلو كان لها عليها السَّلام مرتبة النُّبوَّة لذكرها سبحانه دون الصدِّيقيَّة لأنَّها أعلىٰ منها بلا شكّ " .

وقال الإمام الطَّاهر بن عاشور في "التَّحرير والتَّنوير " (٦/ ٢٨٥) : " وَالْقَصْدُ مِنْ وَصْفِهَا بِأَنَّهَا صِدِّيقَةٌ نَفْيُ أَنْ يَكُونَ لَهَا وَصْفٌ أَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ " .

وقال الإمام البقاعي في" نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور" (٦/ ٢٥٥) : " وهذه الآية من أدلَّة من قال: إنَّ مريم عليها السَّلام لم تكن نبيَّة ، فإنَّه تعالىٰ ذكر أشرف صفاتها في معرض الرَّد علىٰ من قال بإلهيَّتهما إشارة إلىٰ بيان ما هو الحقّ في اعتقاد ما لهما من أعلىٰ الصِّفات، وأنَّه من رفع واحداً منها فرق ذلك فقد أطراه، ومن نقصه عنه فقد ازدراه، فالقصد العدل بين الإفراط والتَّفريط باعتقاد أنَّ أعظم صفات عيسىٰ عليه السَّلام الرِّسالة، وأكمل صفات أمِّه الصِّديقيَّة."

أمَّا الوحي إلىٰ أُمِّ موسىٰ عليه السَّلام وآسية ، فقد يكون وقع لهما إلهاماً ، إذ لم يكن فيه شيء من التَّشريع ، أو كان رؤيا منام ، وهذا قدر مشترك كلّهم ، بل قد يشترك مع النَّاس فيه بعض الحيوان ، كما قال تعالىٰ : **﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾** [النحل:٦٨-٦٩] ، وهذا ما عليه جمهور المفسِّرين...

قال الإمام الرَّازي غي " التَّفسير" (٢٢/ ٤٦-٤٧) : " اتَّفَقَ الْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّ أُمَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَتْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْوَحْيِ هُوَ الْوَحْيَ الْوَاصِلَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَكَيْفَ لَا نَقُولُ ذَلِكَ وَالْمَرْأَةُ لَا تَصْلُحُ للقضاء وَالْإِمَامَةِ بَلْ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ لَا تُمَكَّنُ مِنْ تَزْوِيجِهَا نَفْسَهَا فَكَيْفَ تَصْلُحُ

لِلنُّبُوَّةِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾** [الْأَنبِيَاءِ: ٧] ، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي الْبَابِ، وَأَيْضًا فَالْوَحْيُ قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ لَا بِمَعْنَى النُّبُوَّةِ قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾** [النَّحْلِ: ٦٨] ، وَقَالَ **﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ﴾** [الْمَائِدَةِ: ١١١] " . ثمَّ أخذ يُعدِّد أقوال العلماء في المراد بهذا الوحي ، بعد أن جزم بأنَّه ليس المراد به الوحي الواصل إلى الأنبياء...

وقال الإمام البروسوي في " روح البيان" (٥/ ٣٨٢) : " والمراد من هذا الوحى ليس الوحى الواصل إلى الأنبياء ، لأنَّ أمّ موسى ما كانت من الأنبياء ، فإنَّ المرأة لا تصلح للإمارة والقضاء ، فكيف تصلح للنُّبوَّة بل الإلهام كما في قوله تعالى : **﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾** بأن أوقع الله في قلبها عزيمة جازمة على ما فعلته من اتِّخاذ التَّابوت والقذف ، قال في "الأسئلة المقحمة" : كيف يجوز لها أن تُلقي ولدها في البحر ، وتخاطر بروحه بمجرَّد الإلهام ؟ والجواب : كانت مضطرَّة إلى ركوب أحد الخطرين ، فاختارت له خير الشرَّين."

وقال الإمام البيضاوي في " أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل" (٤/ ٢٧) : **﴿ إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ﴾** بإلهام أو في منام أو على لسان نبيّ في وقتها أو مَلك ، لا على وجه النُّبوَّة ، كما أوحي إلى مريم " .

وقال الإمام البغوي في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن"(٣/ ٢٦١) : **﴿ إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ﴾** ، وَحْيُ إِلْهَامٍ، مَا يُوحى، مَا يُلْهَمُ" .

وقال الإمام الثَّعالبي في " الجواهر الحِسان في تفسير القرآن" (٤/ ٥٤) : " وقوله سبحانه: **﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى * إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى﴾** قيل: هو وَحْي إلهام، وقِيلَ: بملك، وقِيلَ: برؤيا رَأَتْهَا " .

وقال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (١١/ ١٩٥) : " وَقَوْلُهُ: **﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى﴾** ، قِيلَ:" أَوْحَيْنا" أَلْهَمْنَا. وَقِيلَ: أَوْحَى إِلَيْهَا فِي النَّوْمِ " .

وقال الإمام الألوسي في " روح المعاني" (٨/ ٥٠١) : " المراد بالإيحاء عند الجمهور ما كان بالهام ، كما في قوله تعالى: **﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾** [النحل: ٦٨] ، وتعقِّب بأنَّه بعيد لأنَّه قال تعالى في سورة القصص: **﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** [القصص: ٧] ، ومثله لا يعلم بالإلهام ، وليس بشيء لأنَّها قد تكون شاهدت منه عليه السَّلام ما يدلُّ على نبوَّته، وأنَّه تعالى لا يضيعه، وإلهام الأنفس القدسيَّة مثل ذلك لا بُعد فيه ، فإنَّه نوع من الكشف. ألا ترى قول عبد المطلب وقد سمَّى نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلَّم محمَّداً ، فقيل له:

لِمَ سمَّيت ولدك محمَّداً وليس في أسماء آبائك؟ قال : إنَّه سيُحمد، وفي رواية : رجوت أن يُحمد في السَّماء والأرض ، مع أنَّ كون ذلك داخلاً في الملهم ليس بلازم.

واستظهر أبو حيَّان أنَّه كان يبعث ملك إليها لا على جهة النُّبوَّة كما بعث إلى مريم ، وهو مبني على أنَّ الملك يبعث إلى غير الأنبياء عليهم السَّلام وهو الصَّحيح " .

ثمَّ إنَّ القرآن الكريم نصَّ على أنَّ الله تعالى أوحى إلى ذي القرنين ، قال تعالى : **﴿قُلْنا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾** [الكهف:٨٦] ، ومع ذلك توقَّف النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلم في نبوَّته ، فقد روى الحاكم في " المستدرك على الصَّحيحين" (١/ ٩٢ برقم ١٠٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَدْرِي تُبَّعٌ أَنَبِيًّا كَانَ أَمْ لَا؟ وَمَا أَدْرِي ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنَبِيًّا كَانَ أَمْ لَا؟ وَمَا أَدْرِي الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لِأَهْلِهَا أَمْ لَا؟» . «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْلَمُ لَهُ عِلَّةً وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»ووافقه الذَّهبي.

وجاء في روايات أخرى أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صرَّح بعدم نبوَّة ذي القرنين ، وأنَّه ما كان إلَّا عبداً صالحاً...

قال الإمام السُّيوطي في " " (٥/ ٤٣٥-٤٣٦) : " أخرج ابْن مرْدَوَيْه عَن سَالم بن أبي الْجَعْد قَالَ: سُئِلَ عَليّ عَن ذِي القرنين: أَنَبِي هُوَ فَقَالَ: سَمِعت نَبِيكُم صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول: هُوَ عبد نَاصح الله فنصحه.

وَأخرج ابْن عبد الحكم فِي فتوح مصر وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم وَابْن الْأَنْبَارِي فِي الْمَصَاحِف وَابْن مرْدَوَيْه من طَرِيق أبي الطُّفَيْل أَن ابْن الْكواء سَأَلَ عليّ بن أبي طَالب عَن ذِي القرنين: أَنَبيا كَانَ أم ملكا قَالَ: لم يكن نَبيا وَلَا ملكا وَلَكِن كَانَ عبدا صَالحا أحب الله فَأَحبهُ ونصح لله فنصحه " .

أمَّا قولهم : أنَّ كلّ من خاطبته الملائكة فهو نبي ، فليس صحيحاً على الإطلاق ، وذلك لأنَّه روي في السُّنَّة الصَّحيحة أنَّ الملائكة كلَّمت العديد من النَّاس ، مع أنَّهم ليسوا بأنبياء ، من ذلك:

روى البخاري (٤/ ١٧١ برقم ٣٤٦٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدَّثَهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " إِنَّ ثَلاَثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، بَدَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ، - أَوْ

قَالَ: البَقَرُ، هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ: إِنَّ الأَبْرَصَ، وَالأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا الإِبِلُ، وَقَالَ الآخَرُ: البَقَرُ -، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا وَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ، قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الغَنَمُ: فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ، وَالجِلْدَ الحَسَنَ، وَالمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الحُقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ."

وروى مسلم (٤/ ١٩٨٨ برقم ٢٥٦٧) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، " أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ " .

وأمَّا استدلالهم بحديث : " كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ" على نبوَّة مريم وآسية ، فهو استدلال ضعيف ، لأنَّ الكمال يُطلق على تمام الشَّيء وتناهيه في بابه ، والمراد هنا التَّناهي في جميع خصال البر والتَّقوى.

قال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (١٥/ ١٩٨) : " قَالَ الْقَاضِي هَذَا الْحَدِيثُ يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يَقُولُ بِنُبُوَّةِ النِّسَاءِ وَنُبُوَّةِ آسِيَةَ وَمَرْيَمَ وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُمَا لَيْسَتَا نَبِيَّتَيْنِ بَلْ هُمَا صِدِّيقَتَانِ وَوَلِيَّتَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَفْظَةُ الْكَمَالِ تُطْلَقُ عَلَى تَمَامِ الشئ وَتَنَاهِيهِ فِي بَابِهِ ، وَالْمُرَادُ هُنَا : التَّنَاهِي فِي جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَخِصَالِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى . قَالَ الْقَاضِي فَإِنْ قُلْنَا هُمَا نَبِيَّتَانِ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ غَيْرَهُمَا لَا يُلْحَقُ بِهِمَا ، وَإِنْ قُلْنَا وَلِيَّتَانِ ، لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يُشَارِكَهُمَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ غَيْرُهُمَا . هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي ، وَهَذَا الَّذِي نَقَلَهُ مِنَ الْقَوْلِ بِنُبُوَّتِهِمَا غَرِيبٌ ضَعِيفٌ ، وَقَدْ نَقَلَ جَمَاعَةٌ الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِهَا " ، أي : على عدم نبوَّة النِّساء...

وقال الإمام الكرماني كما في " فتح الباري " (٦/ ٤٤٧) : " لَا يَلْزَمُ مِنْ لَفْظِ الْكَمَالِ ثُبُوتُ نُبُوَّتِهَا لِأَنَّهُ يُطْلَقُ لِتَمَامِ الشَّيْءِ وَتَنَاهِيهِ فِي بَابِهِ فَالْمُرَادُ بُلُوغُهَا النِّهَايَةَ فِي جَمِيعِ الْفَضَائِلِ الَّتِي لِلنِّسَاءِ."

وفي كلامه على الحديث قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٦/ ٤٤٧) : " وَقَدْ وَرَدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الزِّيَادَةِ بَعْدَ قَوْلِهِ : " وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ : وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ" أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ الْقَاضِي عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْزُوقٍ عَنْ شُعْبَةَ بِالسَّنَدِ الْمَذْكُورِ هُنَا . وَأَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي " الْحِلْيَةِ " فِي تَرْجَمَةِ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ أَحَدِ رُوَاتِهِ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ بِهَذَا الْإِسْنَادِ ، وَأَخْرَجَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ مَرْزُوقٍ بِهِ . وَقَدْ وَرَدَ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ مَا يَقْتَضِي أَفْضَلِيَّةَ خَدِيجَةَ وَفَاطِمَةَ عَلَى غَيْرِهِمَا ، وَذَلِكَ فِيمَا سَيَأْتِي فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ بِلَفْظِ : " خَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ " ، وَجَاءَ فِي طَرِيقٍ أُخْرَى مَا يَقْتَضِي أَفْضَلِيَّةَ خَدِيجَةَ وَفَاطِمَةَ ، وَذَلِكَ فِيمَا أخرجه ابن حِبَّانَ ، وَأَحْمَدُ ، وَأَبُو يَعْلَى ، وَالطَّبَرَانِيُّ ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي " كِتَابِ الزُّهْدِ " ، وَالْحَاكِمُ كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ مُوسَى بن عقبة عَن كريب عَن بن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ " ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْأَوْسَطِ لِلطَّبَرَانِيِّ ، وَلِأَحْمَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَفَعَهُ : " فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ" ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ ، وَإِنْ ثَبَتَ فَفِيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ قَالَ : إِنَّ آسِيَةَ امْرَأَةَ فِرْعَوْنٍ لَيْسَتْ نَبِيَّةً."

وعليه فإنَّ الكمال الوارد في الحديث ليس هو كمال النُّبوَّة...

ومن المعلوم أنَّ خديجة وفاطمة رضي الله تعالىٰ عنهما ليستا بنبيَّتين ، وقد جاء النَّصُّ السَّابق بتفضيل فاطمة علىٰ غيرها ، ولو كانت أُمّ موسىٰ وآسية نبيَّتان لكانتا أفضل من فاطمة ، والحديث السَّابق يردُّ ذلك ، ويؤكِّد علىٰ أفضليَّة السَّيِّدة فاطمة رضي الله عنها.

أمَّا ما ذهبوا إليه من القول بأنَّ النَّبيَّ لا يؤمر بالبلاغ فليس صحيحاً ، لأنَّه مُصادمٌ لنصِّ القرآن الكريم الذي أوضح أنَّ النَّبيَّ مُرسلٌ ، والمرسلُ لا بدَّ وأن يبلِّغ ، قال تعالىٰ : **﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾** [الأعراف:٩٤] ، فالآية نصٌّ في أنَّ النَّبيَّ مُرسلٌ ... وقال تعالىٰ : **﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** [البقرة:٢١٣] ، فقوله تعالىٰ : **﴿فَبَعَثَ﴾** دليل علىٰ أنَّ النَّبيَّ مبعوث من قِبَلِ الله تعالىٰ إلىٰ غيره كي يقوِّم الاعوجاج، ويُصحِّح المفاهيم التي اختلفوا فيها...

وقال تعالىٰ : **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾** [الحج:٥٢] ، والآية نصٌّ في أنَّ النَّبيَّ مرسلٌ كما الرَّسول...

وقال تعالىٰ : **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾** [المائدة:٤٤] ، قال الإمام ابن عطيَّة في " المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " (٢/ ١٩٥) : " أي يحكمون بمقتضىٰ التوراة لبني إسرائيل وعليهم " . وعليه فالنَّبي بنصِّ القرآن حاكم يحكم بالكتاب الذي أوحىٰ الله به إلىٰ من سبقه من الرُّسل ...

خامِسَاً : صِفَةُ البَشَرِيَّة : بمعنىٰ أنَّ النَّبيَّ أو الرَّسول يجب أن يكون من البشر ، وقد صرَّح بذلك الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام ، كما قال تعالىٰ : **﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ* وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى مَا آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون﴾** [إبراهيم:١١-١٢] .

قال الإمام الرَّازي في "التَّفسير" (١٩/ ٧٤-٧٥) في تفسيره للآية : " اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا حَكَىٰ عَنِ الْكُفَّارِ شُبُهَاتِهِمْ فِي الطَّعْنِ فِي النُّبُوَّةِ، حَكَىٰ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَوَابَهُمْ عَنْهَا.

أَمَّا الشُّبْهَةُ الْأُولَى: وَهِيَ قَوْلُهُمْ: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَجَوَابُهُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ سَلَّمُوا أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، لَكِنَّهُمْ بَيَّنُوا أَنَّ التَّمَاثُلَ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ لَا يَمْنَعُ مِنَ اخْتِصَاصِ بَعْضِ الْبَشَرِ بِمَنْصِبِ النُّبُوَّةِ لِأَنَّ هَذَا الْمَنْصِبَ مَنْصِبٌ يَمُنُّ اللهُ بِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَدْ سَقَطَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْمَقَامَ فِيهِ بَحْثٌ شَرِيفٌ دَقِيقٌ، وَهُوَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ قَالُوا: إِنَّ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ وَبَدَنِهِ مَخْصُوصًا بِخَوَاصَّ شَرِيفَةٍ عُلْوِيَّةٍ قُدُسِيَّةٍ، فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَقْلًا حُصُولُ صِفَةِ النُّبُوَّةِ لَهُ. وَأَمَّا الظَّاهِرِيُّونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ حُصُولَ النُّبُوَّةِ عَطِيَّةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ يَهَبُهَا لِكُلِّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُهَا عَلَىٰ امْتِيَازِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ بِمَزِيدِ إِشْرَاقٍ نَفْسَانِيٍّ وَقُوَّةٍ قُدُسِيَّةٍ، وَهَؤُلَاءِ تَمَسَّكُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ حُصُولَ النُّبُوَّةِ لَيْسَ إِلَّا بِمَحْضِ الْمِنَّةِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَالْعَطِيَّةِ مِنْهُ، وَالْكَلَامُ مِنْ هَذَا الْبَابِ غَامِضٌ غَائِصٌ دَقِيقٌ، وَالْأَوَّلُونَ أَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا فَضَائِلَهُمُ النَّفْسَانِيَّةَ وَالْجَسَدَانِيَّةَ تَوَاضُعًا مِنْهُمْ، وَاقْتَصَرُوا عَلَىٰ قَوْلِهِمْ : **﴿وَلَكِنَّ اللهَّ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾** بِالنُّبُوَّةِ، لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَخُصُّهُمْ بِتِلْكَ الْكَرَامَاتِ إِلَّا وَهُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْفَضَائِلِ الَّتِي لِأَجْلِهَا اسْتَوْجَبُوا ذَلِكَ التَّخْصِيصَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿اللهَّ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾** [الأنعام:١٢٤] .

وَأَمَّا الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ: وَهِيَ قَوْلُهُمْ: إِطْبَاقُ السَّلَفِ عَلَىٰ ذَلِكَ الدِّينِ يَدُلُّ عَلَىٰ كَوْنِهِ حَقًّا، لِأَنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يَظْهَرَ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ مَا لَمْ يَظْهَرْ لِلْخَلْقِ الْعَظِيمِ، فَجَوَابُهُ: عَيْنُ الْجَوَابِ الْمَذْكُورِ عَنِ الشُّبْهَةِ الْأُولَىٰ، لِأَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ عَطِيَّةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَفَضْلٌ مِنْهُ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَخُصَّ بَعْضَ عَبِيدِهِ بِهَذِهِ الْعَطِيَّةِ وَأَنْ يَحْرِمَ الْجَمْعَ الْعَظِيمَ مِنْهَا.

وَأَمَّا الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ: وَهِيَ قَوْلُهُمْ: إِنَّا لَا نَرْضَى بِهَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي أَتَيْتُمْ بِهَا، وَإِنَّمَا نُرِيدُ مُعْجِزَاتٍ قَاهِرَةً قَوِيَّةً.

فَالْجَوَابُ عَنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهَّ﴾** ، وَشَرْحُ هَذَا الجواب أن الْمُعْجِزَةَ الَّتِي جِئْنَا بِهَا وَتَمَسَّكْنَا بِهَا حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ وَبَيِّنَةٌ قَاهِرَةٌ وَدَلِيلٌ تَامٌّ، فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي طَلَبْتُمُوهَا فَهِيَ أُمُورٌ زَائِدَةٌ وَالحكم فِيهَا للهَّ تَعَالَىٰ فَإِنْ خَلَقَهَا وَأَظْهَرَهَا فَلَهُ الْفَضْلُ وَإِنْ لَمْ يَخْلُقْهَا فَلَهُ الْعَدْلُ وَلَا يُحَكِّمُ عَلَيْهِ بَعْدَ ظُهُورِ قَدْرِ الْكِفَايَةِ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ حَكَىٰ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّهُمْ قَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ : **﴿وَعَلَى اللهَّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾** ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْأَنبِيَاءَ لَمَّا أَجَابُوا عَنْ شُبُهَاتِهِمْ بِذَلِكَ الْجَوَابِ ، فَالْقَوْمُ أَخَذُوا فِي السَّفَاهَةِ وَالتَّخْوِيفِ وَالْوَعِيدِ، وَعِنْدَ هَذَا قَالَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: لَا نَخَافُ مِنْ تَخْوِيفِكُمْ وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَىٰ تَهْدِيدِكُمْ ، فَإِنَّ تَوَكُّلَنَا عَلَىٰ اللهَّ وَاعْتِمَادَنَا عَلَىٰ فَضْلِ اللهَّ ، وَلَعَلَّ اللهَّ سُبْحَانَهُ كَانَ قَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنَّ أُولَئِكَ الْكَفَرَةَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ إِيصَالِ الشَّرِّ وَالْآفَةِ إِلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَصَلَ هَذَا الْوَحْيُ، فَلَا يَبْعُدُ مِنْهُمْ أَنْ لَا

يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ سَفَاهَتِهِمْ لَمَّا أَنْ أَرْوَاحُهُمْ كَانَتْ مُشْرِقَةً بِالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ مُشْرِقَةً بِأَضْوَاءِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالرُّوحُ مَتَىٰ كَانَتْ مَوْصُوفَةً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَقَلَّمَا يُبَالِي بِالْأَحْوَالِ الْجُسْمَانِيَّةِ وَقَلَّمَا يُقِيمُ لَهَا وَزْنًا فِي حَالَتَي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَطَوْرَيِ الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ تَوَكَّلُوا عَلَىٰ اللَّهِ وَعَوَّلُوا عَلَىٰ فَضْلِ اللَّهِ وَقَطَعُوا أَطْمَاعَهُمْ عَمَّا سِوَىٰ اللَّهِ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَكَرْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْهُمْ : **﴿وما لنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا آذَيْتُمُونا﴾** ، يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا خَصَّنَا بِهَذِهِ الدَّرَجَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ، بَلِ اللَّائِقُ بِنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا نُعَوِّلَ فِي تَحْصِيلِ الْمُهِمَّاتِ إِلَّا عَلَيْهِ، فَإِنَّ مَنْ فَازَ بِشَرَفِ الْعُبُودِيَّةِ وَوَصَلَ إِلَىٰ مَكَانِ الْإِخْلَاصِ وَالْمُكَاشَفَةِ يَقْبُحُ بِهِ أَنْ يَرْجِعَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ سَوَاءً كَانَ مَلِكًا لَهُ أَوْ مَلَكًا أَوْ رُوحًا أَوْ جِسْمًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَعْصِمُ أَوْلِيَاءَهُ الْمُخْلِصِينَ فِي عُبُودِيَّتِهِ مِنْ كَيْدِ أعدائهم ومكرهم " .

وقال تعالىٰ : **﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾** [الكهف:١١٠] .

سَادِسَاً : صِفَةُ الخُلُوِّ مِنَ الأَمْرَاضِ المُنَفِّرَة :

سَابِعَاً : صِفَةُ العِصْمَة :

العصمة في اللغة هي المنع ، ومنه قوله تعالىٰ : **﴿وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾** [يوسف:٣٢] ، أي : امتنع ، قال ابن فارس في " " (٤/ ٣٣١) : " الْعَيْنُ وَالصَّادُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَىٰ إِمْسَاكٍ وَمَنْعٍ وَمُلَازَمَةٍ. وَالْمَعْنَىٰ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَعْنًى وَاحِدٌ. مِنْ ذَلِكَ الْعِصْمَةُ: أَنْ يَعْصِمَ اللَّهُ - تَعَالَىٰ - عَبْدَهُ مِنْ سُوءٍ يَقَعُ فِيهِ. وَاعْتَصَمَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ - تَعَالَىٰ -، إِذَا امْتَنَعَ. وَاسْتَعْصَمَ: الْتَجَأَ. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: أَعْصَمْتُ فُلَانًا، أَيْ هَيَّأْتُ لَهُ شَيْئًا يَعْتَصِمُ بِمَا نَالَتْهُ يَدُهُ أَيْ يَلْتَجِئُ وَيَتَمَسَّكُ بِهِ" .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " (١١/ ٥٠١-٥٠٢) : " (الْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ) ، أَيْ : مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ بِأَنْ حَمَاهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْهَلَاكِ أَوْ مَا يَجُرُّ إِلَيْهِ ، يُقَالُ : عَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ وَقَاهُ وَحَفِظَهُ ، وَاعْتَصَمْتُ بِاللَّهِ لَجَأْتُ إِلَيْهِ ، وعِصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ نبينا وَعَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : حِفْظُهُمْ مِنَ النَّقَائِصِ وَتَخْصِيصُهُمْ بِالْكَمَالَاتِ النَّفِيسَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالثَّبَاتِ فِي الْأُمُورِ وَإِنْزَالِ السَّكِينَةِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ أَنَّ الْعِصْمَةَ فِي حَقِّهِمْ بِطَرِيقِ الْوُجُوبِ وَفِي حَقِّ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِ الْجَوَازِ" .

وقال الإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوىٰ" (٣١٩/٤) : "الْقَوْلَ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَبَائِرِ دُونَ الصَّغَائِرِ هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَجَمِيعِ الطَّوَائِفِ حَتَّىٰ إنَّهُ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ كَمَا ذَكَرَ " أَبُو الْحَسَنِ الآمدي " أَنَّ هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَهُوَ أَيْضًا قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفُقَهَاءِ بَلْ هُوَ لَمْ يَنْقُلْ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ إلَّا مَا يُوَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ وَلَمْ يَنْقُلْ عَنْهُمْ مَا يُوَافِقُ الْقَوْلَ "
.

وقال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد" (٥/ ٥٠-٥٣) : " فما يتوهَّم صدوره عن الأنبياء من القبائح إمَّا أن يكون منافياً لما يقتضيه المعجزة كالكذب فيما يتعلَّق بالتَّبليغ أو لا ، والثَّاني إمَّا أن يكون كفراً ومعصية غيره ، وهي إمَّا أن تكون كبيرة كالقتل والزِّنا ، أو صغيرة منفِّرة كسرقة لقمة ، والتَّطفيف بحبَّة ، أو غير منفِّرة ككذبة ، وهَمٌّ بمعصية ، كلُّ ذلك إمَّا عمداً أو سهواً ، وبعد البعثة أو قبلها ، والجمهور علىٰ وجوب عصمتهم عمَّا ينافي مقتضىٰ المعجزة ، وقد جوَّزه القاضي سهواً زعماً منه أنَّه لا يدخل في التَّصديق المقصود بالمعجزة وعن الكفر ، وقد جوَّزه الأزارقة من الخوارج بناء علىٰ تجويزهم الذَّنب ، مع قولهم بأنَّ كلّ ذنب كفر ، وجوَّز الشِّيعة إظهاره تقيَّة واحترازاً عن إلقاء النَّفس في التَّهلكة ، وردَّ بأنَّ أولىٰ الأوقات بالتَّقية ابتداع الدَّعوة لضعف الدَّاعي ، وشوكة المخالف وكذا عن تعمُّد الكبائر بعد البعثة ، فعندنا سمعاً ، وعند المعتزلة عقلاً ، وجوَّزه الحشويَّة إمَّا لعدم دليل الامتناع ، وإمَّا لما سيجيء من شبه الوقوع ، وكذا عن الصَّغائر المنفِّرة لإخلالها بالدَّعوة إلىٰ الاتِّباع .

ولهذا ذهب كثير من المعتزلة إلىٰ نفي الكبائر قبل البعثة أيضاً ، وبعض الشِّيعة إلىٰ نفي الصَّغائر ولو سهواً ، والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقاً ، والصَّغائر عمداً لا سهواً لكن لا يصرُّون ولا يُقرُّون بل يُنبَّهون فيتنبَّهون ، وذهب إمام الحرمين منَّا وأبو هاشم من المعتزلة إلىٰ تجويز الصَّغائر عمداً ، لنا أنَّه لو صدر عنهم الذَّنب لزم أمور كلُّها منتفية:

الأَوَّلُ : حرمة اتِّباعهم ، لكنَّه واجب بالإجماع ، وبقوله تعالىٰ : ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران:٣١] .

الثَّانِي : ردُّ شهادتهم ، لقوله تعالىٰ : ﴿**إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ**﴾ [الحجرات:٦] الآية ، والإجماع علىٰ ذلك ، لكنَّه منتف للقطع بأنَّ من يردّ شهادته في القليل من متاع الدُّنيا لا يستحقُّ القبول في أمر الدِّين القائم إلىٰ يوم الدِّين.

الثَّالِثُ : وجوب منعهم وزجرهم ، لعموم أدلَّة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، لكنَّه منتف لاستلزامه إيذائهم المحرَّم بالإجماع ، ولقوله تعالىٰ : **﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾** [التوبة:٦١] .

الرَّابعُ : استحقاقهم العذاب والطَّعن واللوم والذَّم لدخولهم تحت قوله تعالىٰ : **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾** [الجن:٢٣] ، وقوله : **﴿أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** [هود:١٨] ، وقوله : **﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾** [الصف:٢] ، وقوله : **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾** [البقرة:٤٤] ، لكنَّ ذلك منتف بالإجماع ، ولكونه من أعظم المنفِّرات .

الخَامِسُ : عدم نيلهم عهد النُّبوَّة ، لقوله تعالىٰ : **﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** [البقرة:١٢٤] ، فإنَّ المراد به النُّبوَّة أو الإمامة التي دونها.

السَّادِسُ : كونهم غير مخلصين ، لأنَّ المذنب قد أغواه الشَّيطان ، والمخلص ليس كذلك لقوله تعالىٰ حكاية : **﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** [الحجر:٣٩-٤٠] ، لكن اللازم منتف بالإجماع ، وبقوله تعالىٰ في إبراهيم ويعقوب : **﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾** [ص:٤٦] ، وفي يوسف : **﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾** [يوسف:٢٤] .

السَّابعُ : كونهم من حزب الشَّيطان ومتَّبعيه ، واللازم قطعي البطلان .

الثَّامِنُ : عدم كونهم مسارعين في الخيرات ، ومعدودين عند الله من المصطفين الأخيار ، إذ لا خير في الذَّنب ، لكن اللازم منتف لقوله تعالىٰ في حقِّ بعضهم : **﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾** [الأنبياء:٩٠] ، **﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾** [ص:٤٧] .

وحصول المطلوب من هذه الوجوه ، محلُّ بحث ، لأنَّ وجوب الاتِّباع إنَّما هو فيما يتعلَّق بالشَّريعة وتبليغ الأحكام ، وبالجملة فيما ليس بزلَّة ولا طبع واستحقاق العذاب ، وردّ الشَّهادة إنَّما يكون بكبيرة ، أو إصرار على صغيرة من غير إنابة ورجوع ، ولزوم الزَّجر والمنع ، واستحقاق العذاب واللوم إنَّما هو على تقدير التَّعمُّد وعدم الإنابة ، ومع ذلك فلا يتأذَّىٰ به النَّبي ، بل يبتهج ، وبمجرَّد كبيرة سهواً أو صغيرة ولو عمداً لا يعُّد المرء من الظَّالمين على الإطلاق ، ولا من الذين أغواهم الشَّيطان ، ولا من حزب الشَّيطان ، سيَّما مع الإنابة ، وعلى تقدير كون الخيرات لعموم كلّ فعل وترك . فمسارعة البعض إليها أو كونه من زمرة الأخيار

لا ينافي صدور ذنب عن آخر سيَّما سهواً أو مع التَّوبة . وبالجملة فدلالة الوجوه المذكورة علىٰ نفي الكبيرة سهواً أو الصغيرة الغير المنفِّر عمداً علىٰ ما هو المتنازع محلّ نظر" .

وقال الإمام الشَّوكاني في " " (١/٩٨-١٠٠) : " ذَهَبَ الْأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَىٰ عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَقَدْ حَكَىٰ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ إِجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ. وَكَذَا حَكَاهُ ابْنُ الْحَاجِبِ وَغَيْرُهُ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ، وَكَذَا حَكَوُا الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ عِصْمَتِهِمْ بَعْدَ النُّبُوَّةِ مِمَّا يُزْرِي بِمَنَاصِبِهِمْ، كَرَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَالدَّنَاءَاتِ وَسَائِرِ مَا يُنَفِّرُ عَنْهُمْ، وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا صَغَائِرُ الْخِسَّةِ، كَسَرِقَةِ لُقْمَةٍ، وَالتَّطْفِيفِ بِحَبَّةٍ، وإنما اختلفوا في الدليل عَلَىٰ عِصْمَتِهِمْ مِمَّا ذُكِرَ، هَلْ هُوَ الشَّرْعُ أَوِ الْعَقْلُ؟

فَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَبَعْضُ الْأَشْعَرِيَّةِ: إِنَّ الدَّلِيلَ عَلَىٰ ذَلِكَ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ؛ لِأَنَّهَا مُنَفِّرَةٌ عَنِ الِاتِّبَاعِ، فَيَسْتَحِيلُ وُقُوعُهَا مِنْهُمْ عَقْلًا وَشَرْعًا، وَنَقَلَهُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي "الْبُرْهَانِ" عَنْ طَبَقَاتِ الْخَلْقِ، قَالَ: وَإِلَيْهِ مَصِيرُ جَمَاهِيرِ أَئِمَّتِنَا.

وَقَالَ ابْنُ فُورَكَ: إِنَّ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ مِنْ مُقْتَضَىٰ الْمُعْجِزَةِ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ: وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ وَمَنْ تَبِعَهُ.

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَجَمَاعَةٌ مِنْ مُحَقِّقِي الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَفِيَّةِ: إِنَّ الدَّلِيلَ عَلَىٰ امْتِنَاعِهَا السَّمْعُ فَقَطْ، وَرُوِيَ عَنِ القاضي أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الدَّلِيلُ عَلَىٰ امْتِنَاعِهَا الْإِجْمَاعُ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهَا مُمْتَنِعَةٌ سَمْعًا وَالْإِجْمَاعُ دَلَّ عَلَيْهِ، قَالَ: وَلَوْ رَدَدْنَا ذَلِكَ إِلَىٰ الْعَقْلِ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يُحِيلُهَا، وَاخْتَارَ هَذَا إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ، والغزالي، وإلكيا وابن برهان.

قَالَ الْهِنْدِيُّ: هَذَا الْخِلَافُ فِيمَا إِذَا لَمْ يُسْنِدْهُ إِلَىٰ الْمُعْجِزَةِ فِي التَّحَدِّي، فَإِنْ أَسْنَدَهُ إِلَيْهَا كَانَ امْتِنَاعُهُ عَقْلًا.

وَهَكَذَا وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ عِصْمَتِهِمْ بَعْدَ النُّبُوَّةِ مِنْ تَعَمُّدِ الْكَذِبِ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، لِدَلَالَةِ الْمُعْجِزَةِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، وَأَمَّا الْكَذِبُ غَلَطًا فَمَنَعَهُ الْجُمْهُورُ وَجَوَّزَهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ.

وَاسْتَدَلَّ الْجُمْهُورُ: بِأَنَّ الْمُعْجِزَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ امْتِنَاعِهِ، وَاسْتَدَلَّ الْقَاضِي بِأَنَّ الْمُعْجِزَةَ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَىٰ امْتِنَاعِهِ عَمْدًا لَا خَطَأً، وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ أَوْلَىٰ. وَأَمَّا الصَّغَائِرُ الَّتِي لَا تُزْرِي بِالْمَنْصِبِ، وَلَا كَانَتْ مِنَ الدَّنَاءَاتِ، فَاخْتَلَفُوا هَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا جَازَتْ هَلْ وَقَعَتْ مِنْهُمْ أَمْ لَا؟ فَنَقَلَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَإِلْكِيَا عَنِ الْأَكْثَرِينَ الْجَوَازَ عَقْلًا،

وَكَذَا نَقَلَ ذَلِكَ عَنِ الْأَكْثَرِينَ ابْنُ الْحَاجِبِ، وَنَقَلَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَابْنُ الْقُشَيْرِيِّ٢ عَنِ الْأَكْثَرِينَ -أَيْضًا- عَدَمَ الْوُقُوعِ.

قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ: الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُحَصِّلُونَ أَنَّهُ ليس في الشرع قاطع ذَلِكَ نَفْيًا أَوْ إِثْبَاتًا، وَالظَّوَاهِرُ مُشْعِرَةٌ بِالْوُقُوعِ.

وَنَقَلَ الْقَاضِي عِيَاضٌ تَجْوِيزَ الصَّغَائِرِ وَوُقُوعَهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، مِنْهُمْ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ جماعة مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ. قَالُوا وَلَا بُدَّ مِنْ تَنْبِيهِهِمْ عَلَيْهِ إِمَّا فِي الْحَالِ عَلَىٰ رَأْيِ جُمْهُورِ الْمُتَكَلِّمِينَ، أَوْ قَبْلَ وَفَاتِهِمْ عَلَىٰ رَأْيِ بَعْضِهِمْ .

وَنَقَلَ ابْنُ حَزْمٍ فِي "الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ" عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيِّ، وَابْنِ فُورَكَ، أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ عَنِ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ جَمِيعًا، وَقَالَ: إِنَّهُ الذين نَدِينُ اللهَ بِهِ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ بُرْهَانٍ، وَحَكَاهُ النَّوَوِيُّ فِي "زَوَائِدِ الرَّوْضَةِ"عَنِ الْمُحَقِّقِينَ. قَالَ الْقَاضِي حُسَيْنٌ: وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ أَصْحَابِنَا يَعْنِي الشَّافِعِيَّةَ، وَمَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فَيُحْمَلُ علىٰ ترك الأَوَّل.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ: يُحْمَلُ عَلَىٰ مَا قَبْلَ النُّبُوَّةِ، أَوْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ فَعَلُوهُ بِتَأْوِيلٍ.

وَاخْتَارَ الرَّازِيُّ الْعِصْمَةَ عَمْدًا وَجَوَّزَهَا سَهْوًا" .

﴿سُؤالٌ﴾ : الذنوب المضافة للأنبياء ....

الجواب : قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد" (٥/ ٥٣) : " احتجَّ المخالف بما نقل من أقاصيص الأنبياء ، وما شهد به كتاب الله من نسبة المعصية والذَّنب إليهم ، ومن توبتهم واستغفارهم وأمثال ذلك ، والجواب عنه إمَّا إجمالا فهو أنَّ ما نقل آحاداً مردود ، وما نقل متواتراً أو منصوصاً في الكتاب محمول علىٰ السَّهو والنِّسيان أو ترك الأولىٰ ، أو كونه قبل البعثة ، أو غير ذلك من المحامل والتَّأويلات ، وإمَّا تفصيلاً فمذكور في التفاسير وفي الكتب المصنفة في هذا الباب" .

﴿سُؤالٌ﴾ : أَلَا تُعْتَبَرُ مُخَالَفَةَ آدَم عَلَيه السَّلَامُ لِأَمْرِ رَبِّهِ بِالأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ مُخَالِفَةً لِصِفَةِ العِصْمَة ؟

الجواب : قال تعالىٰ : **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى * فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هَذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ**

أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى * فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى * ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ [طه:١١٥-١٢٢] .

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد" (٥/٥٣-٥٤) : " أمَّا في قصَّة آدم عليه السَّلام فأمران:

أَحَدُهُمَا : ما ورد في التَّنزيل من أنَّه عصىٰ وغوىٰ ، وأزلَّه الشَّيطان ، وخالف النَّهي عن أكل الشَّجرة ، وبنزع اللباس ، والإخراج من الجنَّة ثمَّ تاب الله تعالىٰ عليه واجتباه .

والجواب : أنَّه كان قبل البعثة كيف ولم تكن له في الجنَّة أمة وكان عن نسيان لقوله تعالىٰ : **﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾** [طه:١١٥] ، أو كان زلَّة وسهواً حيث ظنَّ أنَّ المنهي شجرة بعينها ، وقد قرب فرداً آخر من جنسها ، وإنَّما عُوتب لترك التَّيقُّظ والتَّنبُّه لإصابة المراد ، وقد يعتذر بأنَّه وإن كان عمداً لكن لم يكن إلَّا صغيرة ، وهذا هو الظَّاهر إلَّا أنَّ فيه تسليماً للمدَّعي .

وَثَانِيْهِمَا : قوله تعالىٰ : **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ * فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾** [الأعراف:١٨٩-١٩٠ ، ولم يقل أحد في حقِّ الأنبياء بالشِّرك في الألوهَّية ولو قبل البعثة ، فالوجه أنَّه علىٰ حذف المضاف ، أي : جعل أولادهما له شركاء ، بدليل قوله تعالىٰ : **﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [الأعراف:١٩٠] .

أو المراد : ما وقع له من الميْل إلىٰ طاعة الشَّيطان ، وقبول وسوسته ، أو الخطاب لقريش ، والنَّفس الواحدة قضىٰ . ومعنىٰ **﴿جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾** جعلها من جنسها عربيَّة قرشيَّة . وإشراكهما فيما آتاهما الله تسمية أولادهما بعبد مناف ، وعبد العزَّىٰ ، وعبد الدَّار ، ونحو ذلك " .

﴿سُؤالٌ﴾ : ....نوح

الجواب : قال تعالىٰ : **﴿وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ * قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ * قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾** [هود:٤٥-٤٧] .

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد" (٥/٥٤) : " وأمَّا الشُّبهة في حقِّ نوح عليه السَّلام فهو أنَّ قوله تعالىٰ : **﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** تكذيب له في قوله : **﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾** .

والجواب : أنَّه ليس للتَّكذيب بل للتَّنبيه ، علىٰ أنَّ المراد بالأهل في الوعد هو الأهل الصَّالح ، أو المعنىٰ أنَّه ليس من أهل دينك ، أو أنَّه أجنبي منك ، وإن أضفته إلىٰ نفسك بأبنائك لما روي من أنَّه كان ابن امرأته ، والأجنبي إنَّما يُعدُّ من آل النَّبي إذا كان له عمل صالح " .

﴿سُؤالٌ﴾ : ....ابراهيم

الجواب : قال تعالىٰ : **﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾** [الأنعام:٧٥-٧٨] .

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد" (٥/ ٥٤) : " وأمَّا بالشُّبهة في حقِّ إبراهيم عليه السَّلام فهو أنَّه كذب في قوله تعالىٰ : **﴿هَذَا رَبِّي﴾** و **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾** [الأنبياء:٦٣] و **﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾** [الصافات:٨٩] .

والجواب : أنَّ الأوَّل علىٰ سبيل الفرض والتَّقدير ، كما يوضع الحكم الذي يُراد إبطاله أو علىٰ الاستفهام أو علىٰ أنَّه كان في مقام النَّظر والاستدلال ، وذلك قبل البعثة .

والثَّاني علىٰ التَّعريض والاستهزاء .

والثَّالث علىٰ أنَّ به مرض الهم والحزن من عنادهم ، أو الحمىٰ علىٰ ما قيل " .

وقال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (٦/ ٣٩١-٣٩٢) : " ... قَالَهُ عَلَىٰ طَرِيقِ الِاسْتِفْهَامِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ التَّوْبِيخُ ، وَقِيلَ : قَالَهُ عَلَىٰ طَرِيقِ الِاحْتِجَاجِ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، تَنْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَتَغَيَّرُ لَا يَصْلُحُ لِلرُّبُوبِيَّةِ. وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِ : إِنَّهُ قَالَ تَوْبِيخًا لِقَوْمِهِ ، أَوْ تَهَكُّمًا بِهِمْ ، وَهُوَ الْمُعْتَمَدُ ، وَلِهَذَا لَمْ يُعَدَّ ذَلِكَ فِي الْكَذَبَاتِ .

وَأَمَّا إِطْلَاقُهُ الْكَذِبَ عَلَىٰ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ فَلِكَوْنِهِ قَالَ قَوْلًا يَعْتَقِدُهُ السَّامِعُ كَذِبًا ، لَكِنَّهُ إِذَا حُقِّقَ لَمْ يَكُنْ كَذِبًا ، لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَعَارِيضِ الْمُحْتَمِلَةِ لِلْأَمْرَيْنِ ، فَلَيْسَ بِكَذِبٍ مَحْضٍ .

فَقَوْلُهُ : **﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾** [] ، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ إِنِّي سَقِيمٌ ، أَيْ : سَأَسْقَمُ ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَىٰ الْمُسْتَقْبَلِ كَثِيرًا ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنِّي سَقِيمٌ بِمَا قُدِّرَ عَلَيَّ مِنَ الْمَوْتِ ، أَوْ سَقِيمُ الْحُجَّةِ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مَعَكُمْ. وَحَكَىٰ النَّوَوِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ كَانَ تَأْخُذُهُ الْحُمَّىٰ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَهُوَ بَعِيدٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ كَذِبًا لَا تَصْرِيحًا وَلَا تَعْرِيضًا .

وَقوله : ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ**﴾ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هَذَا قَالَهُ تَمْهِيدًا لِلاسْتِدْلَالِ عَلَىٰ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَيْسَتْ بِآلِهَةٍ ، وَقَطْعًا لِقَوْمِهِ فِي قَوْلِهِمْ إِنَّهَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ . وَهَذَا الاِسْتِدْلَالُ يُتَجَوَّزُ فِيهِ فِي الشَّرْطِ الْمُتَّصِلِ ، وَلِهَذَا أَرْدَفَ قَوْلَهُ: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ**﴾ بقوله : ﴿**فَاسْأَلُوهُم إنْ كَانُوا يَنْطقُوْن**﴾ ، قَالَ بن قُتَيْبَةَ : مَعْنَاهُ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَقَدْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، فَالْحَاصِلُ أَنَّهُ مُشْتَرَطٌ بِقَوْلِهِ : ﴿**إِنْ كَانُوا يَنْطقُوْن**﴾ أَوْ أَنَّهُ أَسْنَدَ إِلَيْهِ ذَلِكَ لِكَوْنِهِ السَّبَبَ .

وَعَنِ الْكِسَائِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ**﴾ ، أَيْ : فَعَلَهُ مَنْ فَعَلَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ ، ثُمَّ يَبْتَدِئُ ﴿**كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ ، وَهَذَا خَبَرٌ مُسْتَقِلٌّ ، ثُمَّ يَقُولُ : ﴿**فَاسْأَلُوهُمْ**﴾ إِلَىٰ آخِرِهِ ، وَلَا يَخْفَىٰ تَكَلُّفُهُ .

وَقَوْلُهُ : "هَذِهِ أُخْتِي" يُعْتَذَرُ عَنْهُ بِأَنَّ مُرَادَهُ أَنَّهَا أُخْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ ، كَمَا سَيَأْتِي وَاضحاً . قَالَ بن عُقَيْلٍ : دَلَالَةُ الْعَقْلِ تَصْرِفُ ظَاهِرَ إِطْلَاقِ الْكَذِبِ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَقْلَ قَطَعَ بِأَنَّ الرَّسُولَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَوْثُوقًا بِهِ لِيُعْلَمَ صِدْقُ مَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ ، وَلَا ثِقَةَ مَعَ تَجْوِيزِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ مَعَ وجود الْكَذِب مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَطْلَقَ عَلَيْهِ ذَلِكَ لِكَوْنِهِ بِصُورَةِ الْكَذِبِ عِنْدَ السَّامِعِ ، وَعَلَىٰ تَقْدِيرِهِ فَلَمْ يَصْدُرْ ذَلِكَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْنِي إِطْلَاقَ الْكَذِبِ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا فِي حَالِ شِدَّةِ الْخَوْفِ لِعُلُوِّ مَقَامِهِ ، وَإِلَّا فَالْكَذِبُ الْمَحْضُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ يَجُوزُ ، وَقَدْ يَجِبُ لِتَحَمُّلِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ دَفْعًا لِأَعْظَمِهِمَا . وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِيَّاهَا كَذَبَاتٍ ، فَلَا يُرِيدُ أَنَّهَا تُذَمُّ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا مُخِلًّا لَكِنَّهُ قَدْ يَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ ، وَهَذَا مِنْهَا" .

﴿**سُؤالٌ**﴾ : ....**يوسف**

الجواب : قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد" (٥/ ٥٤-٥٥) : " وأمَّا الشُّبهة في قصَّة يوسف من جهة يعقوب عليهما السَّلام الإفراط في المحبَّة ، والحزن ، والبكاء .

والجواب : أنَّه لا معصية في ميل النَّفس سيَّما إلىٰ من يلوح عيه آثار الخير والصَّلاح ، وأنواع الكمال ، ولا في بثِّ الشَّكوىٰ والحزن إلىٰ الله تعالىٰ في مصائب يكون من جهة العباد ، سيَّما وقد قيل : إنَّه كان من خوف أن يموت يوسف عليه السَّلام علىٰ غير دين الإسلام . ومن جهة الإخوة ما فعلوا بيوسف ، وما قالوا من الكذب

والجواب : أنَّهم لم يكونوا أنبياء . ومن جهة يوسف الهمّ المشار إليه بقوله تعالىٰ : ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها**﴾ [يوسف:٢٤] ، ﴿**جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ**﴾ [يوسف:٧٠] ، والرِّضاء بسجود إخوته وأبويه له .

والجواب : أنَّ ذلك قبل البعثة ، أو المراد ﴿وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤] ، على أن يكون الجواب المحذوف ما دلَّ عليه الكلام السَّابق ، ويكون التَّقدير : لولا أن رأى برهان ربِّه لخالطها ، أو المراد الميلان المذكور في الطَّبيعة البشريَّة ، لا الهمّ بالمعصية والقصد إليها ، أو هو من باب المشارفة ، أي : شارف أن يهمّ بها . وبالجملة فلا دلالة ههنا على العزم والقصد إلى المعصية فضلا عمَّا يذكره الحشويَّة من الحشويَّات . ولهذا ورد في هذا المقام من الثَّناء على يوسف ما ورد من غير أن تقع عليه زلَّة أو يذكر له استغفار وتوبة .

وأمَّا جعل السِّقاية في رحل أخيه ، فقد كان بإذنه ورضاه ، بل بإذن الله تعالى . ونسبة السَّرقة إلى الإخوة تورية عمَّا كانوا فعلوا يوسف ممَّا يجري مجرى السَّرقة أو هو قول المؤذِّن . والسَّجدة كانت عندهم تحيَّة وتكرمة كالقيام والمصافحة ، أو كانت مجرَّد انحناء وتواضع لا وضع جبهة " .

﴿سُؤالٌ﴾ : موسى ....

الجواب :

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد" (٥/ ٥٥-٥٦) : " وأمَّا في قصَّة موسى فقتل القبطي وتوبته عنه ، واعترافه لكونه من عمل الشَّيطان محمول على أنَّه كان خطأ ، وقبل البعثة ، وإذنه للسَّحرة في إظهار السِّحر بقوله : **﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾** [يونس:٨٠] .

ليس رضاء به بل الغرض إظهار إبطاله ، أو إظهار معجزته ، ولا يتمُّ إلَّا به ، وقيل : لم يكن حراماً حينئذ ، وإلقاء الألواح كان عن دهشة وتحيُّر لشَّدة غضبه ، والأخذ برأس هارون وجرِّه إليه لم يكن على سبيل الإيذاء ، بل كان يدنيه إلى نفسه ليتفحَّص منه حقيقة الحال ، فخاف هارون أن يحمله بنو إسرائيل على الإيذا ء ، ويفضي إلى شماتة الأعداء ، فلم يثبت بذلك ذنب له ، ولا لهارون ، فإنَّه كان ينهاهم عن عبادة العجل ، وقوله للخضر : **﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾** [الكهف:٧٤] ، أي : عجباً وما فعله الخضر كان بإذن الله تعالى " .

﴿سُؤالٌ﴾ : ....داود

الجواب : قال تعالى : **﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ * قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ**

إلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ * فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٢١-٢٥] .

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد"(٥/٥٦) : " وأمَّا في قصَّة داود عليه السَّلام فلم يثبت سوىٰ أنَّه خطب امرأة كان خطبها أوريا فزوَّجها أولياؤها داود دون أوريا ، أو سأل أن ينزل عنها فيطلِّقها ، وكان ذلك عادة في عهده ، فكان زلَّة منه لاستغنائه بتسعة وتسعين ، والخصمان كانا ملكين أرسلهما الله تعالىٰ إليه لينبِّهاه ، فلمَّا تنبَّه ، استغفر ربَّه وخرَّ راكعا وأناب . وسياق الآيات يدلُّ علىٰ كرامته عند الله تعالىٰ ، ونزاهته عمَّا ينسبه إليه الحشويَّة ، إلَّا أنَّه بالغ في التَّضرُّع والتَّحزُّن والبكاء والاستغفار استعظاماً للزَّلَّة بالنَّظر إلىٰ ما له من رفيع المنزلة ، وتقرير الملكين تمثيل وتصوير للقصَّة ، لا إخبار بمضمون الكلام ، ليلزم الكذب ، ويحتاج إلىٰ ما قيل أنَّ المتخاصمين كانا لصَّين دخلا عليه للسَّرقة، فلمَّا رآهما اخترعا الدَّعوىٰ ، أو كانا راعييْ غنم ظلمَ أحدُهما الآخر ، والكلام علىٰ حقيقته " .

﴿سُؤالٌ﴾ : ....سليمان

الجواب : قال تعالىٰ : **﴿وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ * فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ * رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ﴾** [ص:٣٠-٣٤] .

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد"(٥/٥٦-٥٧) : " وأمَّا في قصة سليمان فأمور ، أحدها : ما أُشير إليه بقوله : **﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ﴾** الخ .

وذلك أنَّه اشتغل باستعراض الأفراس حتىٰ غربت الشَّمس ، وغفل عن العصر ، أو عن ورد كان له وقت العشي ، فاغتمَّ لذلك ، واستردَّ الأفراس فعقرها .

والجواب : أنَّ ذلك كان علىٰ سبيل السَّهو والنِّسيان ، وعقر الجياد ، وضرب أعناقها كان لإظهار النَّدم ، وقصد التَّقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ ، والتَّصدُّق علىٰ الفقراء من أحب ماله ، علىٰ أنَّ من المفسِّرين من قال : المراد حبّه للجهاد وإعلاء كلمة الله. وضمير **﴿تَوارَتْ﴾** للجياد لا للشَّمس ، وإنَّما طفق مسحاً بالسُّوق والأعناق تشريفاً لها ، أو امتحاناً ، أو إظهاراً لإصلاح آلة الجهاد بنفسه .

وثانيها : ما أشير إليه بقوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص٣٤] الآية ،

فإن كان ذلك ما روي أنَّه ولد له ابن ، فكان يغذوه في السَّحابة خوفاً من أن تقتله الشَّياطين أو تخبله ، ممَّا دعاه إلىٰ أن ألقىٰ علىٰ كرسيِّه ميتاً ، فتنبَّه لخطئه في ترك التَّوكُّل ، فاستغفر وأناب . فهذا ممَّا لا بأس به ، وغايته ترك الأولىٰ ، وليس في التَّحفُّظ ومباشرة الأسباب ترك الامتثال لأمر التَّوكُّل علىٰ ما قال عليه السَّلام : " اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ " أخرجه ابن حبَّان في الصَّحيح (٢/ ٥١٠ برقم ٧٣١) ، قال الأرنؤوط : " حديث حسن " .

وكذا ما روي أنَّه قال : " لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ" أخرجه البخاري (٤/ ١٦٢ برقم ٣٤٢٤) ، ولم يقل : إنشاء الله ، فلم تحمل إلَّا امرأة واحدة ، جاءت بشِّق ولد ، له عين واحدة ، ويد واحدة ورِجل واحدة ، فألقته القابلة علىٰ كرسيِّه .

وأمَّا ما روي عن حديث الخاتم والشَّيطان ، وعبادة الوثن في بيته ، وجلوس الشَّيطان علىٰ كرسيِّه ،فعلىٰ تقدير صحَّته يجوز أن يكون اتِّخاذ التَّماثيل غير محرَّم في شريعته ، وعبادة التَّماثيل في بيته غير معلوم له .

وثالثها : ما يشعر به قوله تعالىٰ : ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص٣٥] من الحسد ، وعدم إرادة الخير للغير .

والجواب : أنَّ ذلك لم يكن حسداً ، بل طلباً للمعجزة علىٰ وفق ما غلب في زمانه ، ولاق بحاله ، فإنَّهم كانوا يفتخرون في ذلك العهد بالملك والجاه ، وهو كان ناشئاً في بيت الملك والنُّبوَّة ، ووارثاً لهما ، أو إظهاراً لإمكان طاعة الله وعبادته مع هذا الملك العظيم . وقيل : أراد مُلكاً لا يورث منِّي ، وهو مُلك الدِّين ، لا الدُّنيا ، أو مُلكاً لا أُسلبه ، ولا يقوم فيه غيري مقامي ، كما وقع ذلك مرَّة . وقيل : مُلكاً خفيَّاً لا ينبغي للنَّاس ، وهي القناعة . وقيل : كان مُلكه عظيماً فخاف أن لا يقوم غيره بشكره ، ولا يحافظ فيه علىٰ حدود الله " .

﴿سُؤالٌ﴾ : ....يونس

الجواب : قال تعالىٰ : **﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنبياء:٨٧-٨٨] .

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد"(٥/ ٥٨) : " وأمَّا في قصَّة يونس ممَّا يُشعر به قوله تعالىٰ : **﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾** .

فالجواب : أنَّ المغاضبة علىٰ الكفَّار المعاندين ، لا علىٰ الله تعالىٰ . ومعنىٰ : **﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ﴾** : لن نضيِّق عليه ، كما في قوله تعالىٰ : **﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾** [الفجر:١٦] فلا يوجب شكَّاً في القدرة ، ومعنىٰ الظُّلم في قوله : **﴿إِنِّي**

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ : ترك الأفضل وهو الصَّبر ، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ : **﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾** [القلم:٤٨] ، أي : في ترك الصَّبر علىٰ معاندة الكفَّار " .

﴿سُؤالٌ﴾ : ....محمد

الجواب :

قال الإمام التَّفتازاني في " شرح المقاصد"(٥/٥٨-٦٠) : " وأمَّا في حقِّ نبيِّنا ، فمثل : **﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [محمد:١٩] و **﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾** [التوبة:١١٧] و **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾** [الفتح:٢] ، محمول علىٰ ما فرط منه من الزلَّة وترك الأفضل ، وقوله تعالىٰ : **﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى﴾** [الضحىٰ:٧] ، معناه : فقدان الشَّرائع والأحكام ، وقيل : أنَّه ضلَّ في صباه في بعض شِعاب مكَّة ، فردَّه أبو جهل إلىٰ عبدالمطلب ، وقيل : ضلَّ في طريق الشَّام حين خرج به أبو طالب . وبالجملة لا دلالة علىٰ العصيان ، والميل عن طريق الحقِّ ، ولذا قال : **﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى﴾** [النجم:٢] ، وقوله : **﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾** [الشرح:٢] .

ثمَّ لَمَّا كان يثقل عليه ، ويغمّه من فرطاته قبل النُّبوَّة ، أو من جهله بالشَّرائع والأحكام ، أو من تهالكه علىٰ إسلام أُولي العناد وتلهُّفه .

وقوله : **﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾** [التوبة:٤٣] ، تلطُّفٌ في الخطاب ، وعتاب علىٰ ترك الأفضل ، وإرشاد إلىٰ الاحتياط في تدبير الخيرات ،

قوله : **﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾** [الأنفال:٦٧-٦٨] ، عتاب علىٰ ترك الأفضل ، وهو أن لا يرضى باختيار الصَّحابة الفداء .

وكذا الكلام في قوله : **﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾** [التحريم:١] ، وقوله تعالىٰ : **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى﴾** [عبس:١-٢] .

وما روي أنَّه قرأ بعد قوله : **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى﴾** [النجم:١٩-٢٠] ، (تلك الغرانيق العلىٰ وإنَّ شفاعتها لترتجىٰ) ، فلمَّا أخبره جبرئيل بها وقع منه حزن وخاف خوفاً شديداً ، فنزل قوله تعالىٰ : **﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾** [الحج:٥٢] ، تسلية له ، فالجواب أنَّه كان من إلقاء الشَّيطان لا تعمُّداً منه ، وقيل : بل الغرانيق هي الملائكة ، وكان هذا قرآناً ،

فنسخ ، وقيل : معنىٰ تمنِّي النَّبي حديث النَّفس ، وكان الشَّيطان يوسوس إليه غير الهدىٰ ، فينسخ الله وساوسه من نفسه ، ويهديه إلىٰ الصَّواب .

وقوله : **﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾** [الأحزاب:٣٧] ، عتاب علىٰ أنَّه أخفىٰ في نفسه عزيمة تزوُّج زينب عند تطليق زيد إيَّاها خوفاً من طعن المنافقين ، ولا خفاء في أنَّ إخفاء أمر دنيوي خوفاً من طعن أعداء الدِّين ليس من الصَّغائر ، فضلاً عن الكبائر ، بل غايته زلَّة وترك الأولىٰ ، وكذا ميلان القلب لزينب .

وأمَّا مثل قوله : **﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾** [الأحزاب:١] ، **﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾** [الأنعام:٥٢] ، **﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾** [البقرة:١٤٧] ، **﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾** [الزمر:٦٥] ، **﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ﴾** [يونس:٩٤] .

والجواب : أنَّ الأمر لا يقتضي سابقة تركه ، ولا النَّهي سابقة فعله ، ولا الشَّرط وقوع مضمونه ، وبالجملة فمسألة جواز الصَّغيرة عمداً علىٰ الأنبياء في معرض الاجتهاد لا قاطع فيها ، لا نفياً ولا إثباتاً .

فإن قيل : ما بال زلَّة الأنبياء حكيت بحيث تقرأ بأعلىٰ الصَّوت علىٰ وجه الزَّمان ، مع أنَّ الله غفَّار ستَّار ، وقد أمرنا بالسَّتر علىٰ من ارتكب ذنباً ؟

قلنا : ليدلّ علىٰ صدق الأنبياء ، وكون ما يبلِّغون السَّيِّئ بأمر من الله من غير إخفاء لشيء ، أو ليكون امتحاناً للأمم كيف يفعلون بأنبيائهم بعد الاطِّلاع علىٰ زلَّاتهم ، وليعلموا أنَّ الأنبياء مع جلالة قدرهم ، وكثرة طاعاتهم ، كيف التجأوا إلىٰ التَّضرُّع والاستغفار في أدنىٰ زلَّة ، وأنَّ الصَّغيرة ليست ممَّا يقدح في الولاية والإيمان البتَّة ، أو تقع مكفّرة لا محالة ، بحيث لا عتاب عليها ولا عقاب" .

تمهيد: في بركة النبي ﷺ:

من فضل الله تعالىٰ علىٰ سيدنا رسول الله ﷺ أنه جعله أفضل أنبيائه ورسله، عليهم الصلاة والسلام، فهو سيد ولد أدم كما قال: "أنا سيد ولد أدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشّفع". أخرجه مسلم ص ٩٣٥ برقم ٢٢٧٨ كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ علىٰ جميع الخلائق.

قال الإمام النووي: "وأما قوله ﷺ "يوم القيامة" مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة، فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد، ولا يبقىٰ منازع ولا معاند ونحوه، بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين". صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٧.

ولرسولنا الكريم [illegible] فضائل عظيمة، ومزايا كريمة، خصّه الله تعالى بها، وشرّفه بها، ويكفيه في ذلك أن يصفه ربه بقوله: ([illegible]) (القلم: ٤).

فلرسول الله [illegible] فضائل عديدة ذكرها أصحاب السير، والدلائل، وغيرها...

ومن فضائله عليه الصلاة والسلام: بركاته الكثيرة ... ومنها:

أولاً: البركات المعنوية:

ونعني بها تلك البركات التي أفاض بها المولى تعالى على أتباعه في الدنيا والآخرة، ومن أهمها بعد الهداية إلى سبيل الرشاد التي جلبت لهم سعادة الدارين:

أ- أن أمته جعلت خير الأمم، كما قال الله تعالى: ([illegible]) (آل عمران / ١١٠)، وهذا كله ببركته [illegible].

ب- رفع الحرج والمشقة في التكاليف عن هذه الأمة ببركة رسول الله [illegible]، قال تعالى: ([illegible]) (الحج: ٧٨) وهذا أيضا ببركة الرسول [illegible].

ج- أن أمته في الآخرة خير الأمم: فهم أول الناس دخولا الجنة، كما قال عليه الصلاة والسلام: " نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة.....". أخرجه البخاري ص ٦٨ برقم ٢٣٨، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، مسلم ص ٣٣١ برقم ٨٥٥ كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة.

وجاء في رواية أخرى" نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة..." .أخرجه مسلم ص ٣٣١ برقم ٨٥٥، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة .

وهم نصف أهل الجنة، كما قال [illegible] فيما رواه عبد الله بن مسعود مرفوعاً: " أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة، قال: قلنا: نعم، فقال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فقلنا: نعم، فقال: والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر". أخرجه البخاري ص ١٢٥٠ برقم ٦٥٢٨، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، مسلم ص ١١٧ برقم ٢٢١، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، واللفظ له.

وبناء عليه، فنحن الآن وبحمد الله تعالى، في بركة رسول الله [illegible]، وقد سئل الإمام ابن تيمية عن قول القائل: نحن في بركة فلان: أو من وقت حلوله عندنا حلّت البركة، فقال: "هذا كلام صحيح باعتبار، باطل

باعتبار، فأما الصحيح: فأن يراد به أنه هدانا وعلَّمنا وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، فببركة اتباعه وطاعته حصل لنا من الخير ما حصل، فهذا كلام صحيح. كما كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبي ﷺ في بركته لما آمنوا به، وأطاعوه، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله .

وأيضا: إذا أريد بذلك أنه ببركته ودعائه وصلاحه دفع الله الشر وحصل لنا رزق ونصر فهذا حق. كما قال النبي ﷺ: وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم، بدعائهم، وصلاتهم، وإخلاصهم.أخرجه البخاري ص٥٥٧ برقم ٢٨٩٦، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

وقد يدفع العذاب عن الكفار والفجار لئلا يصيب من بينهم المؤمنين ممن لا يستحق العذاب، ومنه قوله تعالى: ( ) (الفتح: ٢٥).

فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهراني الكفار عذب الله الكفار. وكذلك قال النبي ﷺ: "لولا ما في البيوت من النساء والذراري لأمرت بالصلاة فتقام، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فأحرق عليهم بيوتهم". أخرجه بغير هذا اللفظ: البخاري ص٤٥٤ برقم ٢٤٢٠،كتاب الخصومات،باب إخراج أهل المعاصي والخصوم من البيوت بعد المعرفة، مسلم ص٢٥٦برقم ٦٥١،كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجمعة، أحمد، ص٥٨١ برقم ٨١٣٤، الترمذي ص٥٦ برقم ٢١٧، أبو داود ص٨١ برقم ٥٤٩، ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٣٦٩ برقم ١٤٨١.

وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها، وقد قال المسيح عليه السلام: () (مريم: ٣١)، فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله، وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة، ويدفع من العذاب بسببهم حق موجود ممن أراد بالبركة هذا وكان صادقاً، فقوله حق.

وأما المعنى الباطل، فمثل أن يريد الإشراك بالخلق: مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهم لأجله، وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله، فهذا جهل. فقد كان الرسول ﷺ سيد ولد آدم مدفون بالمدينة عام الحرة، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب مالا يعلمه إلا الله، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين كانوا أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم، لأن الخلفاء الراشدين كانوا يدعونهم إلى ذلك، وكان ببركة طاعتهم للخلفاء الراشدين، وبركة عمل الخلفاء

معهم ينصرهم الله ويؤيدهم، وكذلك الخليل مدفون بالشام، وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريباً من مائة سنة، وكان أهلها في شر، فمن ظن أن الميت يدفع عن الحي مع كون الحي عاملاً بمعصية الله فهو غالط.

وكذلك إذا ظن أن بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعة الله ورسوله، مثل أن يظن أن بركة السجود لغيره، وتقبيل الأرض عنده، ونحو ذلك يحصل له السعادة، وإن لم يعمل بطاعة الله ورسوله، وكذلك إذا اعتقد أن ذلك الشخص يشفع له ويدخله الجنة بمجرد محبته، وانتسابه إليه، فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسنة، فهو من أحوال المشركين، وأهل البدع، وباطل لا يجوز اعتقاده، ولا اعتماده، والله سبحانه وتعالى أعلم(مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ١١٣-١١٥.

ثانياً: البركات الحسيّة:

قسّم العلماء بركته الحسيّة إلى قسمين: بركة في أقواله وأفعاله ، وبركة في ذاته وآثاره .

أمَّا عن البركة في أقواله وأفعاله ، فالأمثلة عليها كثيرة جداً ، ذكرتها كتب الصِّحاح والسُّنن، ومن ذلك:

أَوَّلاً : بركته في طعام أبي طلحة :

روى البخاري (٤/ ١٩٣ برقم ٣٥٧٨) ، مسلم (٣/ ١٦١٢ برقم ٢٠٤٠) بسندهما عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعِيفًا، أَعْرِفُ فِيهِ الجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي وَلاَثَتْنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَسْجِدِ، وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ» فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «بِطَعَامٍ» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ مَعَهُ: «قُومُوا» فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ؟ فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا عِنْدَكِ» فَأَتَتْ بِذَلِكَ الخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ

خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» [ص:١٩٤] فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَكَلَ القَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا " .

ثَانِيَاً : بركته في تكثير سواد البطن-الكبد -:

روى البخاري (٣/ ١٦٣ برقم ٢٦١٨) ، مسلم (٣/ ١٦٢٦ برقم ٢٠٥٦) بسندهما عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلاَثِينَ وَمِائَةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ؟» ، فَإِذَا مَعَ رَجُلٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ أَوْ نَحْوُهُ، فَعُجِنَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ، مُشْعَانٌّ طَوِيلٌ، بِغَنَمٍ يَسُوقُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بَيْعًا أَمْ عَطِيَّةً، أَوْ قَالَ: أَمْ هِبَةً؟ "، قَالَ: لاَ بَلْ بَيْعٌ، فَاشْتَرَى مِنْهُ شَاةً، فَصُنِعَتْ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَوَادِ البَطْنِ أَنْ يُشْوَى، وَايْمُ اللَّهِ، مَا فِي الثَّلاَثِينَ وَالمِائَةِ إِلَّا قَدْ حَزَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ حُزَّةً مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا، إِنْ كَانَ شَاهِدًا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَإِنْ كَانَ غَائِبًا خَبَأَ لَهُ، فَجَعَلَ مِنْهَا قَصْعَتَيْنِ، فَأَكَلُوا أَجْمَعُونَ وَشَبِعْنَا، فَفَضَلَتِ القَصْعَتَانِ، فَحَمَلْنَاهُ عَلَى البَعِيرِ، أَوْ كَمَا قَالَ .

ثَالِثَاً : بركته في التمر:

روى البخاري (٣/ ٦٧ برقم ٢١٢٧) بسنده عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَاسْتَعَنْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى غُرَمَائِهِ أَنْ يَضَعُوا مِنْ دَيْنِهِ، فَطَلَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذْهَبْ فَصَنِّفْ تَمْرَكَ أَصْنَافًا، العَجْوَةَ عَلَى حِدَةٍ، وَعَذْقَ زَيْدٍ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَيَّ» ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ فَجَلَسَ عَلَى أَعْلاَهُ، أَوْ فِي وَسَطِهِ، ثُمَّ قَالَ: «كِلْ لِلْقَوْمِ» ، فَكِلْتُهُمْ حَتَّى أَوْفَيْتُهُمُ الَّذِي لَهُمْ وَبَقِيَ تَمْرِي كَأَنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ وَقَالَ فِرَاسٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ، حَدَّثَنِي جَابِرٌ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا زَالَ يَكِيلُ لَهُمْ حَتَّى أَدَّاهُ» ، وَقَالَ هِشَامٌ: عَنْ وَهْبٍ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُذَّ لَهُ فَأَوْفِ لَهُ» .

رَابِعَاً : بركته في الماء:

روى البخاري (٧/ ١١٤ برقم ٥٦٣٩) بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، هَذَا الحَدِيثَ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ حَضَرَتِ العَصْرُ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ غَيْرَ فَضْلَةٍ، فَجُعِلَ فِي إِنَاءٍ فَأُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ وَفَرَّجَ أَصَابِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى أَهْلِ الوُضُوءِ، البَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ وَشَرِبُوا، فَجَعَلْتُ لاَ آلُو مَا جَعَلْتُ فِي بَطْنِي مِنْهُ،

فَعَلِمْتُ أَنَّهُ بَرَكَةٌ. قُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ تَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، عَنْ جَابِرٍ، وَقَالَ حُصَيْنٌ، وَعَمْرُو بْنُ مُرَّةَ: عَنْ سَالِمٍ، عَنْ جَابِرٍ: «خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً» وَتَابَعَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ جَابِرٍ.

فهذه نماذج أربعة على البركة الحسيَّة في أفعاله وأقواله ﷺ، أمَّا عن البركة في ذاته وآثاره ﷺ، فالأمثلة على ذلك كثيرة أيضاً، فقد ثبت أنَّ الصَّحابة رضوان الله عليهم تبرَّكوا بذاته وبآثاره في حياته وبعد انتقاله إلى الرَّفيق الأعلى، وبيان ذلك في جواب الأسئلة التَّالية :

سُؤالٌ : مَا مَعْنَى التَّبَرُّك لُغَةً وَاصْطِلَاحَاً ؟

الجواب : التَّبرك مصدر تبرَّك يتبرَّك تبرُّكاً، وهو طلب البركة، والتَّبرك مأخوذ من البركة، ومادَّتها الزِّيادة والنَّماء...قال ابن فارس في " معجم مقاييس اللغة" (١/ ٢٣٠): " قال الخليل: البركة من الزِّيادة والنَّماء، والتَّبريك: أن تدعو بالبركة" .

فالتَّبرُّك هو طلب الزِّيادة والنَّماء من المتبرَّك به، تقول تبرَّكت به، أي: تيمَّنت به.انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١٣١) ، لسان العرب (١/ ٢٠٠) ، مفردات القرآن (ص٤١) ، بصائر ذوي التمييز (٢/ ٢٠٩) .

فمن عظَّم نبيَّاً أو وليَّاً أو صالحاً، وتبرَّك به أُثيب على تبرُّكه ذلك، لأنَّ الدَّافع لتعظيمه لهؤلاء هو قُرب منزلتهم من الله تعالى.

ومن عظَّم الحجر الأسود بتقبيله واستلمه وتبرَّك به، وكذا من عظَّم مقام إبراهيم عليه السَّلام وصلَّى فيه تبرُّكاً به كان مُثاباً على ذلك، لأنَّ الدافع لذلك هو الاستجابة للأمر والاتِّباع.

فالتَّبرُّك ليس إلَّا توسُّلاً إلى الله سبحانه وتعالى بذلك المتبرَّك به سواء أكان أثراً أو مكاناً أو شخصاً.

أمَّا الأعيان فلاعتقاد فضلها وقُربها من الله سبحانه وتعالى، مع اعتقاد عجزها عن جلب خير أو دفع شرٍّ إلَّا بإذن الله.

وأمَّا الآثار فلأنَّها منسوبة إلى تلك الأعيان ، فهي مشرَّفة بشرفها ، ومكرَّمة ومعظَّمه ومحبوبة لأجلها.

وأمَّا الأمكنة فلا فضل لها لذاتها من حيث هي أمكنة، وإنَّما لما يحلُّ فيها ويقع من خير وبركة، كالصَّلاة ، والصِّيام ، وجميع أنواع العبادات ممَّا يقوم به عباد الله الصَّالحون، إذ تتنزَّل فيها الرَّحمات وتحضرها الملائكة ، وتغشاها السَّكينة، وهذه هي البركة التي تطلب من الله في الأماكن المقصودة لذلك.

وهذه البركة تطلب بالتَّعرُّض لها في أماكنها بالتَّوجه إلى الله تعالى ودعائه واستغفاره، وتذكُّر ما وقع في تلك الأماكن من حوادث عظيمة ، ومناسبات كريمة ، تحرُّك النُّفوس وتبعث فيها الهمَّة والنَّشاط للتَّشبُّه بأهلها أهل الفلاح والصَّلاح. انظر: مفاهيم يجب أن تصحح (ص ٢١٩) .

سُؤالٌ : أُذْكُرْ لَنَا بَعْضَاً مِنْ تَبَرُّكِ الصَّحَابَةِ الكِرَام بِجَسَدِ النَّبيِّ الشَّرِيْفِ صلى الله عليه وسلم ، وَكَذَا بِمَا مَسَّتْهُ يَدُهُ وَقَدَمُهُ وَأَصَابِعُهُ وَفَمُهُ صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب : ثبت في الصِّحاح والسُّنن أنَّ الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم تبرَّكُوا بمسِّ جسده الشَّريف في حياته صلى الله عليه وسلم ، وكذا تبرَّكوا بما مسَّته يده الشَّريفة ، وقدمه ، وأصابعه ، وفمه ، وقد أقرَّهم الرَّسول صلى الله عليه وسلم على ذلك، بل أمرهم وأشار إليهم بذلك.

وبعد انتقاله إلى الرَّفيق الأعلى تبرَّكوا بآثاره من غير نكير فكان إجماعاً ...

سُؤالٌ : تَكَلَّم لَنَا عَنْ تَبَرُّكِ الصَّحَابَةِ الكِرَام بِمَسِّ جِلْدِهِ

الجواب : حرص الصحابة الكرام على مس أي موضع من جسده صلى الله عليه وسلم وتقبيله، من ذلك: ما رواه أبو داوود وغيره عن أسيد بن حضير رجل من الأنصار قال: بينما هو يحدث القوم وكان فيه مزاح بينا يضحكهم فطعنه النبي صلى الله عليه وسلم في خاصرته بعود فقال: أصبرني، فقال: اصطبر، قال: إن عليك قميصاً وليس عليَّ قميص، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم عن قميصه فاحتضنه وجعل يقبّل كشحه – الباطن – قال: إنما أردت هذا يا رسول الله.أخرجه أبو داود، ص٥٦١ برقم ٥٢٢٤، كتاب الأدب، باب في قبله الجسد، الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢٧ برقم ٥٢٦٢، كتاب معرفة الصحابة، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

فهذا الصحابي الجليل كان شديد الحرص على أن يمسَّ جسده جسد الرسول صلى الله عليه وسلم تبركاً به، وقد أقره الرسول على فعله ولم ينكر عليه .....

ثانياً: التبرك بمسِّ يده الشريفة صلى الله عليه وسلم :

روى الشيخان بسندهما عن أبي جحيفة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة إلى البطحاء، فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين صلى الله عليه وسلم ، والعصر ركعتين، وبين يديه عنزة، وزاد فيه عون، عن أبيه، عن أبي جحفية قال: كان يمرَّ من ورائها المرأة، وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم، قال فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك.أخرجه البخاري، ص٦٨١ برقم ٣٥٥٣، كتاب المناقب، باب صفة النبي ، مسلم، ص ٢٠٥ برقم ٥٠٣، كتاب الصلاة، باب سترة المصلي.

وروى أحمد بسنده عن يزيد بن الأسود عن أبيه، قال: حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وفيه: فأخذت بيده فوضعتها إما على وجهي أو صدري، قال: "فما وجدت شيئاً أطيب ولا أبرد من يد رسول الله ﷺ" .أخرجه أحمد، ص ١٢٤٢ برقم ١٧٦١٥.

وجاء في رواية ثانية عند أحمد: " ثم ثار الناس يأخذون بيده يمسحون بها وجوههم. قال: "فأخذت بيده فمسحت بها وجهي فوجدتها أبرد من الثلج وأطيب من المسك". أخرجه أحمد، ص ١٢٤٢ برقم ١٧٦١٧.

وورد في الصحاح أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يرسلون بأوانيهم وفيها الماء فيغمس رسول الله ﷺ يده فيها، يلتمسون بركته ﷺ، من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه بسنده إلى أنس بن مالك ﷺ قال: " كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة، جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها". أخرجه مسلم، ص ٩٥٠ برقم ٢٣٢٤، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به.

قال الإمام النووي: "في هذه الأحاديث ..... صبره ﷺ على المشقة في نفسه لمصلحة المسلمين، وإجابته من سأله حاجة أو تبريكاً بمس يده وإدخالها في الماء كما ذكروا، وفيه التبرك بآثار الصالحين، وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره ﷺ وتبركهم بإدخال يده الكريمة في الآنية ......" .صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٨٢.

ثالثاً التبرك بالأماكن الفاضلة التي صلى فيها النبي ﷺ:

روى البخاري بسنده أن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدراً من الأنصار أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أنكرت بصري وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم. ووددت يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأتخذه مصلى، قال: فقال له رسول الله ﷺ: سأفعل إن شاء الله. قال عتبان: فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله، فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت ثم قال: أين تحب أن أصلي من بيتك ؟ قال: فأشرت إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله ﷺ فكبر، فقمنا فصففنا، فصلى ركعتين ثم سلَّم ...أخرجه البخاري، ص ١٠٣ برقم ٤٢٥، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، مسلم، ص ٢٥٩ برقم ٦٥٧، كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر

فهذا الصحابي الجليل دعا النبي إلىٰ بيته ليصلي فيه وليتبرك بالموضع الذي صلىٰ فيه النبي عليه الصلاة والسلام، وقد أجابه الرسول إلىٰ دعوته ولم ينكر عليه.....

قال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث: "وفيه التبرك بالمواضع التي صلىٰ فيها النبي أو وطئها، ويستفاد منه أن من دعي من الصالحين ليتبرك به أنه يجيب إذا أمن الفتنة". فتح الباري ١/ ٥٢٢.

وقال النووي: وفي حديث عتبان فوائد كثيرة .... ومنها: التبرك بالصالحين وآثارهم، والصلاة في المواضع التي صلوا بها وطلب التبريك منهم.صحيح مسلم بشرح النووي ٥/ ١٦١.

وروىٰ الشيخان بسندهما عن يزيد بن أبي عبيد، قال: كنت آتي مع مسلمة بن الأكوع، فيصلي عند الاسطوانة التي عند المصحف، فقلت: يا أبا مسلم، أراك تتحرىٰ الصلاة عند هذه الأسطوانة؟ قال: فإني رأيت النبي يتحرىٰ الصلاة عندها.أخرجه البخاري، ص١١٦ برقم ٥٠٢، كتاب الصلاة، باب الصلاة إلىٰ الأسطوانة، مسلم ص ٢٠٧ برقم ٥٠٩، كتاب الصلاة، باب دنو المصلي من السترة.

قال النووي: "وفي هذا أنه لا بأس بإدامة الصلاة في موضع واحد إذا كان فيه فضل". صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٢٢٦.

قلت: وهل هناك فضل أعظم من أن يلامس الإنسان بحرِّ وجهه مكانا مَّسه وجه الرسول ، يتبرك بذلك ...؟

قال الحافظ ابن حجر: "والأسطوانة المذكورة حقق لنا بعض مشايخنا أنها المتوسطة في الروضة المكرمة، وأنها تعرف باسطوانة المهاجرين، قال: وروي عن عائشة: أنها كانت تقول: لو عرفها الناس لاضطربوا عليها بالسهام. وأنها أسرَّتها إلىٰ ابن الزبير فكان كثير الصلاة عندها .ثم وجدت ذلك في تاريخ المدينة لابن النجار، وزاد: أن المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها". فتح الباري ١/ ٥٧٧.

قلت ولا يكون الاضطراب عليها والاجتماع عندها من قبل الناس إلا لطلب بركة ذلك الموضع الذي كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يكثر من الصلاة فيه.

وروىٰ الشيخان أيضاً عدداً من الآثار عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يتحَّرىٰ الأماكن التي رأىٰ النبي يصلي فيها فيصلي فيها.انظر تلك الآثار في البخاري، ص١١٣-١١٤ برقم ٤٨٣ فما بعده، مسلم ص٥٣٢ برقم ١٣٤٦، ص٤٩٨ برقم ١٢٥٧، ١٢٥٩، ١٢٦٠.

قال الحافظ ابن حجر: "ومحصل ذلك أن ابن عمر كان يتبرك بتلك الأماكن، وتشدده في الاتباع مشهور، ولا يعارض ذلك ما ثبت عن أبيه أنه رأىٰ الناس في سفر يتبادرون إلىٰ مكان فسأل عن ذلك فقالوا: قد

صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: من عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض، فإنما هلك أهل الكتاب لأنهم تتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً، لأن ذلك من عمر محمول على أنه كره زيارتهم لمثل ذلك بغير صلاة أو خشي أن يشكل ذلك على من لا يعرف حقيقة الأمر فيظنه واجباً، وكلا الأمرين، مأمون من ابن عمر، وقد تقدم حديث عتبان وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم: أن يصلي في بيته ليتخذه مصلى وإجابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، فهو حجة في التبرك بآثار الصالحين". فتح الباري ١/ ٥٦٩.

وروى النسائي بسنده عن عاصم الأحوال عن أبي مجلز أن أبا موسى كان بين مكة والمدينة، فصلى العشاء ركعتين ثم قام فصلى ركعة أوتر بها فقرأ بمائة أية من النساء ثم قال: ما ألوت أن أضع قدمي حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم.أخرجه النسائي ص٢٠١برقم ١٧٢٨، كتاب قيام الليل، باب القراءة في الوتر .

وروى النسائي أيضا بسنده عن أنس بن مالك أن أم سليم سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيها فيصلي في بيتها فتتخذه مصلى ، فأتاها فعمدت إلى حصير فنضحته بماء فصلى عليه وصلوا معه.أخرجه النسائي ص ٩٥ برقم ٧٣٧، كتاب المساجد، باب الصلاة على الحصير.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنها ما دعته للصلاة في بيتها إلا من أجل التبرك بموضع صلاته صلى الله عليه وسلم ومع ذلك أجابها إلى طلبها وأقرها ...

رابعاً: التبرك بما مسَته يده وأصابعه ﷺ:

والتبرك بالمواضع التي مستها يد النبي ﷺ ثابت عن عدد من الصحابة، بل ثبت أن الصحابة كانوا يطلبون منه ﷺ أن يدعو لأبنائهم، فكان يمسح على رؤوسهم ويدعو لهم ﷺ، من ذلك ما أخرجه أحمد، قال حدثنا أبو سعيد موسى بني هاشم، حدثنا ذيّال بن عبيد ابن حنظلة، قال سمعت حنظلة بن حذيم، أن جده حنيفة قال لحذيم: اجمع لي بني فأني أريد أن أوصي فجمعهم .... وفيه: فدنا بي إلى النبي ﷺ فقال: إن لي بنين ذوي لحى ودون ذلك، وأن ذا أصغرهم، فادع الله له، فمسح رأسه وقال: بارك الله فيك أو بورك فيك.

قال ذيّال: فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالانسان الوارم وجهه، أو البهيمة الوارمة الضرع، فيتفل على يديه، ويقول: بسم الله، ويضع يده على رأسه ويقول: على موضع كف رسول الله ﷺ فيمسحه عليه، وقال ذيّال: فيذهب الورم. أخرجه أحمد ص١٤٩٨ برقم ٢٠٩٤١.

ومن شدة حرصهم رضوان الله عليهم على الجزء الممسوح عليه من شعر الرأس كانوا لا يجزونه بل تركوه يسترسل حتى بلغ الأرض، ومن ذلك ما رواه الحاكم بسنده عن صفية بنت مجزأة أن أبا محذورة كانت له قصة في مقدم رأسه إذا قعد أرسلها فتبلغ الأرض فقالوا له: إلا تحلقها؟ فقال: إن رسول الله مسح عليها بيده فلم أكن لأحلقها حتى أموت، فلم يحلقها حتى مات. أخرجه الحاكم ٣/ ٥٨٩ برقم ٦١٨١.

وعن أنس بن مالك قال: كانت لي ذؤابة، فقالت لي أمي: لا أجزها كان رسول الله يمدّها ويأخذها.أخرجه أبو داود ص ٤٥٧ برقم ٤١٩٦، كتاب الترجل، باب ما جاء في الرخصة.

قال الذهبي: "وقد كان ثابت البنائي إذا رأى أنس بن مالك أخذ يده فقبلها، ويقول: يد مسّت يد رسول الله ، فنقول نحن إذ فاتنا ذلك: حجر معظم بمنزلة يمين الله في الأرض مسّته شفتا نبينا لاثماً له، فإذا فاتك الحج وتلقيت الوفد فالتزم الحاج وقبِّل فمه، وقل: فم مس بالتقبيل حجراً قبَّله خليلي. سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٣.

وروى مسلم بسنده عن أبي أيوب إن النبي نزل عليه .....فكان يصنع للنبي طعاماً، فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه، ...أخرجه مسلم ص٨٥٠ برقم ٢٠٥٣، كتاب الأشربة، باب إباحة أكل الثوم ...

قال الإمام النووي: قوله: فكان يصنع للنبي طعاماً، فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابعه يعني: إذا بعث إليه فأكل من حاجته ثم رد الفضلة أكل أبو أيوب من موضع أصابع النبي تبركاً، ففيه التبرك بآثار أهل الخير في الطعام وغيره.صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ١١.

خامسا: التبرك بالموضع الذي لامسه فم النبي :

روى أحمد بسنده عن أنس بن مالك إن النبي دخل على أم سليم وفي البيت قربة معلَّقة، فشرب ما فيها وهو قائم، قال: فقطعت أم سليم فم القربة فهو عندنا.أخرجه النسائي ص ٩٥ برقم ٧٣٧، كتاب قيام الليل، باب القراءة في الوتر.

فأم سليم رضي الله عنها ما قطعت فم القربة إلا لأنه لامسه فم النبي ،.وكان منها ذلك الفعل للاحتفاظ بذلك الجزء المقطوع للتبرك بأثره.   أخرجه أحمد، ص٨٣٩ برقم ١٢٢١١.

المبحث الثالث

التبرك بما انفصل من جسده وعن أعضائه :

أولا: التبرك بشعره :

ثبت في الصحاح أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يتبركون بشعره في حياته ، وأن النبي أقرّهم على ذلك ...

فعن أنس بن مالك أن رسول الله لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره.أخرجه البخاري ص٥٨ برقم ١٧١ ،كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، مسلم ص٥١٤ برقم ١٣٠٥، كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق والابتداء في الحلق بالجانب الأيمن من رأس المحلوق.

قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على الحديث: وفيه التبرك بشعره وجواز اقتنائه.فتح الباري ١/ ٢٧٤.

وقال الإمام النووي وهو يعدد فوائد الحديث: "ومنها التبرك بشعره وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون أشد الحرص على اقتناء شعره ، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، قال: "لقد رأيت رسول الله والحلاق يحلق، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل.أخرجه مسلم ص٩٥٠ برقم ٢٣٢٥، كتاب الفضائل، باب قرب النبي من الناس وتبركهم به.

قال الإمام النووي معلقاً عليه: "وفيه التبرك بآثار الصالحين، وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره ، وتبركهم بشعره الكريم، وإكرامهم إياه أن يقع شيء منه إلا في يد رجل سبق إليه.صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٨٢.

وروى الإمام أحمد بسنده عن محمد بن سيرين عن أنس، قال: لما حلق رسول الله رأسه بمنى أخذ شق رأسه الأيمن، فلما فرغ ناولني، فقال يا أنس انطلق بهذا إلى أم سليم، فلما رأى الناس ما خصَّها به من ذلك تنافسوا في الشق الآخر، هذا يأخذ الشيء، وهذا يأخذ الشيء، قال محمد ابن سيرين: فحدثته عبيدة السلماني فقال: لأن تكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء أصبحت على وجه الأرض وفي بطنها.

أخرجه أحمد، ص ٩٤٠ رقم ١٣٧٢٠.

قال الإمام الذهبي معلقاً على هذا الأثر: "قلت: هذا القول من عبيدة هو معيار كمال الحب، وهو أن يوثر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس، ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسناد ثابت، أو شسع نعل كان له، أو قلامة ظفر، أو شقفة من إناء شرب فيه، فلو بذل الغني معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده، أكنت تعده مبذراً أو سفيهاً؟ كلا فابذل مالك في زورة مسجده الذي بني فيه بيده والسلام عليه عند حجرته في بلده، والتذّ

بالنظر إلى (أُحُده) وأحبه، فقد كان نبيك ﷺ يحبه، وتملّأ بالحلول في روضته ومقعده، فلن تكون مؤمنا حتى يكون هذا السيد أحب إليك من نفسك وولدك وأموالك والناس.

وقبّل حجراً مكرماً نزل من الجنة، وضع فمك لاثماً مكاناً قبّله سيد البشر بيقين، فهنأك بما أعطاك، فما فوق ذلك مفخر، ولو ظفرنا بالمحجن الذي أشار به الرسول ﷺ إلى الحجر ثم قبّل محجنه، لَحُقَّ لنا أن نزدحم على ذلك المحجن بالتقبيل والتبجيل، ونحن ندري بالضرورة أن تقبيل الحجر أرفع وأفضل من تقبيل محجنه ونعله". سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٢.

وعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ آتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق: خذ، وأشار إلى جبينه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس.أخرجه مسلم ص٥١٤ برقم ١٢٠٥، كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق.

وورد في الصحيح أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا إذا ما حَزَبهُم أمر تبركوا بشعره ﷺ، فكانوا يجعلون شعره في قدح من ماء ثم يشربونه فيشفون بإذن الله تعالى...

فقد روى البخاري بسنده عن إسرائيل، عن عثمان بن عبد الله بن وهب، قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدح من ماء فيه، وقبض إسرائيل ثلاث أصابع، من قصة، فيه شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة، فاطلعت في الجلجل، فرأيت شعرات حمراً.أخرجه البخاري، ص١١٤٩ برقم ٥٨٩٦، كتاب اللباس، باب ما يذكر في الشيب.

قال الكرماني: "كان عند أم سلمة شعرات من شعر النبي ﷺ حمر في شيء مثل الجلجل، وكان الناس عند مرضهم يتبركون بها ويستشفون من بركتها، فتارة يجعلونها في قدح من الماء، فيشربون الماء الذي هي فيه، وتارة يجعلونها في إجانة من الماء فيجلسون في الماء الذي فيه تلك الجلجلة التي فيها الشعر، وكان لأهل عثمان إجانة كبيرة لائقة بالجلوس فيها، فكان يبعث بها إليها عند الحاجة إليها.البخاري بشرح الكرماني ٢١/ ١١٣.

وقال الحافظ ابن حجر: "والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه، وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل به استشفاء بها، فتحصل له بركتها". فتح الباري ١٠/ ٣٥٣،وانظر لامع الدراري ١٠/ ٤-٦.

والروايات في حرص الصحابة والتابعين على اقتناء شعره ﷺ والتبرك به كثيرة، من ذلك ما رواه الحاكم وغيره بسندهم عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك، فقال:

اطلبوها فلم يجدوها ثم طلبوها فوجدوها، وإذا هي قلنسوة خلقة، فقال خالد: اعتمر رسول الله فحلق رأسه، وابتدر الناس جوانب شعره، فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رزقت النصر.أخرجه الحاكم ٣/ ٣٣٨ برقم ٥٢٩٩، أبو يعلي في مسنده برقم ٧١٤٧، وذكره الهيثمي في المجمع ٩/ ٤٣٠ برقم ١٥٨٨٢، وقال: رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه، ورجالهما رجال الصحيح، وجعفر سمع من جماعة من الصحابة، فلا أدري سمع من خالد أم لا، وانظر الشفا للقاضي عياض ٢/ ٦٣٧.

وعن ابن عباس ، قال لما احتضر معاوية، قال: إني كنت مع رسول الله على الصفا، وإني دعوت بمشقص، فأخذت من شعره، وهو في موضع كذا وكذا، فإذا أنا مت فخذوا ذلك الشعر، فاحشوا به فمي ومنخري.سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥٨.

وروى ابن الجوزي بسنده عن عبد الله بن أحمد، قال: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي فيضعها على فيه ويقبلها، وأحسب أنني رأيته يضعها على عينيه، ويغمسها في الماء ثم يشربه يستشفى به، ورأيته قد أخذ قصعة النبي فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها، ورأيته غير مرة يشرب ماء زمزم يستشفى به ويمسح به بدنه ووجهه.مناقب الإمام أحمد ص١٨٧، سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٢.

وقال الإمام الذهبي: "قال الخلاَّل: أخبرني عصمة بن عصام، حدثنا حنبل، قال: أعطى بعض ولد الفضل بن الربيع أبا عبد الله، وهو في الحبس ثلاث شعرات، فقال: هذه من شعر النبي ، فأوصى أبو عبد الله عند موته أن يجعل على كل عين شعرة، وشعرة على لسانه، ففعل ذلك به عند موته.سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٣٧.

وفي ترجمته للإمام البخاري نقل الإمام الذهبي عن محمد الوراق، قال: دخل أبو عبد الله بِفِرَبْر الحمّام، وكنت أنا في مَشْلَح الحمام، أتعاهد عليه ثيابه، فلما خرج ناولته ثيابه، فلبسها، ثم ناولته الخف، فقال: مَسَسْتَ شيئاً فيه شعر النبي ، فقُلت: في أي موضع هو في الخف؟ فلم يخبرني، فتوهمت أنه في ساقه بين الظِّهارة والبطانة. سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٣.

ثانياً: التبرك بريق النبي :

روى الشيخان بسندهما عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا متمٌّ، فأتيت المدينة فنزلت قباء فولدت بقباء، ثم أتيت رسول الله فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فمه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له

فبرَّك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحاً شديداً، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم. أخرجه البخاري، ص١٠٧٩ برقم ٥٤٦٩، كتاب العقيقة، باب تسمية المولود، واللفظ له، مسلم، ص٨٨٦ برقم ٢١٤٦، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته.

قال النووي: "وفي هذا الحديث فوائد ... ومنها: التبرك بآثار الصالحين وريقهم وكل شيء منهم". صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ١٢٤.

وعن أنس ابن مالك ، قال: كان ابن طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني، قالت أم سُليم: هو أسكن ما كان، فقرّبت إليه العشاء فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله فأخبره، فقال: "أعرستم الليلة" قال: نعم، قال: اللهم بارك لهما" فولدت غلاماً، قال لي أبو طلحة: احفظه حتى تأتي به النبي ، فأتى النبي وأرسلت معه بتمرات، فأخذه النبي فقال: "أمعه شيء" قالوا: نعم، تمرات، فأخذها النبي فمضغها، ثم أخذ من فيه فجعلها في فيّ الصبي وحنّكه بها، وسماه عبد الله". أخرجه البخاري، ص١٠٧٩ برقم ٥٤٦٩، كتاب العقيقة، باب تسمية المولود، واللفظ له، مسلم، ص٨٨٦ برقم ٢١٤٤، كتاب الآداب، باب استحباب وتحنيك المولود عند ولادته.

وعن مالك بن حمزة بن أبي أسيد الساعدي الخزرجي عن أبيه عن جده أبي أسيد وله بئر بالمدينة يقال لها: بئر بضاعة، قد بصق فيها النبي فهو يشربها ويتيمن بها.أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٢٦٣.

ثالثاً: التبرك بنخامة النبي :

روى البخاري في قصة الحديبية حديثاً طويلاً، وفيه كلام عروة بن مسعود مع رسول الله ، وفيه: إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي بعينيه، قال: فو الله ما تنخَّم رسول نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحّدون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله أن تنخَّم نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم

عنده، وما يحدُّون إليه النظر تعظيما له.أخرجه الباري، ص٥٢٣ برقم ٢٧٣٢، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد..

قال الحافظ ابن حجر معلقاً على الحديث: "وفيه طهارة النخامة والشعر المنفصل، والتبرُّك بفضلات الصالحين الطاهرة.فتح الباري ٥/ ٣٤١.

رابعاً: التبرك بدم النبي :

روى الحاكم بسنده عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن أباه حدَّثه أنه أتى النبي وهو يحتجم، فلما فرغ قال: "يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد "فلما برزت عن رسول الله عمدت إلى الدم فحسوته، فلما رجعت إلى النبي قال:" ما صنعت يا عبد الله؟" قال جعلته في مكان ظننت أنه خاف على الناس، قال: "فلعلك شربته؟ "قلت: نعم، قال "ومن أمرك أن تشرب الدم ويل لك من الناس وويل للناس منك". أخرجه الحاكم ٣/ ٦٣٨ برقم ٦٣٤٣. وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٤٥ برقم ١٤٠١٠، وقال: رواه الطبراني والبزار باختصار، ورجال البزار رجال الصحيح غير جنيد بن القاسم، وهو ثقه. وأنظر كشف الأستار رقم (٢٤٣٦).

وعن أبي سعيد الخدري، أن أباه مالك بن سنان لما أصيب رسول الله في وجهه يوم أحد، مصَّ دم رسول ، فقال رسول الله : "خالط دمي بدمه لا تمسه النار". أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٣٦٧ برقم ٩٠٩٨، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٤٦ برقم ١٤٠١٢، وفال: رواه الطبراني في الأوسط، ولم أر في إسناده من اجمع على ضعفه.

قلت: وما شرب هؤلاء الصحابة دمه إلا للتبرك بما انفصل منه ، وقد أقرهم النبي على ذلك ...

خامساً: التبرك بعرقه :

روى الشيخان بسندهما عن أنس بن مالك ، قال: كان النبي يدخل بيت أُم سليم فينام على فراشها، وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأتت فقيل لها: هذا النبي نام في بيتك، على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق، واستنقع عرقه على قطعة أديم، على الفراش، ففتحت عتيدتها((((((قال النووي: هي كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعزّ من متاعها. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٨٧.))))))

فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع النبي فقال: "ما تصنعين؟ يا أم سليم، قالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: أصبت". أخرجه البخاري، ص ١٢٠٩ برقم ٦٢٨١، كتاب

الاستئذان، باب من زار قوماً فقال اعتزلهم، مسلم، ص٩٥٢ برقم ٢٣٣١، كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي والتبرك به واللقط له.

وعن أنس ، قال: كان رسول الله إذا نام عرق، فتأخذ أم سليم عرقه بقطنة، فتجعلها في مسكها.

وفي ترجمة أم سليم روىٰ الذهبي عن محمد بن سيرين قوله: فاستوهبت من أم سليم من ذلك المسك، فوهبت لي منه ... ولما مات محمد بن سيرين حّنط بذلك المسك.انظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٠٧، والأثر رواه ابن سعد في طبقاته ٨/ ٤٤٧.

وأخرج أبو يعلىٰ والطبراني من حديث أبي هريرة في قصة الذي استعان به علىٰ تجهيز ابنته: فلم يكن عنده شيء، فاستدعىٰ بقارورة فسلت له فيها من عرقه، وقال له: مرها فلتطيب به، فكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة رائحة الطيب فسموا بيت المطيبن.أخرجه الطبراني في الأوسط ٣/ ١٩٠، أبو يعلي في المسند برقم ٢٨٩٨٥.

وروىٰ أبو يعلىٰ والبزار بإسناد صحيح عن أنس: – كان رسول الله أذا مرّ في طريق من طرق المدينة وجد فيه رائحة المسك، فيقال مرّ رسول الله . فتح الباري ٦/ ٥٧٣–٥٧٤، وأنظر مجمع الزوائد ٨/ ٣٦٠ برقم ١٤٠٥٣، فتح الباري ٦/ ٥٧٣–٥٧٤.

وقد عقب الحافظ ابن حجر علىٰ ما جاء في قصة أم سليم فقال: "ويستفاد من هذه الروايات اطلاع النبي علىٰ فعل أم سليم وتصويبه، ولا معارضه بين قولها أنها كانت تجمعه لأجل طيبه، وبين قولها للبركة، بل يحمل علىٰ أنها كانت تفعل ذلك للأمرين معاً". فتح الباري ١١/ ٧٢.

سادساً: التبرك بماء وضوئه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

روىٰ البخاري (١/ ٤٩ برقم ١٨٧) بسنده عَنْ أَبِيْ جُحَيْفَةَ، يَقُولُ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالهَاجِرَةِ، فَأُتِيَ بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَأْخُذُونَ مِنْ فَضْلِ وَضُوئِهِ فَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ".

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١/ ٢٩٥): " في قَوْلُهُ يَأْخُذُونَ مِنْ فَضْلِ وَضُوئِهِ كَأَنَّهُمْ اقْتَسَمُوا الْمَاءَ الَّذِي فَضَلَ عَنْهُ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونُوا تَنَاوَلُوا مَا سَالَ مِنْ أَعْضَاءِ وُضُوئِهِ".

قلت: وما أخذوا فضل وضوئه، وما سال عن أعضائه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا ليتبرّكوا به ...

ولشدَّة حرص الصَّحابة رضوان الله عليهم علىٰ ماء وضوئه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، فقد جاء في حديث صلح الحديبية أنَّ عروه بن مسعود رضي الله عنه قال عن الصَّحابة الكرام: " وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىَ وَضُوئِهِ " أخرجه البخاري (٣/ ١٩٣ برقم ٢٧٣١).

وجاء في الصَّحيح أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرشد أصحابه إلىٰ الحرص علىٰ التَّبرُّك بماء وضوئه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

روىٰ البخاري (٥/ ١٥٧ برقم ٤٣٢٨) ، مسلم (٤/ ١٩٤٣ برقم ٢٤٩٧) بسندهما عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَازِلٌ بِالْجِعْرَانَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ بِلاَلٌ فَأَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: أَلاَ تُنْجِزُ لِي مَا وَعَدْتَنِي؟ فَقَالَ لَهُ: «أَبْشِرْ» فَقَالَ: قَدْ أَكْثَرْتَ عَلَيَّ مِنْ أَبْشِرْ، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ أَبِي مُوسَىٰ وَبِلاَلٍ كَهَيْئَةِ الغَضْبَانِ، فَقَالَ: «رَدَّ البُشْرَىٰ، فَاقْبَلاَ أَنْتُمَا» قَالاَ: قَبِلْنَا، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ فِيهِ وَمَجَّ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «اشْرَبَا مِنْهُ، وَأَفْرِغَا عَلَىٰ وُجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا وَأَبْشِرَا» . فَأَخَذَا القَدَحَ فَفَعَلاَ، فَنَادَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ: أَنْ أَفْضِلاَ لِأُمِّكُمَا، فَأَفْضَلاَ لَهَا مِنْهُ طَائِفَةً .

وعن طلق بن علي قال: وفدنا علىٰ النبي ﷺ فلما ودعنا أمرني فأتيته بإداوة من ماء، فحثا منها، ثم مجّ فيها ثلاثاً، ثم أوكأها، ثم قال: اذهب بها وانضح مسجد قومك، وأمُرْهم أن يرفعوا برؤوسهم أن رفعها الله، قلت: أن الأرض بيننا وبينك بعيده، وأنها تيبس، قال فإذا يبست فمدّها.أخرجه أحمد، ص١١٣٩ برقم ١٦٤٠٢، النسائي في المجتبىٰ، ص ٣٥ برقم ١٦٥، كتاب الطهارة، باب ترك الوضوء من ذلك.

قال الطيبي: "وفيه جواز التبرك بماء زمزم ونقله إلىٰ البلاد الشاسعة، وعليه يحمل التبرك بما بقي من فضل طعام العلماء والمشايخ وشرابهم وخرقهم". شرح الطبي علىٰ مشكاة المصابيح ٢/ ٢٨٢.

وقال السيد محمد بن علوي المالكي:" وهذا الحديث من الأصول المعتبرة المشتهرة الدالة علىٰ مشروعية التبرك به وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه، فإنه ﷺ أخذ وضوئه ثم جعله في إناء ثم أمرهم أن يأخذوه معهم إجابة لطلبهم وتحقيقاً لمرادهم، فلا بد أن هناك سراً قويا متمكناً في نفوسهم دفعهم إلىٰ طلب هذا الماء بخصوصه، والمدينة مملوءة بالمياه، بل وبلادهم مملوءة بالماء، فَلِمَ هذا التعب والتكلف في حمل قليل من الماء من بلد إلىٰ بلد مع بُعد المسافة وطول السفر وحرارة الشمس؟

نعم كل ذلك لم يهمهم، لأن المعنىٰ الذي يحمله هذا الماء يهون عليهم كل مشقة، ألا وهو التبرك به وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه، وهو لا يوجد في بلدهم ولا يتوافر علىٰ كل حال عندهم، ويتأكد تأييده لهم ﷺ ورضاه عن فعلهم بجوابه لهم لما قالوا: أن الماء ينشف لشدة الحر، إذ قال لهم: "مدُّوه من الماء" فبَّين لهم أن بركته التي حلَّت في الماء لا تزال باقية مهما زادوا فيه فهي مستمرة متصلة" . مفاهيم يجب أن تصحح ص ٢٢١-٢٢٢.

وفي الصحيحين عن محمد بن المنكدر، قال: سمعت جابراً يقول: جاء رسول الله يعودني، وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ وصّب عليّ من وضوئه، فعقلت، فقلت: يا رسول الله لمن الميراث ؟ إنما يرثني كلالة، فنزلت أية الفرائض.أخرجه البخاري، ص٦٢ برقم ١٩٤، كتاب الوضوء، باب صب النبي وضوئه علىٰ المغمىٰ عليه، مسلم ص٦٥٨ برقم ١٦١٦، كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة.

قال النووي في تعليقه علىٰ هذا الحديث: "وفيه التبرك بآثار الصالحين وفضل طعامهم وشرابهم، ونحوهما، وفضل مؤاكلتهم ومشاربتهم ونحو ذلك، وفيه ظهور آثار بركة الرسول . صحيح مسلم بشرح النووي ١١/ ٥٥.

المبحث الرابع

التبرك بملابسه وأدواته

أولاً: التبرك بثياب النبي :

روىٰ البخاري بسنده عن سهل بن سعد ، قال: جاءت امرأة ببردة، قال: أتدرون ما البردة؟ فقيل له: نعم، هي الشمله، منسوج في حاشيتها، قالت: يا رسول الله، إني نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها النبي محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال رجل من القوم، يا رسول الله، أكْسنيها، فقال: "نعم". فجلس النبي في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت مسألتها إياه، لقد علمت أنه لا يرد سائلاً، فقال الرجل: والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت، قال سهل: فكانت كفنه. أخرجه البخاري، ص٣٩٥ برقم ٢٠٩٣، كتاب البيوع، باب ذكر النساج.

قال الحافظ ابن حجر: "ورد في الحديث من الفوائد: ... التبرك بآثار الصالحين". فتح الباري ٣/ ١٤٤.

وعن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها، كساء ملبدا، وقالت: في هذا نزع روح النبي .

وزاد سليمان، عن حميد، عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساء من هذه التي يدعونها الملبّدة.أخرجه البخاري، ص ٥٩٤ برقم ٣١٠٨، كتاب فرض الخمس، باب ما ذكر من درع النبي ...، مسلم، ص٨٦٣ برقم ٢٠٨٠، كتاب اللباس والزينة، باب التواضع في اللباس.

وعن أسماء بنت أبي بكر: أنها أخرجت جبّة طيالسة كسروانيه، لها لبنةُ ديباج، وفرجيها مكفوفين بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة حتىٰ قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي يلبسها، فنحن نغسلها للمرض يستشفىٰ بها.أخرجه مسلم، ص٨٦٠ برقم ٢٠٦٩، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة علىٰ الرجال والنساء.

فهاهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يجعلون جبته سبيلاً للعلاج، حيث يعمدون إلى غسل جبته ويجعلون من غسالتها سبيلاً للاستشفاء، وتبركاً بجبته ، وهذا بعد وفاته....

وكان الصحابة رضوان الله عليهم ومَنْ بعدهم حريصين على اقتناء أثاره ومن ضمنها بردته ، حتى أن خلفاء بني العباس اشتروها بمئات الدنانير، وما ذلك إلا لينعموا ببركة صاحبها .

قال ابن كثير: "قال الحافظ البيهقي: وأما البرد الذي عند الخلفاء، فقد روينا عن محمد بن إسحق بن يسار في قصة تبوك أن رسول الله أعطى أهل آيلة بردة مع كتابه الذي كتب لهم أماناً لهم، فاشتراه أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار- يعني بذلك أول خلفاء بني العباس وهو السفاح رحمه الله، وقد توارث بنو العباس هذه البردة خلفاً عن سلف، كان الخليفة يلبسها يوم العيد على كتفيه، ويأخذ القضيب المنسوب إليه-صلوات الله وسلامه عليه- في إحدى يديه، فيخرج عليه من السكينة والوقار ما يصدع به القلوب، ويبهر الأبصار". البداية النهاية ٦/ ٩، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٢٣١٨ برقم ٣٣٣٠، باب ما جاء في تركـة رسول الله .

ثانياً: التبرك بنعله :

عقد الإمام البخاري بابا في صحيحه، سماه: (باب ما ذكر من درع النبي وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآنيته مما يتبرك أصحابه وغيرهم بعد وفاته)، وذلك ضمن كتاب (فرض الخمس).

قلت: وفي قول البخاري (مما يتبرك أصحابه وغيرهم بعد وفاته) ما يشير إلى آن الصحابة وغيرهم تبركوا بعصاه وبنعله ، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ...

ثم ذكر عدداً من الأحاديث التي ساقها ضمن هذا الباب، منها: "عن عيسى بن طهمان قال: أخرج إلينا أنس نعلين جرداوين لهما قبالان، فحدثني ثابت البناني بعد: عن أنس أنهما نعلا النبي ". أخرجه البخاري ص ٥٩٤ برقم ٣١٠٧، كتاب فرض الخمس، باب ما ذكر من درع النبي .

وقد بالغ الناس في المحافظة على أثاره حتى أنهم حفظوها وحافظوا عليها في أماكن خاصة، وكانت من ضمن ما يتبرك به.....

ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة شداد بن أوس أن نعله كانت زوجاً، خلّفها شداد عند ولده، فصارت إلى محمد بن شداد، فلما أن رأت أخته خزرج ما نزل به وبأهله، جاءت، فأخذت فرد النعلين، وقالت: يا أخي،

ليس لك نسل، وقد رزقت ولداً، وهذه مكرمة رسول الله أحب أن تشرك فيها ولدي، فأخذتها منه.سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٣.

وقال الحافظ ابن كثير: "واشتهر في حدود سنه ستمائة وما بعدها عن رجل من التجار يقال له: ابن أبي الحدود، نعل مفردة ذكر أنها نعل النبي فسامها الملك الأشرف موسىٰ بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب منه بمال جزيل فأبىٰ أن يبيعها، فاتفق معه بعد حين، فصارت إلىٰ الملك الأشرف المذكور، فأخذها إليه وعظمها، ثم لما بني دار الحديث الأشرفية إلىٰ جانب القلعة، جعلها في خزانه منها، وجعل لها خادماً، وقُرر له من المعلوم كل شهر أربعون درهماً، وهي موجودة إلىٰ الآن في الدار المذكورة.البداية والنهاية ٦/ ٨.

ثالثاً: التبرك بقصعته :

قال القاضي عياض: "حدثنا القاضي أبو علي عن شيخه أبي القاسم بن المأمون، قال: كانت عندنا قصعة من قصعات النبي ، فكنا نجعل فيها الماء للمرضى فيستشفون بها. وأخذ جهجاه الغفاري القضيب-عصا الرسول- من يد عثمان ليكسره علىٰ ركبته فصاح الناس به، فأخذته فيها الأكلة فقطعها ومات قبل الحول.الشفاء ١/ ٦٣٨.

وذكر عبد الله بن أحمد أنه رأىٰ أباه أخذ قصعة النبي فغسلها في حّب الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه.سير إعلام النبلاء ١١/ ٢١٢.

سابعاً: التبرك بقدحه وبفضل شربه :

أخرج الشيخان بسندهما عن سهل بن سعد الساعدي قال أُتىٰ النبي بقدح فشرب منه، وعن يمينه غلام أصغر القوم، والأشياخ عن يساره، فقال "يا غلام، تأذن لي أن أعطيه الأشياخ "قال: ما كنت لأوثر بفضلي منك أحداً يا رسول الله، فأعطاه إياه". أخرجه البخاري ص ٤٤٢ برقم ٢٣٥١، كتاب المساقاه (الشرب) باب في الشراب ومن رأىٰ صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مسلم ص ٨٤٠ برقم ٢٠٤٠، كتاب الأشربة، باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما، عن يمين المبتدىٰ.

ومن المعلوم أن الإيثار خلق إسلامي رفيع، جاء ذكره في الكتاب العزيز، ومع ذلك لم تسمح نفس ذلك الغلام بأن يؤثر الأشياخ بفضل شرب النبي ، بل خص بها نفسه، وأقرّه النبي ولم يعنِّفه، لأن مثل هذه الواقعة قد لا تتكرر بالنسبة لذلك الغلام الذي كان بشوق شديد للتبرك بفضل شرب النبي ....

وفي صحيحه فتح الإمام البخاري باباً سماه: (باب الشرب من قدح النبي وآنيته) ضمن كتاب الأشربة، روىٰ فيه حديثين هما:

"عن سهل بن سعد ، قال: ذكر للنبي امرأة ... وفيه: فأقبل النبي يومئذ حتى جلس في سقيفة بني ساعده هو وأصحابه، ثم قال: اسقنا يا سهل، فأخرجت لهم هذا القدح فأسقيتهم منه، فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، وقال: ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له" . أخرجه البخاري ص١١٠٧ برقم ٥٦٣٧، كتاب الأشربة، باب الشرب من قدح النبي وآنيته، مسلم ص٨٣٣ برقم٢٠٠٧، كتاب الأشربة، باب إباحة النبيذ الذي لم يشتد ولم يصر مسكراً.

قال الحافظ ابن حجر: قوله: "باب الشرب من قدح النبي " أي تبركاً به". فتح الباري ١٠/ ٩٩.

وقال أيضاً: "وفي الحديث التبسط على الصاحب واستدعاء ما عنده من مأكول ومشروب، وتعظيمه بدعائه بكنيته والتبرك بآثار الصالحين". فتح الباري ١٠/ ١٠٠.

وقال النووي: "قوله: فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، قال: ثم استوهبه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز فوهبه له -يعني القدح الذي شرب منه الرسول ، وهذا فيه التبرك بآثار النبي وما مسّه أو لبسه أو كان منه فيه سبب، وهذا نحو ما اجمعوا عليه وأطبق السلف والخلف عليه من التبرك بالصلاة في مصلى رسول الله في الروضة الكريمة، ودخول الغار الذي دخله ، وغير ذلك، ومن هذا إعطاؤه شعره ليقسمه بين الناس، وإعطاؤه حقوه لتكفن فيه بنته رضي الله عنها، وجعله الجريدتين على القبرين، وجمعت بنت ملحان عرقه ، وتمسحوا بوضوئه ، ودلكوا وجوههم بنخامته ، وأشباه هذه كثيرة مشهورة في الصحيح، وكل ذلك واضح لاشك فيه". صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/ ١٧٨-١٧٩.

وقال الكنكوهي: "ومما يدل عليه استيهاب عمر بن عبد العزيز هذا القدح من سهل لأنه إنما استوهبه منه لكونه في الأصل للنبي لأجل التبرك به، وهذا شيء ظاهر لا يخفى". لامع الدراري ٩/ ٤٦٥.

الحديث الثاني: عن عاصم الأحول، قال: رأيت قدح النبي عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع فسلسله بفضة، قال: وهو قدح جيد عريض من نضار- الخالص من العود من كل شيء - ، قال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله في هذا القدح أكثر من كذا وكذا.أخرجه البخاري، ص١١٠٧ برقم ٥٦٣٨، كتاب الأشربة، باب الشرب من قدح النبي وآنيته.

وقال الحافظ ابن حجر: "قال علي بن الحسن: وأنا رأيت القدح وشربت منه. وذكر القرطبي في مختصر البخاري أنه رأى في بعض النسخ القديمة من صحيح البخاري: قال أبو عبد الله البخاري: رأيت هذا القدح بالبصرة وشربت منه". فتح الباري ١٠/ ١٠٠.

كما روى البخاري تعليقاً قول أبي بردة، قال: قال لي عبد الله بن سلام. ألا أسقيك في قدح شرب النبي ﷺ فيه.أخرجه البخاري ص ١١٠٧، كتاب الأشربة، باب الشرب من قدح النبي ﷺ وآنيته.

فانظر إلى الصحابي الجليل ابن سلام كيف يرغّب إلى أبي بردة إن يسقيه من قدح شرب فيه الرسول ﷺ، وما ذلك إلا ليحظى الشارب بخير وبركة الشرب من قدح شرب فيها الرسول ﷺ ...

وروى أحمد في المسند بسنده عن حجاج بن حسان، قال: كنّا عند أنس بن مالك فدعا بإناء وفيه ثلاث ضباب حديد، وحلقه من حديد، فأخرج من غلاف أسود، وهو دون الربع، وفوق نصف الربع، فأمر أنس بن مالك فجعل لنا فيه ماء، فأُتينا به فشربنا، وصببنا على رؤوسنا ووجوهنا، وصلينا على النبي ﷺ. أخرجه أحمد ص ٨٩١ برقم ١٢٩٧٩.

فانظر إلى الصحابة والتابعين كيف تبركوا بالإناء الذي شرب فيه الرسول ﷺ، وكيف أنهم صبوا الماء على رؤوسهم تبركاً به....

المبحث الخامس

التبرك بقبره وبمنبره ﷺ

ومن ألوان التبرك التي رويت عن السلف والخلف: التبرك بقبره وبمنبره ﷺ ....

فقد جاء في الصحاح أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، حين أدركته الوفاة بعدما طعن، أرسل ولده عبد الله إلى السيدة عائشة رضي الله عنها يستأذنها في أن يدفن بجوار صاحبيه: سيدنا رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق، لدرجة أن عبد الله حين رجع بعدما استأذن السيدة عائشة رضي الله عنها، نسي الفاروق جراحه وآلامه وابتدر ولده بالسؤال: ما لديك يا عبد الله، وعندما أخبره ولده عبد الله بموافقتها على طلبه قال: ما كان شيء أهم إليّ من ذلك المضجع ...

فقد روى البخاري بسنده عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا عبد الله ابن عمر اذهب إلى أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها، فقل: يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام، ثم سلها أن ادفن مع صاحبيَّ.

قالت: كنت أريده لنفسي، فلأوثرنه اليوم عليّ. فلما أقبل، قال له ما لديك؟ قال: أذنت لك يا أمير المؤمنين. قال: ما كان شيء أهم إليّ من ذلك المضجع، فإذا قبضت فاحملوني ثم سلّموا، ثم قل: يستأذن عمر بن الخطاب، فان أذنت فادفنوني، وإلا فردوني إلى مقابر المسلمين،..." .أخرجه البخاري ص ٢٧٠ برقم ١٣٩١، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ﷺ..

قال الحافظ ابن حجر: "وفيه الحرص على مجاورة الصالحين في القبور طمعا في إصابة الرحمة إذا نزلت عليهم وفي دعاء من يزورهم من أهل الخير". فتح الباري ٣/ ٢٥٨.

فحرص سيدنا عمر على إن يدفن في جوار الحبيب ليس إلا لتناله بركة سيد الخلق ، فبركته ميتاً كبركته حياً، وبركته لم تنقطع، بانتقاله إلى الرفيق الأعلى ...

والتبرك بقبره منقول عن غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد روى أحمد في المسند بسنده عن داود بن أبي صالح، قال: أقبل مروان يوماً، فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فقال: أتدري ما تصنع ؟ فأقبل عليه، فإذا هو أبو أيوب، فقال: نعم، جئت رسول الله ولم آت الحجر، سمعت رسول الله يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله. ((((((أخرجه أحمد ص ١٧٣٧ برقم ٢٣٩٨٣، الحاكم في المستدرك ٤ / ٥٦٠ برقم ٨٥٧١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وفي تخريجه لأحاديث التوسل والزيارة أفاض الأستاذ محمود سعيد ممدوح في الرد على من ضعف هذا الحديث، فقال في كتابة المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة ص (٢٣٤-٢٣٦):

عبد الملك بن عمرو هو القيسي أبو عامر العقدي، ثقة احتج به الجماعة وكثير بن زيد، حسن الحديث.

وداود بن أبي صالح قال عنه الذهبي في الميزان (٢/ ٩): "لا يعرف"، وسكت عنه ابن أبي حاتم الرازي (الجرح والتعديل ٣/ ٤١٦).

وذكره الحافظ ابن حجر تمييزاً وقال في التقريب: "مقبول".

فإذا تشددت وأعرضت عن تصحيح الحاكم وموافقة الذهبي له لأن التصحيح هو توثيق للراوي فهذا الإسناد فيه ضعف يسير يزول بالمتابعة، وداود بن أبي صالح تابعه المطلب بن عبد الله بن حنطب فيما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٨٩)، والأوسط (١/ ١٩٩)، وأبو الحسن يحيى بن الحسن في أخبار المدينة (كما في شفاء السقام ص ١٥٢).

والمطلب بن عبد الله بن حنطب صدوق ويدلس، ومثله يصلح للمتابعة صرح بالسماع أو لم يصرح، أدرك أبا أيوب أو لم يدركه، فغاية هذا الإسناد أنه فيه انقطاع يسير قد زال بالمتابعة المتقدمة. وبهذه المتابعة يثبت الحديث ويصير من قسم الحسن لغيره، والله أعلم ..

أما الألباني فكان ولا بد أن يضعف الحديث، فماذا فعل في تضعيفه؟

اقتصر على رواية أحمد والحاكم التي فيها داود بن أبي صالح وضعف الحديث به، وهذا قصور، وقد علمت وجود متابع لداود بن أبي صالح .

ثم أخطأ على الحافظ العلم نور الدين الهيثمي فقال الألباني: وذهل عن هذه العلة -(أي داود بن أبي صالح)- الحافظ الهيثمي فقال في المجمع ٥/ ٢٤٥:

رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط وفيه كثير بن زيد، وثقه أحمد وغيره، وضعفه النسائي وغيره. =

= وخطأ الألباني أنه اعتبر الجودة ذهولا، ذلك أن الحافظ الهيثمي عندما نظر لاسنادي أحمد والطبراني وجد متابعاً لداود بن أبي صالح، وهو المطلب بن عبدالله بن حنطب، فلم يجد ما يستحق الكلام عليه إلا كثير بن زيد فبين أنه مختلف، ومثله يحسن حديثه. فحصر الهيثمي، الكلام على كثير بن زيد هو الصواب.

ومنشأ خطأ الألباني هو عدم وقوفه على المتابعة، وهو قصور بلا شك.

وبيان هذا القصور أنه عندما علم تخريج الطبراني للحديث كان ينبغي المسارعة والبحث عن إسناد الطبراني فيه، وهذا هو مسلك المحدثين الناقدين، وأما الاقتصار على طريق واحد للحديث ثم تضعيف الألباني له مع وجود طريق آخر فهو خطأ بلا ريب. ولعمل الألباني هذا نظائر في كتبه.

والحديث فيه التجاء أحد الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلى القبر الشريف.))))))

فالتزام القبر ثابت عن الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ، بل أنه أنكر على من أنكر عليه التزامه قبر النبي ، ووصف المنكر عليه بأنه ليس من أهل العلم.

قال الإمام ابن تيميه: "قال أبو بكر الأثرم: قلت لآبي عبد الله-يعني أحمد بن حنبل – قبر النبي يمسّ ويتمسح به؟ فقال: ما أعرف هذا. قلت له: فالمنبر؟ فقال: أما المنبر فنعم، قد جاء فيه، قال أبو عبد الله: شيء يروونه عن ابن أبى فديك عن ابن أبى ذئب عن ابن عمر: أنه مسح على المنبر، قال: ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرّمانة. قلت: ويروونه عن يحيى بن سعيد: أنه حين أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر فمسحه ودعا، فرأيته استحسنه، ثم قال: لعله عند الضرورة والشيء. قيل لأبى عبد الله: إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر وقلت له: رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسّونه ويقومون ناحية فيسلمون. فقال أبو عبد الله: نعم. وهكذا كان ابن عمر يفعل. ثم قال أبو عبد الله: بأبي هو وأمي .

فقد رخص أحمد وغيره في التمسح بالمنبر والرمانة التي هي موضع مقعد النبي ويده، ولم يرخصوا في التمسح بقبره، وقد حكى بعض أصحابنا رواية في مسح قبره. لأن أحمد شيَّع بعض الموتى، فوضع يده على قبره يدعو له". اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٦٧-٣٦٨.

قلت: والرواية التي أشار إليها ابن تيميه، وأن أحمد شيَّع بعض الموتى ...ذكرها صاحب الروايتين والوجهتين، فقال:

مسألة: واختلف في وضع اليد على القبر على روايتين، قال محمد بن حبيب البزار: كنت مع أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل في جنازة فأخذ يدي وقمنا ناحية، فلما فرغ الناس وانقضى الدفن جاء إلى القبر وأخذ بيدي وجلس ووضع يده على القبر، وقال: اللهم إنك قلت في كتابك: ([illegible]) (الواقعة ٨٨-٩٤).

اللهم أنا نشهد أن هذا فلان ابن فلان ما كذب بك، ولقد كان يؤمن بك وبرسولك، اللهم فاقبل شهادتنا له، ودعا وانصرف". انظر: الروايتين والوجهتين ١/ ٢١٤.

وفي ترجمة محمد بن المنكدرنقل الإمام الذهبي عن مصعب بن عبد الله، قال: حدثني إسماعيل بن يعقوب التيمي قال: كان ابن المنكدر يجلس مع أصحابه، فكان يصيبه صمات، فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي ثم يرجع، فعوتب في ذلك، فقال: إنه يصيبني خطر، فإذا وجدت ذلك، استعنت بقبر النبي .

وكان يأتي موضعا من المسجد يتمرغ فيه ويضطجع، فقيل له في ذلك، فقال: إني رأيت النبي في هذا الموضع.سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥٨-٣٥٩.

ونقل الإمام الذهبي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يكره مسَ قبر النبي ، فقال الذهبي: كره ذلك لأنه رآه إساءة أدب. وقد سئل أحمد بن حنبل عن مسّ القبر النبوي وتقبيله فلم ير بذلك باساً. رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد.

فإن قيل: فهلا فعل ذلك الصحابة؟

قيل: لأنهم عاينوه حياً، وتملّوا به وقبلوا يده، وكادوا يقتتلون على وضوئه حياً، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر، وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه.

ونحن لما لم يصح لنا مثل هذا النصيب الأوفر، ترامينا على قبره بالالتزام، والتبجيل، والاستلام، والتقبيل. ألا ترى كيف فعل ثابت البناني؟ كيف يقبل يد أنس بن مالك ويضعها على وجهه، ويقول: يد مسّت يد رسول الله .

وهذه الأمور لا يحركها من مسلم إلا فرط حبِه للنبي ، إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين، ومن أمواله ومن الجنة وحورها، بل خلق من المؤمنين يحبون أبا بكر وعمر أكثر من حب أنفسهم". معجم الشيوخ ١/ ٧٣.

وفي شرحه لباب "من لم يستلم إلا الركنين اليمانيين" من صحيح البخاري، قال الحافظ ابن حجر: "استنبط بعضهم من مشروعية تقبيل الأركان جواز تقبيل كل من يستحق التعظيم من آدمي وغيره. فأما تقبيل يد الآدمي فيأتي في كتاب الأدب، وأما غيره فنقل عن الإمام أحمد أنه سئل عن تقبيل منبر النبي وتقبيل قبره فلم ير به بأسا". فتح الباري ٣/ ٤٧٥، وانظر أقوال الحافظ ابن حجر في التبرك في فتح الباري: ١/ ٣٢٧، ١/ ٥٢٢، ١/ ٥٢٣، ١/ ٥٢٥، ١/ ٥٦٩، ١/ ٥٧١، ٣/ ١١٥، ٣/ ١٣٩، ٣/ ١٤٤، ٣/ ٢٥٤، ٣/ ٤٧٥، ٣/ ١٢٩-١٣٠، ٣/ ١٥٨، ٣/ ٣٦٧، ٤/ ٥،٩٤/ ٣٤١، ٦/ ١١٨، ٦/ ٦٠٠، ٦/ ٣٥٣، ١٠/ ١٠٠.

ونقل الذهبي عن البخاري في ترجمته له أنه صنف كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر رسول الله في الليالي المقمرة، وقلّ اسم في التاريخ إلا وله قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب... .سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٠، وقال المحقق انظر: تاريخ بغداد ٢/ ٧، تهذيب الكمال١٦٩، طبقات السبكي الكبرى٢/ ٢١٦، مقدمة الفتح ٤٧٩.

وقال ابن عدي: سمعت عبد القدوس بن همام يقول: سمعت عدة من المشايخ يقولون: حوّل محمد بن إسماعيل تراجم جامعه بين قبر رسول الله ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين. سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٤.

وقال القاضي عياض: "وعن ابن قسيط والعتبي: كان أصحاب النبي إذا خلا المسجد جسّوا رمانة المنبر التي تلي القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون.الشفا ٢/ ٢٠٠، طبقات ابن سعد ١/ ١٢٣.

وقال القاضي عياض أيضاً: "ورؤي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي من المنبر ثم وضعها على وجهه". الشفا ٢/ ١٩٩-٢٠٠، طبقات ابن سعد ١/ ١٢٣.

وفي ترجمة الإمام أحمد بن حنبل، قال الإمام الذهبي: "قلت: أين المتنطع المنكر على أحمد، وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمّن يلمس رمانة منبر النبي ، ويمسّ الحجرة النبوية، فقال: لا أرى بذلك بأساً. أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع". سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٢.

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا حُكْمُ التَّوَسُّل بِالأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِيْن بَعْدَ الوَفَاة ؟

الجواب : لقد دلَّت على جواز التَّوسُّل بالأنبياء والمرسلين وآثارهم في الحياة وبعد الممات آياتُ الكتاب العزيز ، وكذا أحاديثُ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، ومن تلكم الأدلَّة:

أَوَّلاً : أَدِلَّةُ القُرْآنِ العَظِيْم:

الدَّلِيْلُ الأَوَّلُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [البقرة :٨٩] .

فقد ذكر أهل العلم أنَّ اليهود كانوا قبل بعثة سيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يستنصرون بمحمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم علىٰ مشركي العرب ، وكانوا يقولون لهم : هذا زمان خروج نبي آخر الزَّمان الذي نجد صفته في التَّوراة ، وسنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم ، وكان اليهود يُهزمون في حربهم مع قبيلة غطفان العربيَّة ، فقالوا : اللهمَّ إنَّا نسألك بحقِّ النَّبي الأُمِّي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزَّمان إلَّا نصرتنا عليهم ، فهزموا غطفان ... فلمّا بُعث النَّبي من العرب تنكَّروا له ، وكفروا به ، وعادوه...

قال الإمام الطَّبري في " التَّفسير" (٢/٢٣٦-٢٣٩) : " يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [البقرة: ٨٩] ، أَيْ : وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، الَّذِينَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ قَبْلَ الْفُرْقَانِ، كَفَرُوا بِهِ، يَسْتَفْتِحُونَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْنَىٰ الِاسْتِفْتَاحِ: الِاسْتِنْصَارُ، يَسْتَنْصِرُونَ اللهَ بِهِ عَلَىٰ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ قَبْلِ مَبْعَثِهِ؛ أَيْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُبْعَثَ كَمَا حَدَّثَنِي ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَشْيَاخٍ، مِنْهُمْ قَالُوا: " فِينَا وَاللهِ وَفِيهِمْ، يَعْنِي فِي الْأَنْصَارِ وَفِي الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا جِيرَانَهُمْ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ، يَعْنِي: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [البقرة: ٨٩] قَالُوا: كُنَّا قَدْ عَلَوْنَاهُمْ دَهْرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَنَحْنُ أَهْلُ الشِّرْكِ، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ نَبِيًّا الْآنَ مَبْعَثُهُ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ، يَقْتُلُكُمْ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ. فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ رَسُولَهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَاتَّبَعْنَاهُ كَفَرُوا بِهِ. يَقُولُ اللهُ: **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾** [البقرة: ٨٩] .

حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ، مَوْلَىٰ آلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَوْ عِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: " أَنَّ يَهُودَ، كَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَىٰ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَبْعَثِهِ. فَلَمَّا بَعَثَهُ اللهُ مِنَ الْعَرَبِ، كَفَرُوا بِهِ، وَجَحَدُوا مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، اتَّقُوا اللهَ وَأَسْلِمُوا. فَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكٍ، وَتُخْبِرُونَنَا أَنَّهُ مَبْعُوثٌ، وَتَصِفُونَهُ لَنَا بِصِفَتِهِ. فَقَالَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ أَخُو بَنِي النَّضِيرِ: مَا جَاءَنَا بِشَيْءٍ نَعْرِفُهُ، وَمَا هُوَ بِالَّذِي

كُنَّا نَذْكُرُ لَكُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** [البقرة: ٨٩] . " حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ مَوْلَى آلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَوْ عِكْرِمَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِثْلَهُ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [البقرة: ٨٩] يَقُولُ: يَسْتَنْصِرُونَ بِخُرُوجِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ، يَعْنِي بِذَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَأَوْهُ مِنْ غَيْرِهِمْ كَفَرُوا بِهِ وَحَسَدُوهُ."

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عِيسَى، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ عَلِيٍّ الْأَزْدِيِّ: " فِي قَوْلِ اللهِ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [البقرة: ٨٩] قَالَ: الْيَهُودُ، كَانُوا يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ابْعَثْ لَنَا هَذَا النَّبِيَّ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ؛ **﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾** [البقرة: ٨٩] يَسْتَنْصِرُونَ بِهِ عَلَى النَّاسِ ." حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حُذَيْفَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شِبْلٌ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ عَلِيٍّ الْأَزْدِيِّ، وَهُوَ الْبَارِقِيُّ: فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾** [البقرة: ٨٩] فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُعَاذٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: " قَوْلُهُ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [البقرة: ٨٩] كَانَتِ الْيَهُودُ تَسْتَفْتِحُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كُفَّارِ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ ابْعَثْ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي نَجِدُهُ فِي التَّوْرَاةِ يُعَذِّبُهُمْ وَيَقْتُلُهُمْ. فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَوْا أَنَّهُ بُعِثَ مِنْ غَيْرِهِمْ كَفَرُوا بِهِ حَسَدًا لِلْعَرَبِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾** [البقرة: ٨٩] ". وللاستزادة في انظر في تفسير الآية : معاني القرآن وإعرابه (١/ ١٧١) ، انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١/ ٣٤٦) ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/ ١٧٣) ، تفسير القرآن ، أبو المظفر السمعاني (١/ ١٠٨) ، تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٥٧-٢٥٨) ، إحياء علوم الدِّين (٣/ ١٩٠) ، وانظر : بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٢/ ٢٥٤) ، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (١/ ١٤١-١٤٢) ، زاد المسير في علم التفسير (١/ ٨٧) ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٣/ ٥٩٨) ، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٦-٢٧) ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١/ ١٧١) ، بحر العلوم (١/ ٩٩) ، تفسير القرآن العزيز ، ابن أبي زَمَنِين (١/ ١٥٨) ، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/ ١٥٨) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل

(١/ ٩٣) ، البحر المحيط في التفسير (١/ ٤٨٧) ، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٧٦) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) (١/ ١٣٢) .

الدَّلِيْلُ الثَّانِي : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

وفي تفسيرهم للآية الكريمة ذكر أهل العلم أنَّ التَّابوت كان فيه بعض آثار أنبياء بني إسرائيل ، وكانوا يأخذونه معهم في حروبهم يستنصرون به على عدِّوهم ، وكان بالنِّسبة لهم مصدر سكينة وطمأنينة ووقار ، به تأنس نفوسهم وتسكن إليه قلوبهم ، فلا يهربوا ولا يفرِّوا أمام عدِّوهم . ولَّما انحرفوا عن الجادَّة وعصوا الرُّسل سلَّط الله عليهم من ينتزعه منهم ، فذلُّوا وهانوا...

ففي تفسير الآية الكريمة قال الإمام الزجَّاج في "معاني القرآن وإعرابه" (٣٢٩/١) : " والفائدة – كانت – في هذا التَّابوت أنَّ الأنبياءَ – صلوات اللهَّ عليهم – كانت تستفتح به في الحروب ، فكان التَّابوت يكون بين أيديهم ، فإذا سُمِعَ من جوفه أنين دف التَّابوت ، أي : سار والجميع خلفه – واللهَّ أعلم بحقيقة ذلك ."

وقال الإمام البغوي في "معالم التنزيل في تفسير القرآن" (تفسير البغوي) (١/ ٣٣٤) : " ... وَقَالَ قَتَادَةُ وَالْكَلْبِيُّ : السَّكِينَةُ فَعِيلَةٌ مِنَ السُّكُونِ ، أَيْ : طُمَأْنِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَفِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ التَّابوت اطْمَأَنُّوا إِلَيْهِ وَسَكَنُوا . **﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ﴾** [البقرة : ٢٤٨] ، يَعْنِي مُوسَى وَهَارُونَ أَنْفُسَهُمَا كَانَ فِيهِ لَوْحَانِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَرُضَاضِ الْأَلْوَاحِ الَّتِي تَكَسَّرَتْ ، وَكَانَ فِيهِ عَصَا مُوسَى ، وَنَعْلَاهُ ، وَعِمَامَةُ هَارُونَ ، وَعَصَاهُ ، وَقَفِيزٌ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَكَانَ التَّابوت عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ تَكَلَّمَ وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ ، وَإِذَا حَضَرُوا الْقِتَالَ قَدَّمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَيَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِم " .

وهذا في الحقيقة ليس إلَّا توسُّلاً بآثار أُولئك الأنبياء ، وتوسُّلاً ببركه التَّابوت . فإذا كان التَّبرُّك بآثار الأنبياء شركاً وخروجاً من ربقة الدِّين ، فماذا يقول مدَّعو السَّلفيَّة عن قصَّة تابوت بني إسرائيل ؟!!! هل يقرُّ القرآن الكفر ويمدحه ؟!!... وللاستزادة انظر : زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٢٤) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٨/٣-٢٤٩) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (١/ ٤٨٨-٤٩١) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/ ٢٧٥) ، فتح القدير) (١/ ٣٠٣-٣٠٤) .

الدَّلِيْلُ الثَّالِثُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة : ٣٥] .

والوسيلة هي ما يُتقرَّبُ به إلىٰ الله ، وهي ما يتوصَّلُ بها إلى تحصيل المقصود . والوسيلة لفظٌ عامٌ شاملٌ للتَّوسُّل بالذَّوات الفاضلة من الأنبياء والصَّالحين في الحياة وبعد المات ، وبالأعمال الصَّالحة ... فالآية الكريمة تدعو المؤمنين للتَّقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ الله بشتَّىٰ أنواع القُربات ، متوسِّلين إليه تعالىٰ بشتَّىٰ أنواع الوسائل ، ومن ضمنها : التَّوسُّل بالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ... وللاستزادة في تفسير الآية الكريمة انظر : تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٧) ، (٢/ ٣٠١) ، جامع البيان في تأويل القرآن (١٠/ ٢٩١) ، معاني القرآن وإعرابه (٢/ ١٧١) ، (٣/ ٢٤٦) ، دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر (٣/ ١١١١) ، تفسير القرآن ، أبو المظفر السمعاني (٣/ ٢٥١) ، زاد المسير في علم التفسير ، (١/ ٥٤٣-٥٤٤) ، انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)) ١١/ ٣٤٩) .

الدَّلِيْلُ الرَّابِعُ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [النساء : ٦٤] .

والآية دالَّة علىٰ العموم ، بمعنىٰ أنَّ الاستغفار من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لأُمَّته ثابت في حياته ، وكذا بعد انتقاله إلىٰ الرَّفيق الأعلىٰ ، ومن أراد تخصيصها بحياته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقد خالف ما عليه أهل الحق ، لأنَّ الفعل في سياق الشَّرط يفيد العموم ، وأعلىٰ صيغ العموم ما وقع في سياق الشَّرط ، كما نصَّ علىٰ ذلك غير واحد من أهل العلم . انظر : إرشاد الفحول (ص١٢٢) ، البحر المحيط في أصول الفقه (٤/ ١٦٠) .

قال الإمام عبد الله الغماري في "إتحاف الأذكياء بجواز التَّوسُّل بالأنبياء والأولياء" (ص١٣) : " فهذه الآية وإن نزلت بسبب المنافقين المتحاكمين إلىٰ الطَّاغوت ، فهي عامَّة تشمل كلّ عاص ومقصر ، لأنَّ ظلم النَّفس المذكور فيها يشمل كلَّ معصية ، ثمَّ أنَّها أعني الآية تدلُّ علىٰ الاستشفاع بالنَّبي صَلَّىٰ الله عليه وآله وَسَلَّم في حالتي حياته ووفاته ، لأنَّ كلاً من المجيء والاستغفار وقع في سياق الشَّرط ، والفعل في سياق الشَّرط يدلُّ علىٰ العموم ، والاستشفاع في حال الحياة ظاهر ليس فيه خلاف.

وأمَّا في حال الوفاة ، فالوهَّابيُّون يمنعونه متوهِّمين أنَّ الموت يحولُ دون تحقُّقه ، وهو غلط ظاهر ، لأنَّ الأنبياء أحياء في قبورهم يُرزقون ، بدليل الكتاب والسُّنَّة والإجماع ."

وقال أيضاً في " الرَّد المحكم المتين علىٰ كتاب القول المبين" (ص٤٥-٤٦) : " فهذه الآية عامَّة تشمل حالة الحياة وحالة الوفاة ، وتخصيصها بأحدهما يحتاج إلىٰ الدَّلِيل ، وهو مفقود هنا ، فإن قيل : من أين أتىٰ العموم للآية حتىٰ يكون تخصيصها بحالة الحياة دعوىٰ تحتاج إلىٰ دليل ؟ قلنا : من وقوع الفعل في سياق

الشَّرط ، والقاعدة المقرَّرة في الأصول : أنَّ الفعل إذا وقع في سياق الشَّرط كان عامَّاً ، لأنَّ الفعل في معنى النَّكرة لتضمُّنه مصدراً منكراً ، والنَّكرة الواقعة في سياق النَّفي أو الشَّرط تكون للعموم وضعاً."

وهذا ما فهمه كثيرٌ من المفسِّرين وغيرُهم من أهل العلم ، فقد ذكروا قصَّة العتبي عند تفسيرهم للآية الكريمة ، وكذا ذكروها عند الدُّعاء أثناء زيارة القبر الشَّريف...

قال الإمام ابن عبد ربّه في " العقد الفريد" (٣/ ١٩٤) : " وقف أعرابي على قبر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فقال : قلت فقبلنا وأمرت فحفظنا ، وبلّغت عن ربِّك فسمعنا : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا . فما بقيت عينٌ إلَّا سالت" ...

وقال الإمام الماوردي في "الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشَّافعي وهو شرح مختصر المزني" (٤/ ٢١٤-٢١٥) . : " فَأَمَّا زِيَارَةُ قَبْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَمَأْمُورٌ بِهَا وَمَنْدُوبٌ إِلَيْهَا ، رَوَىٰ عُبَيْدُ اللهَّ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّه قَالَ : " مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي " . قال الأستاذ المحقق المدقق محمود سعيد ممدوح : " أخرجه الدارقطني في سننه (٢ / ٢٧٨) ، والدولابي في الكنىٰ والأسماء (٢ / ٦٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣ / ٤٩٠) ، والخطيب في تلخيص المتشابه في الرسم (١ / ٥٨١) ، وابن الدبيثي في الذيل على التاريخ (٢ / ١٧٠) ، وابن النجار في تاريخ المدينة (ص ١٤٢) ، والعقيلي في الضعفاء (٤ / ١٧٠) ، وابن عدي في الكامل (٦ / ٢٣٥٠) ، والسُّبكي في شفاء السقام (ص ٢ – ١٤) . جميعهم من طرق عن موسىٰ بن هلال العبدي ، عن عبيد الله بن عمر وعبد الله بن عمر كلاهما عن نافع عن ابن عمر به مرفوعاً . وهذا الإسناد حسن سواء قال موسىٰ بن هلال عن عبيد الله بن عمر أو عن أخيه عبد الله بن عمر أو عنهما . وقد صحَّحه عبد الحق الإشبيلي ، وصحَّحه أو حسنه السُّبكي في شفاء السَّقام ، والسُّيوطي في مناهل الصَّفا في تخريج أحاديث الشِّفا ، وآخرون ممَّن تأخروا عنه . وقد أعلَّ هذا الحديث بعلل لا يصح منها شيء " انظر : رفع المنارة لتخريج أحاديث التَّوسُّل والزيارة (ص٢٨٠ فما بعدها .

ثمَّ ناقش جميع العلل التي تعلل بها المتمسلفة في تضعيف الحديث ...

وَحُكِيَ عَنِ الْعُتْبِيِّ أَنَّه قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ قَبْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فَأَتَىٰ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهَّ وَجَدْتُ اللهَّ تَعَالَىٰ يَقُولُ : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، وَقَدْ جِئْتُكَ تَائِباً مِنْ ذَنْبِي مُسْتَشْفِعاً بِكَ إِلَىٰ رَبِّي ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكَمُ

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُــــــهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُــــودُ وَالْكَرَمُ

قَالَ الْعُتْبِيُّ : فَغَفَوْتُ غَفْوَةً ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – يَقُولُ : يَا عُتْبِيُّ الْحَقِ الْأَعْرَابِيَّ ، وَأَخْبِرْهُ بِأَنَّ اللهَ تعالى قد غفر له " .

وقال الإمام البيهقي في " شعب الإيمان" (٦/ ٦٠-٦١) : " أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ ، أَخْبَرَنِي أَبُو محمَّد بْنُ زِيَادٍ ، حدَّثنا محمَّد بْنُ إِسْحَاقَ الثَّقَفِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا إِسْحَاقَ الْقُرَشِيَّ ، يَقُولُ : كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ إِذَا رَأَى مُنْكَراً لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ أَتَى الْقَبْرَ ، فَقَالَ:

أَيَا قَبْرَ النَّبي وَصَاحِبَيْهِ ألَا يَا غَوْثَنَا لَوْ تَعْلَمُونَا

وقال : أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيُّ ، حدَّثنا عَمْرُو بْنُ محمَّد بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ بَقِيَّةَ، إِمْلَاءً ، حدَّثنا شُكْرٌ الْهَرَوِيُّ ، حدَّثنا يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ ، عَنْ محمَّد بْنِ رَوْحِ بْنِ يَزِيدَ الْبَصْرِيِّ ، حدَّثني أَبُو حَرْبٍ الْهِلَالِيُّ ، قَالَ : حَجَّ أَعْرَابِيٌّ فلمَّا جَاءَ إِلَى بَابِ مَسْجِدِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَعَقَلَهَا ثمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ حَتَّى أَتَى الْقَبْرَ وَوَقَفَ بِحِذَاءِ وَجْهِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فَقَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله جِئْتُكَ مُثْقَلاً بالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا مُسْتَشْفِعاً بِكَ عَلَى رَبِّكَ لأنَّه قَالَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، وَقَدْ جِئْتُكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مُثْقَلاً بالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا أَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى رَبِّكَ أَنْ يَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي ، وَأَنْ تَشْفَعَ فِيَّ ، ثمَّ أَقْبَلَ فِي عَرْضِ النَّاس ، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ فِي التُّرْبِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِ الْأَبْقَاعُ وَالْأَكَمُ
نَفْس الْفِدَاءُ بقَبْرٍ أَنتَ سَاكِنُـــــهُ فِيهِ الْعَفَـافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

ومع أنَّ إسناد الرِّواية فيه مقال ، لكن الشَّاهد هو إيراد العديد من المفسِّرين لها في كتبهم ، لأنَّهم فهموا من الآية أنَّ استغفار الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حاصلٌ بعد انتقاله إلى الرَّفيق الأعلى ، ولذلك حَثُّوا على ضرورة الذَّهاب لزيارته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وسؤاله الاستغفار ، لأنَّ الله أمره بالاستغفار لزائريه ، وأذن له في الشَّفاعة في العصاة والمذنبين ، وهذا تجده واضحاً بيِّناً في كتب المفسِّرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، وكذا في كتب الفقه في باب زيارة قبر الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أو زيارة المدينة المنوَّرة ... انظر ذلك في : المنتقى من مسموعات مرو (ص٢٣٩-٢٤٠) ، مخطوط ، الدرة الثمينة في أخبار المدينة (ص١٥٨-١٦٠) ، الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٦٥-٢٦٦) ، المجموع شرح المهذب (٨/ ٢٧٢-٢٧٤ باختصار) ، الأذكار (ص٣٥٢) ، الشرح الكبير على متن المقنع (٣/ ٤٩٤) ،

الاختيار لتعليل المختار (١/ ١٧٦-١٧٧) ، الذخيرة (٣/ ٣٧٥-٣٧٦) ، الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٣/ ٥١-٥٢) ، إتحاف الزائر وإطراف المقيم للسائر في زيارة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص٥٤-٥٥) ، الممتع في شرح المقنع (٢/ ٢١٤) ، كفاية النبيه في شرح التنبيه (٧/ ٥٣٧-٥٣٨) ، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (١/ ٣٧٠) ، نهاية الأرب في فنون الأدب (٥/ ١٦٩) ، المدخل (١/ ٢٦٠-٢٦٢) ، البحر المحيط في التفسير (٣/ ٦٩٣) ، تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤٧-٣٤٨) ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٢/ ٤٦٢-٤٦٣) ، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع (١٤/ ٦١٥) ، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف (ص٣٤٦-٣٤٧) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٢٥٧) ، المبدع في شرح المقنع (٣/ ٢٣٦) ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١/ ٥٧٠-٥٧١) ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) (٣/ ١٥٥) ، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفىٰ (١/ ٦٦-٦٧) ، (١/ ٣٦٧-٣٧٢) ، (١/ ٤٢٥-٤٢٦) ، (١/ ٤٤٦-٤٥١) ، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٣/ ٥٨٩) ، (٣/ ٥٩٦-٥٩٧) ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١/ ٢٢٥) ، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار (ص٤٩٤) ، سبل الهدىٰ والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد (٣/ ٣١٧) ، (١٢/ ٢٨٠-٢٨٢) ، (١٢/ ٣٨٣-٣٨٤) ، (١٢/ ٣٩٠) ، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس (٢/ ١٧٥-١٧٦) ، معونة أولي النهىٰ ، شرح المنتهىٰ منتهىٰ الإرادات (٤/ ٢٤٧-٢٤٨) ، شرح الشفا (٢/ ٧٣) ، كشاف القناع عن متن الإقناع (٢/ ٢١٥) ، مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح (ص٢٨٤-٢٨٥) ، شرح الزرقاني علىٰ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١٢/ ١٩٩-٢٠٠) ، فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل (منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي ثمَّ شرحه في شرح منهج الطلاب) ، اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (٤/ ٤٥٥) ، مطالب أولي النهىٰ في شرح غاية المنتهىٰ (٢/ ٤٤١) ، نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن (ص١٢) ، إعانة الطالبين علىٰ حل ألفاظ فتح المعين (هو حاشية علىٰ فتح المعين بشرح قرة العين بمهمات الدين) (٢/ ٣٥٧) ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٣/ ٢٠١) ، الموسوعة الفقهية الكويتية) (١٤/ ١٥٧) ...

وفي الحقيقة ، فإنَّ العلماء الذين استشهدوا بقوله تعالىٰ : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، علىٰ جواز التَّوسُّل ، ذاكرين ومستشهدين بقصَّة العتبي هم من الكثرة بمكان ... ومع ذلك لم يرق للبعض ما سارت عليه الأمَّة قروناً طوالاً ، ذلك أنَّه لم يؤثر عن أحد السَّلف أو من الخلف قبل ظهور ابن تيمية أنَّه منع التَّوسُّل بذوات الأموات ، من الأنبياء والصَّالحين ، فراحوا يوردون الشُّبهات والاعتراضات لتوهين الأدلَّة التي استدلَّ بها جمهور الأمَّة علىٰ جواز التَّوسُّل بالذَّوات الفاضلة .

يقول الشَّيخ محمَّد صالح بن محمَّد العثيمين في "شرح رياض الصَّالحين" (٢/٢٥٧-٢٥٨) : " وهذه الآية استدلَّ بها دعاة القُبور !!! الذين يدعون القبور ويستغفرونها !!! حيث قالوا: لأنَّ الله قال لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، فأنت إذا أذنبت ، فأذهب إلىٰ قبر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ، واستغفر الله ليستغفر

لك الرَّسول . ولكن هؤلاء ضلُّوا ضلالاً بعيداً ؛ لأنَّ الآية صريحة قال : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا﴾** ، ولم يقل : إذا ظلموا أنفسهم جاءوك ، فهي تتحدَّث عن شيء مضىٰ وانقضىٰ ، يقول : لو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم بما أحدثوا ، ثمَّ جاءوك في حياتك ، واستغفروا الله ، واستغفر لهم الرَّسول ، لوجدوا الله توَّاباً رحيما ، أمَّا بعد موت الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ؛ فإنَّه لا يمكن أن يستغفر الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لأحد ؛ لأنَّه انقطع عمله ، كما قال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلَّا من ثلاثة : إلَّا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " ، فعمل النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نفسه بعد موته لا يمكن ، لكنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يكتب له أجر كلّ ما عملته الأمَّة ، فكلّ ما عملنا من خير وعمل صالح من فرائض ونوافل ، فإنه يكتب أجره للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ؛ لأنَّه هو الذي علمنا ، فهذا داخل في قوله : " أو علم ينتفع به " . الحاصل أنَّه لا دلالة في هذه الآية علىٰ ما زعمه هؤلاء الدَّاعون لقبر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام" .

وابن عثيمين بكلامه هذا يخالف عموم علماء أمَّة محمَّد ، ويُصرِّح بأنَّهم ضلُّوا ضلالاً بعيداً ، بل هو يخالف الأمَّة التي بيَّن لها ورثة الأنبياء الحقَّ من الباطل ، أولئك الجهابيذ الأساطين الذين جوَّزوا التَّوسُّل واحتجُّوا له بالأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة ... ومن أدلَّتهم : الآية التي أنكر ابن عثيمين أن تكون دليلاً علىٰ التَّوسُّل ، مع العلم أنَّ جلّ المسائل التي خالفوا فيها هي ممَّا عليه الأمَّة ، فهم لا يتورَّعون عن مخالفة الأمَّة ، ويزعمون أنَّهم وحدهم علىٰ الحقِّ ، وأنَّ ما عليه غيرهم هو الباطل ، وسيتبيَّن لك ضلال ابن عثيمين في هذه المسألة من خلال ما عرضَه من دليلٍ علىٰ ما ذهب إليه في كلامه الآتي بعد قليل...

وقد أشاح ابن عبد الهادي في "الصَّارم المنكي في الرَّدِّ علىٰ السُّبكي" (ص٣١٩ فما بعدها) ، والشَّيخ ابن عثيمين بوجهيهما عن استشهادهم ، وزعما أنَّ الاستشهاد بالآية علىٰ جواز التَّوسُّل برسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ليس في محلِّه ، فذهب ابن عبد الهادي إلىٰ تخصيص قوله تعالىٰ : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾** [النساء : ٦٤] ، بما قبل الموت .

والحقيقة أنَّ تخصيص الآية المذكورة بما قبل الموت بدون حُجَّة عن هوىٰ ، وترك المطلق علىٰ إطلاقه ممَّا اتَّفق عليه أهل الحق ، والتّقيد لا يكون إلَّا بحجَّة ، ولا حجَّة هنا لتقيد الآية ، بل فقهاء المذاهب حتىٰ الحنابلة علىٰ شمول الآية لما بعد الموت ، والأنبياء أحياء في قبورهم . انظر : مقالات الكوثري (ص٣٨٧).

والسَّبب أنَّ الآية عامَّة لوقوع الفعل ﴿جَاؤُكَ﴾ في حيِّز الشَّرط الذي يدلُّ على العموم ، فقد تقرَّر في علم الأصول : أنَّ أعلى صيغ العموم ما وقع في سياق الشَّرط . انظر : المسودة في أصول الفقه (ص١٠١ فما بعدها) ، إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول (١/ ٣٠٦) ، تلقيح المفهوم في تنقيح صيغ العموم (ص١٢٦) .

ولذلك فَهِمَ العلماء من الآية العموم ، ونصُّوا على أنَّه يُستحب لمن زار القبر الشَّريف أن يقرأ هذه الآية...

أمَّا الشَّيخ ابن عثيمين فقد ذهب إلى أنَّ استغفار الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعد موته أمرٌ متعذِّر ... فقال في "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين" (٢/ ٣٤٥) : " فإذا قال قائل : جئت إلى الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عند قبره ، وسألته أن يستغفر لي ، أو أن يشفع لي عند الله فهل يجوز ذلك أو لا ؟ قلنا : لا يجوز . فإذا قال : أليس الله يقول : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [النساء : ٦٤] . قلنا له : بلى ، إنَّ الله تعالى يقول ذلك : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ، و ﴿إِذْ﴾ هذه ظرف لما مضى ، وليست ظرفاً للمستقبل ، لم يقل الله : (ولو أنَّهم إذا ظلموا) ، بل قال : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا﴾ ، فالآية تتحدَّث عن أمرٍ واقع في حياة الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، واستغفار الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعد مماته أمرٌ متعذِّر ، لأنَّه إذا مات العبد انقطع عمله إلَّا من ثلاث ، كما قال الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : " صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " . قال الشَّيخ الأرنؤوط : " إسناده صحيح . وأخرجه الدارمي (٥٥٩) ، والبخاري في " الأدب المفرد " (٣٨) ، ومسلم (١٦٣١) (١٤) ، وأبو داود في " السنن " برواية أبي الحسن ابن العبد كما في " تحفة الأشراف " ١٠/ ٢٢١، والترمذي (١٣٧٦) ، وابن أبي الدُّنيا في "العيال" (٤٣٠) ، والنسائي ٦/ ٢٥١، وأبو يعلى (٦٤٥٧) ، وابن خزيمة (٢٤٩٤) ، والطحاوي في " مشكل الآثار " (٢٤٦) ، وابن حبان (٣٠١٦) ، والطبراني في "الدعاء" (١٢٥١) ، والبيهقي في " السنن " ٦/ ٢٧٨، وفي " الشعب " (٣٤٤٧) ، وابن عبد البر في " جامع بيان العلم وفضله " ١/ ١٩٠، والبغوي (١٣٩) من طرق عن إسماعيل بن جعفر بهذا الإسناد . وقال الترمذي : حسن صحيح . وأخرجه أبو داود (٢٨٨٠) ، والدولابي في " الكنى " ١/ ١٩٠، والطحاوي في " مشكل الآثار " (٢٤٧) ، والطبراني في " الدُّعاء " (١٢٥٠) و (١٢٥٢) و (١٢٥٣) و (١٢٥٤) و (١٢٥٥) ، والبيهقي ٦/ ٢٧٨، وابن عبد البر ١/ ١٥ من طرق عن العلاء بن عبد الرَّحمن ، به " . انظر : مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٤/ ٤٣٨ حديث رقم ٨٨٤٤) .

فلا يمكن لإنسان بعد موته أن يستغفر لأحد ، بل ولا يستغفر لنفسه أيضاً ، لأنَّ العمل انقطع" .

هذا ما قاله الشَّيخ محمَّد العثيمين ، وفي كلامه عدَّة مؤآخذات :

(١) أنَّه قصر ﴿إِذْ﴾ على الماضي فقط ، وهذا مجانب للصَّواب فـ ﴿إِذْ﴾ كما تستعمل للماضي تستعمل للمستقبل ، وقد دلَّت على ذلك آيات الكتاب العزيز ، قال الإمام محمَّد بن أحمد بن الأزهري ، أبو منصور

في " تهذيب اللغة (١٥/٣٧) : " الْعَرَب تَضع (إِذْ) للمُستقبل ، و (إذا) للماضي . قَالَ الله عَزّ وجَلّ : **﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾** [سبأ : ٥١] ، مَعْنَاهُ : وَلَو تَرىٰ إِذْ يَفْزعون يومَ الْقِيَامَ " .

قلت : ومن الآيات التي جاء الظَّرف (إِذْ) فيها للمستقبل : **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾** [البقرة : ١٦٦] ، وقوله تعالىٰ : **﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنعام : ٢٧] ، وقوله تعالىٰ : **﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾** [الأنعام : ٣٠] ، وقوله تعالىٰ : **﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾** [الأنعام : ٩٣] ، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة ، وكلُّها تتحدَّث عن أمور مستقبليَّة ...

وهناك العديد من المعاني التي تستعمل فيها (إِذْ) ، استوعبها جميعاً الإمام عبد الله بن يوسف ابن هشام في كتابه : " مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" (١/١١١-١١٩) .

(٢) أنَّه حكم بتعذُّر استغفار رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ... لأنَّه مات ... وهذا خطأ واضح بيِّن ، لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حيٌّ في قبره ، وقد تضافرت الأحاديث الدالَّة علىٰ حياته ، منها:

قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في الحديث الصَّحيح : " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون " ، وغير هذا الحديث كثير ، فإذا انضمَّت هذه الأحاديث إلىٰ صريح ومُحكم آيات الكتاب العزيز التي حكمت بحياة الشَّهيد – والنَّبي أعلىٰ رتبة منه قطعاً – حكمنا بحياته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم .

ثمَّ إنَّ استغفار الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حاصل لجميع المؤمنين سواء منهم من أدرك حياته أو لم يدركها ، قال تعالىٰ : **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾** [محمَّد : ١٩] .

وقد ذكرنا أنَّ جمعاً كبيراً من المفسِّرين فهم من الآية الكريمة العموم ، وهو بلا شك يظهر صحة الاستدلال بالآية الكريمة علىٰ حياته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وأنَّه حيٌّ في قبره يستغفرُ للمستغفرين ، وهذا الفهم هو الذي فهمه جمهور الفقهاء حيث ذكروا الآية في كتب المناسك ، في صفة زيارته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم...

(٣) أمَّا عن قول ابن عثيمين : أنَّ عمله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : انقطع بموته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ... فهذا فيه مغالطة كبيرة ... فعمل النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم ينقطع ، وعمله دائم إلىٰ يوم القيامة ، لأنَّه صَلَّىٰ اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم هو الداعي إلى ما تعمله أُمَّته من الخير ، فجميع الأعمال الصادرة عن الأمَّة راجع ثوابها إليه ، كيف لا وهو القائل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : " مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً . أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٠ برقم ٢٦٧٤) ، أحمد في المسند (٢/ ٣٩٧ برقم ٩١٤٩) ، الدارمي (١/ ٤٤٤ برقم ٥٣٠) ، ابن ماجه (١/ ٧٥ برقم ٢٠٦) ، أبو داود (٤/ ٢٠١ برقم ٤٦٠٩) ، الترمذي (٤/ ٣٤٠ برقم ٢٦٧٤) ، ابن أبي عاصم (١/ ٥٢ برقم ١١٣) ، البزار (١٥/ ٨٥ برقم ٨٣٣٨) ، أبو عوانه في المستخرج (٣/ ٤٩٤ برقم ٥٨٢٣) ، ابن حبان (١/ ٣١٨ برقم ١١٢) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (١/ ٥٧ برقم ٦) ، البيهقي في الاعتقاد (ص٢٣٠) .

وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١/ ١٣٢) : "... فَإِنَّهُ قَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّه قَالَ : " مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً " ، وَهُوَ دَاعِي الأمَّة إِلَى كُلِّ هُدًى ، فَلَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمْ فِي كُلِّ مَا اتَّبَعُوهُ فِيهِ " .

وكذا يردُّ قوله : " واستغفار الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أمر متعذَّر ... ما أوردناه من الأدلَّة على إثبات حياة الأنبياء ، وأنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يدعو ويستغفر للأمَّة ...

ثَانِياً : أَدِلَّةُ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَة :

جاء في السُّنَّة المطهَّرة أدلَّة كثيرة على مشروعيَّة التَّوسُّل إلى الله تعالى بالأنبياء والمُرسلين ، وقد ذكرنا جملة وافرة منها في كتابنا : " مشروعيَّة التَّوسُّل إلى الله تعالى بالأنبياء والصَّالحين " ، وممَّا ذكرناه :

الدَّلِيْلُ الأَوَّلُ : قال الآجري : " حدَّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ ، قَالَ : حدَّثنا أَبُو الْحَارِثِ الْفِهْرِيُّ ، قَالَ : حدَّثني سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو ، قَالَ : حدَّثنا أَبُو عَبْدِ الرَّحمن بْنُ عَبْدِ اللهِّ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ بِنْتِ أَبِي مَرْيَمَ ، قَالَ : حدَّثني عَبْدُ الرَّحمن بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : " لما أَذْنَبَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلام الذَّنْبَ الَّذِي أَذْنَبَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّماء ، فَقَالَ : أَسْأَلُكَ بِحَقِّ محمَّد إِلَّا غَفَرْتَ لِي ، فَأَوْحَى الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ : وَمَا محمَّد ؟ وَمَنْ محمَّد ؟ قَالَ : تَبَارَكَ اسْمُكَ ، لما خَلَقْتَنِي رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى عَرْشِكَ وَإِذَا فِيهِ مَكْتُوبٌ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله محمَّد رَسُولُ اللهِّ ، فَعَلِمْتُ أَنَّه لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ قَدْراً عِنْدَكَ مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ ، فَأَوْحَى الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ : يَا آدَمُ ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ، أَنَّه لَآخِرُ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ ، وَلَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ ، قَالَ محمَّد بْنُ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ الله : وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عبَّاس أَنَّه قَالَ : " مَا خَلَقَ الله وَلَا بَرَأَ

وَلَا ذَرَأَ أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وَمَا سَمِعْتُ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ إِلَّا بِحَيَاتِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر : ٧٢] ، قَالَ : وَحَيَاتِكَ يَا محمَّد ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر : ٧٢] ، وَاللهُ أَعْلَم" . أخرجه الآجري في الشريعة (٣/ ١٤١٥ برقم ٩٥٦) ، الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٦٧٢ برقم ٤٢٢٨) ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَهُوَ أَوَّلُ حَدِيثٍ ذَكَرْتُهُ لِعَبْدِ الرَّحمن بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، ابن كثير في مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم (٢/ ٦٧١) ، البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٨٩) ، وذكره القسطلاني في المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٣/ ٦٠٥) ، وصححه ، وكذا صححه الزرقاني في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١٢/ ٢٢٠) .

وقد ذكر ابن تيمية شاهدين لحديث توسُّل آدم بالرسول محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فقال : " وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ بشران مِنْ طَرِيقِ الشَّيخ أَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ فِي الوفا بِفَضَائِلِ الْمُصْطَفَىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : حدَّثنا أَبُو جَعْفَرٍ محمَّد بْنُ عَمْرٍو ، حدَّثنا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ صَالِحٍ ، ثَنَا محمَّد بْنُ صَالِحٍ ، ثَنَا محمَّد بْنُ سِنَانٍ العوفي ، ثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طهمان ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ سُفْيَانَ ، عَنْ مَيْسَرَةَ ، قَالَ : قُلْت : يَا رَسُولَ اللهَّ مَتَىٰ كُنْت نَبِيّاً ؟ قَالَ : لما خَلَقَ الله الْأَرْض وَاسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَخَلَقَ الْعَرْشَ : كَتَبَ عَلَىٰ سَاقِ الْعَرْشِ : محمَّد رَسُولُ اللهَّ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَخَلَقَ الله الجنَّة الَّتِي أَسْكَنَهَا آدَمَ وَحَوَّاءَ ، فَكَتَبَ اسْمِي عَلَىٰ الْأَبْوَابِ وَالْأَوْرَاقِ وَالْقِبَابِ وَالْخِيَامِ وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوح وَالْجَسَدِ ، فلمَّا أَحْيَاهُ الله تَعَالَىٰ : نَظَرَ إِلَىٰ الْعَرْشِ فَرَأَىٰ اسْمِي ، فَأَخْبَرَهُ الله أَنَّه سيِّد وَلَدِك ، فلمَّا غَرَّهُمَا الشَّيْطَانُ تَابَا وَاسْتَشْفَعَا بِاسْمِي إِلَيْهِ .

وَرَوَىٰ أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ فِي كِتَابِ " دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ " : وَمِنْ طَرِيقِ الشَّيخ أَبِي الْفَرَجِ ، حدَّثنا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ ، ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ رشدين ، ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ الفهري ، ثَنَا عَبْدُ اللهَّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمَدَنِيّ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : " لما أَصَابَ آدَمَ الْخَطِيئَةَ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ بِحَقِّ محمَّد إِلَّا غَفَرْت لِي ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ وَمَا محمَّد ؟ وَمَنْ محمَّد ؟ فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنَّك لما أَتْمَمْت خَلْقِي رَفَعْت رَأْسِي إِلَىٰ عَرْشِك ، فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله محمَّد رَسُولُ اللهَّ ، فَعَلِمْت أَنَّه أَكْرَمُ خَلْقِك عَلَيْك ؛ إِذْ قَرَنْت اسْمَهُ مَعَ اسْمِك . فَقَالَ : نَعَمْ ، قَدْ غَفَرْت لَك وَهُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِك وَلَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُك " . فَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤَيِّدُ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَهُمَا كَالتَّفْسِيرِ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٢/ ١٥٠) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ٢٣-٢٤) .

قال الإمام محمَّد بن علوي المالكي : " فهذا يدلُّ على أنَّ الحديث عند ابن تيمية صالح للاستشهاد والاعتبار ، لأنَّ الموضوع أو الباطل لا يستشهد به عند المحدِّثين ، وأنت ترى أنَّ الشَّيخ استشهد به هنا على التَّفسير "

انظر : مفاهيم يجب أن تصحح (ص١٢٢) .

قلت : والغريب أنَّني بحثت طويلاً في كتاب " دلائل النُّبُّوة " لأبي نعيم ، حيث أحال عليه ابن تيمية ، ولم أجده ، وذلك في نسخة المكتبة الشَّاملة ، وغالب الظنِّ أنَّهم حذفوه منها ... فهذا هو ديدنهم ، كما هو معلوم ... فإلى الله المشتكى.

الدَّلِيْلُ الثَّانِي : قال الإمام أحمد بن محمَّد بن حنبل الشيباني : " حدَّثنا يَزِيدُ ، أَخْبَرَنَا فُضَيْلُ بْنُ مَرْزُوقٍ ، عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – فَقُلْتُ لِفُضَيْلٍ : رَفَعَهُ ؟ قَالَ : أَحْسِبُهُ قَدْ رَفَعَهُ – قَالَ : مَنْ قَالَ حِينَ يَخْرُجُ إِلَى الصَّلاة : اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ ، وَبِحَقِّ مَمْشَايَ فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَراً وَلاَ بَطَرًا ، وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً ، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّار ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي ، أَنَّه لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، وَكَّلَ الله بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ، وَأَقْبَلَ الله عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ صَلاَتِهِ " . أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢١ برقم ١١١٧٣) ، ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٢١١ برقم ٢٩٨١٢) ، ابن الجَعْد في المسند (ص٢٢٩ برقم ٢٠٣١) ، ابن ماجه (١/ ٢٥٦ برقم ٧٧٨) ، الطبراني في الدُّعاء (ص١٤٩ برقم ٤٢١) ، ابن السني في عمل اليوم والليلة سلوك النَّبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد (ص٧٦ برقم ٨٥) ، ابن بشران في الأمالي (ص٣٢٥ برقم ٧٥٣) ، البيهقي في الدعوات الكبير (ص١٢٥ برقم ٢٥) ، الشجري في ترتيب الأمالي الخميسية (١/ ٣٣٢ برقم ١١٧٢) ، والحديث ذكره المحقق الأستاذ محمود سعيد ممدوح في رفع المنارة لتخريج أحاديث التَّوسُّل والزيارة (ص١٧١-١٧٢) ، وقال : وإسناد هذا الحديث من شرط الحسن ، وقد حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ الدمياطي في " المتجر الرابح في ثواب العمل الصَّالح " (ص٤٧١-٤٧٢) ، والحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ الحافظ المنذرى كما في " الترغيب والترهيب " (٣/ ٢٧٣) . والحافظ العراقى في " تخريج أحاديث الاحياء " (١/ ٢٩١) . والحافظ ابن حجر العسقلاني في " أمالى الاذكار " (١/ ٢٧٢) . وقال الحافظ البوصيرى في " مصباح الزجاجة " (١/ ٩٩) : لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده . اهـ . فهؤلاء خمسة من الحفاظ رحمهم الله تعالى صحَّحوا أو حسنوا الحديث وقولهم حقيق بالقبول والوقوف عنده والاذعان إليه ... ثمَّ تكلم في تحسين الحديث بما لا مزيد عليه ...

والحديث صحيح ، وهو دليل على صحَّة القول بجواز التَّوسُّل إلى الله بالعمل الصَّالح ، فهل يليق أن يتوجَّه الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بسؤال الله تعالى بحقِّ السَّائلين ، وهو أكرم الخلق على الله تعالى ، ثمَّ يأتي من يمنع ذلك بحقِّنا ؟!!!

ومعنىٰ قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : " بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ " ، أي : بالحقِّ الذي جعلته لهم عليك من محض فضلك بوعدك الذي لا يخلف . وفيه التَّوسُّل بحقِّ أرباب الخير علىٰ سبيل العموم من السَّائلين ، ومثلهم بالأولىٰ الأنبياء والمرسلون " . انظر : الفتوحات الربانية علىٰ الأذكار النواوية (٢/ ٣٩) .

" وفي الحديث التَّوسُّل بعامَّة المسلمين وخاصَّتهم ، وإدخال الباء في أحد مفعولي السُّؤال إنَّما هو في السُّؤال الاستعلامي ، كقوله تعالىٰ : **﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾** [الفرقان : ٥٩] وَ **﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ﴾** [المعارج : ١] ، وأمَّا السُّؤال الاستعطائي فلا ندخل الباء فيه أصلاً إلَّا علىٰ المتوسّل به ، فدونك الأدعية المأثورة ، فتصوّر إدخالها هنا في المفعول الثَّاني ، إخراج للكلام عن سننه بهوىٰ ، وصيحة باطل تمجُّها الأسماع ، وليس معنىٰ الحق الإجابة ، بل ما يستحقُّه السَّائلون المتضرِّعون فضلاً من الله سبحانه ، فيكون عد " بِحَقِّ السَّائِلِينَ " سؤلاً لهذا الدَّاعي هذياناً محضاً ، ولا سيَّما عند ملاحظة ما عطف عليه في الحديث ، وأمَّا زعم أنَّه ليس في سياق الحديث ما يصلح أن يكون سؤلاً غير ذلك ، فممَّا يثير الضَّحك الشَّديد والهزء المديد ، فأين ذهب عن هذا الزَّاعم " أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّار " ؟ وكم يكرّر الفعل للتَّوكيد ؟ فالسُّؤل في الفعل الأخير هو السُّؤل في الفعلين المتقدِّمين بل لو لم تكن تلك الأفعال من باب التَّوكيد لدخلت في باب التَّنازع ، فيكون هذا القيد معتبراً في الجميع علىٰ كلِّ تقدير " . انظر : مقالات الكوثري ، الكوثري ، (ص٤٢٦) .

قال الإمام يوسف الدّجوي : " فالتّوسُّل بالصَّالحين والدُّعاء ثابت وواقع ، وقد قلنا في بعض ما كتبناه : لا معنىٰ لكون هذا شريكًا ، كما يقوله الغلاة ، فإنَّ الحي إذا طلب من الميّت الّذي هو حي بروحه ، متمتع بلوازم الحياة وخصائصها ، فإنَّما يطلب منه علىٰ سبيل التَّسبُّب والاكتساب ، لا علىٰ سبيل الخلق والإيجاد ؛ لأنَّه ليس من المعقول أن يرفعه عن رتبة الحي ، وهو إذا طلب من الحي فإنَّما يطلب منه علىٰ هذا الوجه ، لا علىٰ جهة الخلق والإيجاد ، والطَّلب من المخلوق علىٰ سبيل التَّسبُّب ليس شركاً ولا كفراً ، فلا معنىٰ لتكفير المسلمين بذلك ، ولو فرضنا أنَّ الميّت لا عمل له ، فإنّ خطأ المنادي أو المستغيث – علىٰ هذا الفرض – إنَّما هو في اعتقاد السَّببيَّة لا الإلهيَّة ، واعتقاد السَّببيَّة في غير الله ليس هو اعتقاد الإلهيَّة كما يظنّه الجاهلون ، وقد عرفت ممَّا قدّمناه أنَّه ليس غَلَطًا أيضًا ، وإنَّما الغالطون هم الغلاة ، وإن كان التَّوسُّل بمنزلته عند الله فالأمر واضح ، لأنَّ الموت لا يغيِّر المنزلة عند الله تعالىٰ " . انظر : التَّوسُّل والاستغاثة ، مقال للإمام الدجوي ، مجلة الأزهر ، الجزء الخامس ، المجلد الثاني ، جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٥٠هـ .

وقد اعترض البعض على الاستدلال بهذا الحديث على جواز التَّوسُّل ، فعمدوا إلى تضعيف الحديث بعلل ثلاث : ضعف الفضيل بن مرزوق ، وعطيَّة العوفي ، والفضل بن الموفَّق " . انظر : التَّوسُّل ، الألباني (ص١٠٢ فما بعدها) ، التوصُّل إلى حقيقة التَّوسُّل (ص٢٢٠ فما بعدها) .

وللردِّ عليهم نقول:

(١) أمَّا عن الفضيل بن مرزوق : فهو من رجال مسلم في صحيحه ، وثَّقه جماعة من الأمَّة ، منهم : العجلي في ثقاته ، (ص ٣٨٤) فقال : " جائز الحديث ثقة " ووثقه السُّفيانان (الثَّوري وابن عيينه) ، وقال ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٤٥) : لفضيل أحاديث حسان ، وأرجو أنَّه لا بأس به . وقال أحمد بن حنبل كما في الجرح (٧/ ٧٥) لا أعلم إلَّا خيراً . ووثَّقه ابن شاهين بإدخاله في الثِّقات (ص١٨٥).

أمَّا إمام الجرح والتَّعديل يحيى ابن معين فقد روى عنه خمسة من أصحابه توثيقه لفضيل بن مرزوق ، وهم : عثمان الدَّارمي ، والدُّوري ، وعبدالخالق بن منصور ، وابن محرز ، وابن خيثمة ، وأدخله الذَّهبي في كتابه (من تُكلِّم فيه وهو موثَّق) (ص١٥١) ، وأطلق الذَّهبي القول في توثيقة في الكاشف (٢/ ٣٣٢) .

ومن الغريب العجيب أنَّ الألباني ضعَّف حديث الفضيل في ضعيفته (١/ ٣٢٣٤) ، ثمَّ عاد وتناقض وحسَّن حديث في الصَّحيحة (٣/ ١٢٨) . انظر : مباحثة السائرين بحديث اللهمَّ إني أسألك بحق السائلين (ص١١ فما بعدها) .

(٢) أما عن العلَّة الثَّانية وهي الكلام في عطيَّة العوفي فقد ضعَّفوه بسبب تدليس الشُّيوخ والتَّشيُّع ، وقد اعتمد من اتَّهم عطيَّة العوفي بتدليس الشُّيوخ على الآتي : قال عبدالله بن أحمد : سمعت أبي ذكر عطيَّة العوفي فقال : هو ضعيف الحديث ، بلغني أنَّ عطيَّة كان يأتي الكلبي يأخذ عنه التَّفسير ، يكنِّيه فيقول : قال أبو سعيد ، قال أبي وكان هشيم يضعف حديث عطيَّة."

وقال عبدالله بن أحمد : حدَّثني أبي ، حدَّثني أبو أحمد الزّبيري ، سمعت الثَّوري قال : سمعت الكلبي قال : كنَّاني عطية بأبي سعيد . وسمعت أبي يقول : كان سفيان الثَّوري يضعِّف حديث عطية العوفي "، كذا في العلل ومعرفة الرِّجال (١/ ١٢٢) والجرح والتَّعديل (٦/ ٣٨٣) ، وضعفاء العقيلي (٣/ ٣٥٩) ، والكامل لأبن عدي (٥/ ٢٠٠٧) .

فأنت ترى أنَّ من ضعَّفه بسبب التَّدليس اعتمد على حكاية الكلبي ، وحكايته هي مدار الجميع ، وحال الكلبي معروف للجميع فهو مُتَّهمٌ بالكذب ، فالسَّند الذي يكون فيه ذلك الرَّجل لا ينظر إليه ، ولا يعتمد عليه في شيء...

وقد أنصف الإمام ابن رجب ، فقال في علل الإمام التِّرمذي (ص٤٧١) بعد نقله أصل الحكاية عن العلل للإمام أحمد ما نصّه : " ولكن الكلبي لا يعتمد علىٰ ما يرويه " . وأمَّا من تكلَّموا عن عطيَّه العوفي لتشيُّعه ، كالجوزجاني فإنَّه قال في أحوال الرِّجال (ص٥٦) :" مائل" والجوزجاني كان معروفاً بالنَّصب مشهوراً به ، حتىٰ قال عنه الحافظ في مقدِّمة اللسان (١/١٦) الحاذق إذا تأمَّل ثلب أبي اسحاق الجوزجاني لأهل الكوفة رأىٰ العجب ، وذلك لشدَّة انحرافه في النَّصب وشهرة أهلها بالتَّشيُّع."

وكذا قول السَّاجي في عطيَّة العوفي كما في التّهذيب (٧/٢٢٦) : " ليس بحجَّة ، وكان يقدِّم عليَّاً علىٰ الكلِّ ، فإنَّ السَّاجي كان بصريَّاً ، والبصريُّون كثر فيهم النَّصب ، قال الحافظ في اللسان (٤/٤٣٩) : " النَّصب معروف في كثير من أهل البصرة " . انظر : مباحثة السائرين بحديث اللهمَّ إني أسألك بحق السائلين (ص٢١ فما بعدها).

وممَّا تجدر الإشارة إليه أنَّ السَّبب الذي لأجله رُمي عطية العوفي بالتَّشيُّع هو حبُّه لعلي ، وأنَّه رفض أن يسبّه ، وقد نصَّ علىٰ ذلك الحافظ ابن حجر في التَّهذيب ، فقال :" خرج عطيَّة مع ابن الأشعث فكتب الحجاج إلىٰ محمَّد بن القاسم أن يعرضه علىٰ سبِّ علي فإن لم يفعل فاضربه أربعمائة سوط ، واحلق لحيته ، فاستدعاه فأبىٰ أن يسبَّ ، فأمضىٰ حكم الحجاج فيه ثمَّ خرج إلىٰ خراسان " . تهذيب التهذيب (٧/ ١٩٥-١٩٦) .

وعليه ، فقد تبيَّن أنَّ إتِّهام عطية العوفي بالتَّدليس ليس صحيحاً ، والتَّشيُّع الحقّ لا علاقة له في الرِّواية ، فالرَّجل صدوق.

(٣) وأما عن الفضل بن الموفَّق فقد قال الكوثري : " هو ابن خال ابن عيينة ، قال أبو حاتم صالح ضعيف الحديث ، ولم يضعِّفه سواه ، وجرحه غير مفسَّر ، بل وافقه البستي " . انظر : هامش مقالات الكوثري (ص٣٩٣).

والحديث رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق ، فهو صحيح عنده ، وذكره رزين ، ورواه أحمد بن منيع في مسنده ، ثنا يزيد ، ثنا فضيل بن مرزوق ، فذكره بإسناده ومتنه.

وقال علاء الدِّين مغلطاي في الإعلام شرح سنن ابن ماجه : ذكره أبو نعيم الفضل " هو ابن دكين " في كتاب الصَّلاة ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري موقوفاً أهـ ولم ينفرد عطية عن الخدري بل تابعه أبو الصدّيق عنه في رواية عبد الحكم بن ذكوان ، وهو ثقة عند ابن حبَّان ، وإن أعلَّه به أبو الفرج في علله.

وأخرج ابن السنّي في " عمل اليوم والليلة " بسند فيه الوازع ، عن بلال ، وليس فيه عطيَّة ، ولا ابن مرزوق ، ولا ابن الموفَّق : " اللهمَّ بحقِّ السَّائلين عليك " ، فظهر أنَّه لم ينفرد عطيَّة ، ولا ابن مرزوق ، ولا ابن الموفَّق بالنَّظر إلىٰ هذه الطُّرق ، علىٰ فرض ضعف الثَّلاثة ، مع أنَّ يزيد بن هارون شيخ أحمد بن منيع شارك ابن الموفَّق في روايته عن ابن مرزوق ، وكذا الفضيل بن دكين ، وابن فضيل ، وسليمان بن حيَّان ، وغيرهم . وعطيَّة جُرح بالتَّشيُّع لكن حسَّن له التِّرمذي عدة أحاديث ، وعن ابن معين أنَّه صالح ، وعن ابن سعد : ثقة إن شاء الله ، وعن ابن عدي : له أحاديث صالحة ، وبعد التَّصريح بالخدري لا يبقىٰ احتمال التَّدليس ، ولا سيَّما مع المتابعة ، وابن مرزوق ترجَّح توثيقه عند مسلم ، فروىٰ عنه في صحيحه...

علىٰ أنَّ الحديث مروي بطريق بلال رضي الله عنه ، فلا تنزل درجة الحديث مهما نزلت عن درجة الاحتجاج به ، بل يدور أمره بين الصحَّة والحسن لكثرة المتابعات والشَّواهد . انظر : مقالات الكوثري (ص٣٩٤).

الدَّلِيْلُ الثَّالِثُ : قال الإمام أحمد بن حنبل : " حدَّثنا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ عُمَارَةَ بْنَ خُزَيْمَةَ ، يُحَدِّثُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ ، أَنَّ رَجُلاً ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فَقَالَ : ادْعُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَنِي ، قَالَ : " إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَاكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ " . فَقَالَ : " ادْعُهُ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ ، فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ ، وَيُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعاء : اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ محمَّد نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يَا محمَّد ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَىٰ رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ ، فَتَقْضِي لِي ، اللهمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ " . قال الشَّيخ الأرنؤوط : " إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، أبو جعفر : هو عمير بن يزيد بن عمير الأنصاري الخطمي ، وهو وعمارة بن خزيمة – وهو ابن ثابت – من رجال أصحاب السنن ، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين ، غير أن عثمان بن حنيف – وهو عم أبي أمامة بن سهل بن حنيف – إنَّما أخرج له البخاري في " الأدب المفرد " وأصحاب السنن سوىٰ أبي داود . عثمان بن عمر : هو ابن فارس العبدي. وأخرجه عبد بن حميد في " المنتخب " (٣٧٩) ، والترمذي (٣٥٧٨) ، والنسائي في " الكبرىٰ " (١٠٤٩٥) ، وهو في " عمل اليوم والليلة " (٦٥٩) ، وابن ماجه (١٣٨٥) ، وابن خزيمة (١٢١٩) ، والحاكم ١/ ٣١٣ و٥١٩ من طرق عن عثمان بن عمر، بهذا الإسناد . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر ، وهو الخطمي . وقال الحاكم : إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ووافقه الذَّهبي.

قلنا : بل في إسناده من لم يخرج له الشيخان ، كما سلف.

وأخرجه الحاكم كذلك ١/ ٥١٩ من طريق محمَّد بن جعفر ، عن شعبة ، به . وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ، ووافقه الذَّهبي.

وأخرجه الطبراني في " الكبير" (٨٣١١/ ٢) من طريق إدريس بن جعفر العطار ، عن عثمان بن عمر ، عن شعبة ، عن أبي جعفر ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن عمه عثمان بن حنيف ، به . قال الدارقطني : إدريس بن جعفر العطار متروك.

وأخرجه بنحوه النسائي في " الكبرىٰ " (١٠٤٩٦) ، وهو في " عمل اليوم والليلة " (٦٦٠) من طريق هشام الدستوائي ، وأخرجه الطبراني في "الكبير" (٨٣١١/ ١) ، وفي " الصغير" (٥٠٨) مطولاً بذكر قصة ، وابن السني في " عمل اليوم والليلة " (٦٣٣) ، والحاكم ١/ ٥٢٦-٥٢٧ من طريق روح بن القاسم ، كلاهما عن أبي جعفر الخطمي ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن عمه عثمان بن حنيف ، به . وقال الحاكم : صحيح علىٰ شرط البخاري ، ووافقه الذَّهبي " . انظر : هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٨/ ٤٧٨-٤٧٩) ، وقد أسهب العلَّامة محمود سعيد ممدوح – حفظه الله – في كلامه علىٰ الحديث في رفع المنارة لتخريج أحاديث التَّوسُّل والزيارة (ص١٢٢ فما بعدها بما لا مزيد عليه).

وقد فهم الصَّحابة رضوان الله عليهم أنَّ العمل بهذا الحديث لم ينقطع بانتقال الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إلىٰ الرَّفيق الأعلىٰ ، لأنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مشرِّع إلىٰ يوم القيامة ، ولذلك فقد وردت زيادة موقوفة عن المرفوعة رواها الطَّبراني وغيره ، قال الطَّبراني : " حدَّثنا طَاهِرُ بْنُ عِيسَىٰ بْنِ قَيْرَسَ الْمُقْرِي الْمِصْرِيُّ التَّمِيمِيُّ ، حدَّثنا أَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ ، حدَّثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ ، عَنْ شَبِيبِ بْنِ سَعِيدٍ الْمَكِّيِّ ، عَنْ رَوْحِ بْنِ الْقَاسِمِ ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْخَطْمِيِّ الْمَدَنِيِّ ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ، عَنْ عَمِّهِ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ " أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عَنْهُ فِي حَاجَةٍ لَهُ ، فَكَانَ عُثْمَانُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَنْظُرُ فِي حَاجَتِهِ ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حَنِيفٍ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ حَنِيفٍ : ائْتِ الْمِيضَأَةَ فَتَوَضَّأْ ، ثمَّ ائْتِ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثمَّ قُلِ: اللهمَّ ، إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا محمَّد صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا محمَّد إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقْضِي لِي حَاجَتِي ، وَتَذْكُرُ حَاجَتَكَ ، وَرُحْ إِلَيَّ حَتَّىٰ أَرُوحَ مَعَكَ ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ ، فَصَنَعَ مَا قَالَ لَهُ عُثْمَانُ ، ثمَّ أَتَىٰ بَابَ عُثْمَانَ ، فَجَاءَ الْبَوَّابُ حَتَّىٰ أَخَذَ بِيَدِهِ ، فَأَدْخَلَهُ عَلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَىٰ الطِّنْفِسَةِ ، وَقَالَ : حَاجَتُكَ ؟ فَذَكَرَ حَاجَتَهُ ، فَقَضَاهَا لَهُ ، ثمَّ قَالَ لَهُ : مَا ذَكَرْتَ حَاجَتَكَ حَتَّىٰ كَانَتْ هَذِهِ السَّاعَةُ ، وَقَالَ : مَا كَانَتْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ، فَأْتِنَا ، ثمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ ، فَقَالَ : لَهُ جَزَاكَ الله خَيْراً ، مَا كَانَ يَنْظُرُ فِي حَاجَتِي ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيَّ حَتَّىٰ كَلَّمْتَهُ فِي ، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ : وَاللهِ ، مَا كَلَّمْتُهُ ، وَلَكِنْ شَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم وَأَتَاهُ ضَرِيرٌ ، فَشَكَا عَلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ ، فَقَالَ: لَهُ النَّبي صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم : " أَفتَصْبِرُ ؟ " ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أنَّه لَيْسَ لِي قَائِدٌ ، وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ ، فَقَالَ لَهُ النَّبي صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم : " ائْتِ الْمِيضَأَةَ ، فَتَوَضَّأْ ، ثمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثمَّ ادْعُ بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ " قَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ : فَوَاللهِ ، مَا تَفَرَّقْنَا وَطَالَ بِنَا الْحَدِيثُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَيْنَا الرَّجُلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضَرَرٌ قَطُّ " . لَمْ يَرْوِهِ عَنْ رَوْحِ بْنِ الْقَاسِمِ إِلَّا شَبِيبُ بْنُ سَعِيدٍ أَبُو سَعِيدٍ الْمَكِّيُّ ، وَهُوَ ثِقَةٌ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَدِّثُ عَنِ أَحْمَدَ بْنِ شَبِيبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ

الْأُبُلِّيِّ ، وَقَدْ رَوَىٰ هَذَا الْحَدِيثَ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْخَطْمِيِّ وَاسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ يَزِيدَ ، وَهُوَ ثِقَةٌ تَفَرَّدَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ بْنِ فَارِسٍ عَنِ شُعْبَةَ ، وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ " . أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٠٦ برقم ٥٠٨) ، الدُّعاء (١/ ٣٢٠ برقم ١٠٥٠) ، المعجم الكبير (٩/ ٣٠ برقم ٨٣١٠) ، البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٦٧) ، الفسوي في مشيخته (ص٩٤ برقم ١١٣) ، الضياء المقدسي في العدة للكرب والشدة (ص٦٥ برقم ٢٩) ، المنذري في الترغيب والترهيب من الحديث الشَّريف (١/ ٢٧٣ برقم ١٠١٨) ، وقال : قال الطبراني بعد ذكر طرقه والحديث صحيح . وقال العلَّامة المحقق محمود سعيد ممدوح بعد نقله تصحيح الرواية : " قلت : لا كلام بعد تصحيح الطبراني للحديث مرفوعاً وموقوفاً . فإن قيل : قد صحَّح الطبراني الحديث المرفوع ، لكنه لم يصحِّح القصَّة الموقوفة . أجيب : بأنَّ الطبراني قد وثق (شبيب بن سعيد الحبطي) ، وهو راوي الموقوف ، وتوثيق حديث الرجل هو تصحيح لحديثه ، فالأمر سهل ولا يحتاج لبيان ، ويؤيد هذا ويوضحه أنَّ الهيثمي في مجمع الزوائد (٢ / ١٧٩) لم يتكلم علىٰ الحديث كما عهد عنه ، ولكنه اقتصر علىٰ نقل تصحيح الطبراني فقط . فتدبَّر أيها المستبصر . ومع ذلك سعىٰ الساعون لتضعيف هذه الزيادة الموقوفة جهد الطاقة ، فأتوا بعلل مزعومة هي : ١ - شيخ الطبراني طاهر بن عيسىٰ مجهول . ٢ - شبيب بن سعيد الحبطي انفرد بالقصة وهو ضعيف الحفظ . ٣ - الاختلاف عليه فيها . ٤ - مخالفته للثقات الذين لم يذكروا القصَّة في الحديث . والثلاثة الاخيرة ذكرها الالباني في توسله (ص ٨٨) ، والناظر فيها لا يراها أكثر من دفعة صدر من متعنت ، وسيرىٰ أنَّ السعي لتضعيف الأحاديث الصحيحة بهذه الحجج الواهية سعي لاقامة باطل بدعائم هي أوهىٰ من بيوت العنكبوت ، ولو فتح هذا المهيع الخطير لانسدَّ بابُ الآثار ، والله المستعان ... ثمَّ شرع في الردِّ علىٰ من ضعَّف الرواية ... " . انظر : رفع المنارة لتخريج أحاديث التَّوسُّل والزيارة (ص١٢٦ فما بعدها) .

وموضع الاستشهاد بهذا الأثر أنَّ الصَّحابي عثمان بن حنيف فَهِمَ من الحديث أنَّه لا يختصُّ بزمن الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بدليل أنَّه " علَّم من شكا إبطاء الخليفة عن قضاء حاجته هذا الدُّعاء الذي فيه التَّوسُّل بالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، والنِّداء له مستغيثاً به بعد وفاته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، ولمَّا ظنَّ الرَّجلُ أن حاجته قُضيت بسبب كلام عثمان مع الخليفة ، بادر ابن حنيف بنفي ذلك الظَّن ، وحدَّثه بالحديث الذي سمعه وشهده ، ليثبت له أنَّ حاجته إنَّما انقضت بتوسُّله به صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وندائه له واستغاثته به ، وأكَّد ذلك له بالحلف أنَّه ما كلَّم الخليفة في شأنه " . انظر : مفاهيم يجب أن تصحَّح (ص١٣٢) .

وقد استدلَّ العلماء بحديث الضَّرير هذا علىٰ جواز التَّوسُّل بالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعد وفاته ، وذلك من وجوه:

الأوَّلُ : أنَّ هذا الحديث وإن كان ورد بسبب سؤال هذا الضَّرير ، فغيره مثله في ذلك للقطع الجازم باستواء النَّاس في الأحكام الشَّرعيَّة.

الثَّانِي : أنَّه وإن كان الخطاب فيه متوجِّهاً إلىٰ الضَّرير ، فهو محمول علىٰ العموم ، للإجماع المتيقن من جميع العلماء علىٰ أنَّ خطابات الشَّارع محمولة علىٰ العموم ، وإن كانت خارجة مخرج الخصوص ، حتىٰ يقوم الدَّلِيْل علىٰ تخصيص شيء منها فيوقف عنده ، وهو هنا مفقود.

الثَّالِثُ : أنَّ الضَّرير سأل النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أن يدعو له ، فعلَّمه النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الدُّعاء المذكور ، فعدوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عن الدُّعاء المطلوب منه إلىٰ تعليمه دعاءً دليل علىٰ أنَّه أراد أن يشرِّع لأُمَّته حكماً عامَّاً لا يختصُّ بواحد منهم دون آخر.

الرَّابِعُ : أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أرشد الضَّرير إلىٰ الصَّلاة والدُّعاء ، والصَّلاة مشروعة لجميع النَّاس بالإجماع ، فكذلك الدُّعاء ، والتَّفريق بينهما تعطيل لبعض الحديث من غير دليل ، وهو تلاعب لا يقبل.

الخَامِسُ : ولو فرضنا أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دعا لهذا الضَّرير ، مع أنَّ الحديث لا يدلُّ علىٰ ذلك أصلاً ، فدعاؤه يدلُّ علىٰ جواز التَّوسُّل في عموم الحالات ، لما تقرَّر في علم الأصول : أنَّ فعل النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لشيء يدلُّ علىٰ جوازه ، لأنَّه لا يفعل المحرَّم ولا المكروه ، ويندب الاقتداء به فيه لقوله تعالىٰ : **﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** [الأحزاب : ٢١] .

السَّادِسُ : أنَّه لو كان الحديث خاصاً بهذا الضَّرير أو بحال الحياة دون الممات ، أو في الحضور دون الغيبة لبيَّن ذلك ، كما بيّن لأبي بردة أنّ الجذعة من المعز تجزئه في الأضحية ، ولا تجزئ أحداً غيره.

السَّابِعُ : أنَّه لو كان الحديث خاصَّاً بهذا الضَّرير أو بحال الحياة دون الممات لبيَّن ذلك ، وإذا لم يبين ذلك لكان قد أخر البيان عن وقت الحاجة وهو ممنوع ، لأنَّه تكليف بما لا يعلم.

الثَّامِنُ : أنَّ عثمان بن حنيف وهو راوي الحديث ، وأعرف بالمراد منه ، حمله علىٰ العموم ، حيث أرشد الرَّجل الذي كانت له حاجة عند عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وطال انتظاره لقضائها إلىٰ الدُّعاء المذكور ، وهذا يؤيِّد ما قدَّمناه.

التَّاسِعُ : أنَّ حُفَّاظ الحديث ونُقَّاده فهموا من حديث الضَّرير العموم ، حيث ترجموا عليه في كتبهم بتراجم تفيد ذلك ، فذكره التِّرمذي والحاكم والبيهقي في كتاب الدَّعوات علىٰ أنَّه من الدَّعوات المأثورة المشروعة ، وذكره ابن ماجه والمنذري والهيثمي في كتاب الصَّلاة ، لأنَّ الصَّلاة المأمور بها فيه داخلة في باب التَّطوُّع والنَّفل ، وذكره النَّووي في باب أذكار صلاة الحاجة علىٰ أنَّه من جملة الأذكار التي تُقال عند عروض الحاجة

، وهذا اتِّفاق منهم علىٰ أنَّ الحديث معمول به ، وأنَّه عامٌّ لجميع النَّاس في جميع الحالات ، ولو كان خاصَّاً بذلك الضَّرير أو بحالة دون أخرىٰ لم يكن لذكرهم له في كتب الأحكام وغيرها فائدة ، ولنبَّهوا علىٰ أنَّه غير معمول به كما نبهوا علىٰ غيره من الأحاديث التي تكون مخصوصة أو منسوخة ، وهذا ظاهر جداً " . انظر : الرد المحكم المتين علىٰ كتاب القول المبين (ص١٥٢-١٥٤ باختصار) .

وقد اعترض مدَّعو السَّلفيَّة علىٰ الاستدلال بحديث عثمان بن حنيف – رضي الله عنه – فـ:

١-زعموا أنَّ أبا جعفر – الذي في سند الحديث – ليس هو الخطمي . بل هو آخر مجهول ... انظر : التوصل إلىٰ حقيقة التَّوسُّل (ص٢٣٦).

والحقّ أنَّ هذا ليس بشيء ، فإنَّه ممَّا وقع في بعض النَّسخ المطبوعة من تصرُّفات النَّاسخين ، وليس من عادة التِّرمذي أن يقول : هو غير فلان ويترك من غير بيان ، علىٰ أنَّ أبا جعفر الرَّاوي عن عمارة بين شيوخ شعبه ، إنَّما هو عمير بن يزيد الخطمي المدني الأصل ثمَّ البصري كما يظهر من كتب الرِّجال المعروفة من مطبوع ومحفوظ . انظر : ترجمته في تهذيب الكمال (٢٢/ ٣٩١) ، تهذيب التهذيب (٨/ ١٢٨) .

وأبو جعفر الرَّازي المتوفَّىٰ سنة (١٦٠هـ) ، من شيوخ شعبه لم يدرك عمارة المتوفَّىٰ سنة (١٠٥هـ) أصلاً ، لأنَّ رحلته إلىٰ الحجاز بعد وفاة عمارة بنحو تسع سنين ، وشعبة شعبة في التثبُّت فيما يروىٰ ، علىٰ أنَّ طرقاً أخرىٰ للحديث عند الطَّبراني وغيرة تنصُّ في صلب السَّند علىٰ أنَّه الخطمي الثِّقة باتِّفاق ، وسند الطَّبراني في هذا الحديث مسوق في " شفاء السَّقام " للتَّقي السُّبكي . انظر : شفاء السقام (ص١٧٦) .

ورجال سند التِّرمذي كلّهم ثقات ، وإنَّما سمَّاه غريباً انفراد عثمان بن عمر عن شعبة ، وانفراد أبي جعفر عن عمارة ، وهما ثقتان باتِّفاق ، وكم من حديث صحيح ينفرد به أحد الرُّواة كحديث " إنَّما الأعمال بالنيَّات " . وسمّاه حسناً أيضاً لتعدُّد طرقة بعد أبي جعفر وعثمان بن عمر ، وتسميته صحيحاً باعتبار تكامل أوصاف الصحَّة في رواته . انظر : مقالات الكوثري (ص٣٩٠) .

وقال الإمام الغماري :" ولعلَّ زيادة لفظ (غير) سهو من التِّرمذي رحمه الله ، وإلَّا فأبو جعفر هو الخطمي ، كما صرَّح به ابن أبي خيثمة والطَّبراني وغيرهما.

وقال ابن تيمية ما نصّه :" هكذا وقع في التِّرمذي ، وسائر العلماء قالوا : هو ابو جعفر الخطمي ، وهو الصَّواب " . انظر : الرد المحكم المتين (ص١٤٣) .

وعلَّق حمدي السَّلفي على الحديث فقال : " لا شكَّ في صحَّة الحديث المرفوع ، وإنَّما الشَّكُّ في هذه القصَّة (أي : قصَّة إرشاد عثمان بن حنيف لمن جاء إليه يطلب منه التَّوسُّط له عند سيِّدنا عثمان بن عفاء لقضاء حاجته) التي يستدلُّ بها على التَّوسُّل المبتدع ، وهي انفرد بها شبيب كما قال الطَّبراني ، وشبيب لا بأس بحديثه ، بشرطين : أن يكون من رواية ابنه أحمد عنه ، وأن يكون من رواية شبيب عن يونس بن يزيد . والحديث رواه عن شبيب ابن وهب وولداه إسماعيل وأحمد، وقد تكلَّم الثِّقات في رواية ابن وهب عن شبيب ، في شبيب ، وابنه إسماعيل لا يعرف ، وأحمد وإن روى القصَّة عن أبيه إلَّا أنَّها ليست من طريق يونس بن يزيد ، ثمَّ اختلف فيها على أحمد ، ورواه ابن السنِّي في عمل اليوم والليلة ، والحاكم من ثلاثة طرق بدون ذكر القصَّة ، ورواه الحاكم من طريق عون بن عمارة البصري عن روح بن القاسم به ، قال شيخنا محمَّد ناصر الدِّين الألباني : وعون هذا وإن كان ضعيف فروايته أولى من رواية شبيب لموافقتها لرواية شعبة وحماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي " . انظر : هامش المعجم الكبير للطبراني ، (٩/ ١٧) ، الجمهورية العراقية ، وزارة الأوقاف ، مطبعة الأمَّة ، بغداد.

وللرَّدِّ عليه نقول:

أ‌-لقد اشتمل كلام السّلفي والألباني على الكذب والخيانة ، حيث كتما ما قاله الإمام الحاكم في شبيب ، فقد كتما قوله : والقول فيه قول شبيب ، فإنَّه ثقة مأمون " . انظر : المستدرك على الصحيحين (١/ ٧٠٧) .

ب‌-هذه القصَّة رواها البيهقي في " دلائل النُّبوَّة " من طريق يعقوب بن سفيان ، حدَّثنا أحمد بن شبيب بن سعيد ، ثنا أبي ، عن روح بن القاسم ، عن أبي جعفر الخطمي ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن عمِّه عثمان بن حنيف ، أنَّ رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذكر القصَّة بتمامها " . انظر : دلائل النبوة (٦/ ١٦٦-١٦٧) .

ويعقوب بن سفيان هو الفسوي الحافظ الإمام الثِّقة ، بل هو فوق الثِّقة ، وهذا إسناد صحيح البخاري ، ومعنى ذلك أنَّها صحيحة ، وهذا الذي يوافق كلام الحافظ ، ويبطل ما استنبطه الألباني من كلام الحافظ في مقدمة فتح الباري فليتأمل .

ج- أنَّ الحفَّاظ أيضاً صحَّحوا هذه القصَّة ، كالمنذري في التَّرغيب والتَّرهيب (١ / ٤٧٦) بإقراره للطَّبراني ، والهيثمي في مجمع الزَّوائد (٢/ ٢٧٩) .

د–أحمد بن شبيب من رجال البخاري ، روىٰ عنه في الصَّحيح ، وفي الأدب المفرد . ووثَّقه أبو حاتم الرَّازي وكتب عنه هو وأبو زرعة ، وقال ابن عدي : وثقه أهل البصرة وكتب عنه علي ابن المديني.

وأبوه شبيب بن سعيد التَّميمي الحبطي البصري أبو سعيد من رجال البخاري أيضاً ، روىٰ عنه في الصَّحيح وفي الأدب المفرد . ووثقه أبو زرعة وأبو حاتم والنِّسائي والذّهلي والدَّارقطني والطَّبراني في الأوسط . قال أبو حاتم : كان عنده كتب يونس بن زيد ، وهو صالح الحديث لا بأس به . وقال ابن عدي : ولشبيب نسخة الزُّهري عنده عن يونس عن الزُّهري أحاديث مستقيمة.

وقال ابن المديني: ثقة كان يختلف في تجارة إلىٰ مصر وكتابه كتاب الصَّحيح . هذا ما يتعلَّق بتوثيق شبيب وليس فيه اشتراط صحَّة روايته بأن تكون عن يونس بن يزيد . بل صرَّح ابن المديني بأنَّ كتابه صحيح ،وابن عدي إنَّما تكلم عن نسخة الزُّهري عن شبيب فقط ولم يقصد جميع رواياته ، فما ادَّعاه الألباني تدليس وخيانة ، يؤكِّد ذلك أنَّ حديث الضَّرير صحَّحه الحفَّاظ ولم يروه شبيب عن يونس عن الزُّهري !! وإنَّما رواه عن روح بن القاسم ودعواه ضعف القصَّة بالاختلاف فيها حيث لم يذكرها بعض الرُّواة عند ابن السنِّي والحاكم لون ءاخر من التَّدليس لأن من المعلوم عند أهل العلم أنَّ بعض الرُّواة يروي الحديث وما يتَّصل به كاملا وبعضهم يختصر منه بحسب الحاجة والبخاري يفعل هذا أيضاً ، فكثيراً ما يذكر الحديث مختصراً ويوجد عند غيره تاماً . والذي ذكر القصَّة في رواية البيهقي إمام فذّ يقول عنه أبو زرعة الدِّمشقي : قدمَ علينا رجلان من نبلاء النَّاس أحدهما وارحلهما يعقوب بن سفيان يعجز أهل العراق أن يَرَوا مثلَه رجلاً.

وتقديمه رواية عون الضَّعيف علىٰ من زاد القصَّة لون ثالث من التَّدليس والغش ، فإنَّ الحاكم روىٰ حديث الضَّرير من طريق عون مختصراً ثمَّ قال: تابعه شبـيب بن سعيد الحَبَطي عن روح بن القاسم زيادات في المتن والإسناد والقول فيه قول شبيب فإنَّه ثقة مأمون ، هذا كلام الحاكم ، وهو يؤكِّد ما تقرَّر عند علماء الحديث والأصول أنَّ زيادة الثِّقة مقبولة ، وأنَّ من حفظ حجَّة علىٰ من لم يحفظ . انظر : إرغام المبتدع (ص١٣–١٤) .

هـ– أنَّ لم ينقل الألباني عن حافظ واحد أنَّه نصَّ علىٰ تضعيف القصَّة مع ملاحظة هؤلاء الحفَّاظ من الأئمَّة الأعلام كالمنذري والهيثمي وغيرهما لم ينصُّوا علىٰ أنَّ هذا بدعة أو ... انظر : هامش إرغام المبتدع (ص١٤) .

و- أنَّه ليس من المعقول أن يجمع الحفاظ علىٰ تصحيح حديث في سنده مجهول ، خصوصا الذَّهبي ، والمنذري ، فمحاولة بعض العصريِّين لتضعيف الحديث مقضيٌّ عليها بالفشل الكبير ، فالحديث صحيح بلا شكٍّ وهو يدلُّ علىٰ جواز التَّوسُّل بالنَّبي صَلَّىٰ الله عليه وءاله وَسَلَّم في جميع الحالات وفي سائر الأوقات.

ويكفي لبيان ذلك هنا أن نقول : أنَّ العلماء فهموا الحديث علىٰ العموم كما هو الواجب في نصوص الشَّارع ، فأورده التِّرمذي في كتاب الدَّعوات من سننه ، والحاكم في الدُّعاء من مستدركه ، والبيهقي في كتاب الدَّعوات ، وهو مؤلَّف خاصٌّ ، معتبرين له جملة الأدعية المشروعة المأثورة ، وأورده ابن ماجه في كتاب الصَّلاة من سننه وكذا فعل المنذري في " التَّرغيب والتَّرهيب " والهيثمي في " مجمع الزَّوائد " معتبرين الصَّلاة فيه والدُّعاء من جملة النَّوافل المطلوبة ، وأورده النَّووي في أذكار الحاجة من كتاب " الأذكار " معتبراً له من جملة الأذكار التي تُقال عند عروض حاجة ، وإرادة قضائها ، وأورده غير هؤلاء كابن خزيمة في صحيحه المرتَّب علىٰ الكتب والأبواب ، وهذا اتفاق منهم علىٰ أنَّ الحديث معمول به في سائر الأوقات والأزمان ، ولو كان خاصَّاً بذلك الضَّرير أو بحالة دون حالة أو بوقت دون وقت لم يكن لذكرهم له في كتب الأحكام وغيرها فائدة ، أو لنبَّهوا علىٰ أنَّه خاصٌّ ليس بعامّ كما فعلوا في غيره من الأحاديث التي تكون خاصَّة ببعض الحالات . انظر : إرغام المبتدع (ص١٣-١٦).

وقد صرَّح ابن تيمية في " مجموع الفتاوىٰ" (١/ ٢٦٤) أنَّ السَّلف دعوا بهذا الدُّعاء ، فقال : " فَهَذَا الدُّعاء وَنَحْوُهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّه دَعَا بِهِ السَّلف ، وَنُقِلَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي مَنْسَكِ المروذي التَّوسُّل بالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الدُّعاء ."

فابن تيمية أقرَّ بأنَّ الدُّعاء بلفظ : اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا محمَّد صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يَا محمَّد إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ ... قد فعله السَّلف ، ومع ذلك لم ينصع للحق بعدما تبيَّن ، وأبىٰ إلا تكفير المتوسِّلين إلىٰ الله بجاه نَبِيِّنَا محمَّد صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، فإلىٰ الله المشتكىٰ.

فمن خلال ما تقدَّم علمنا يقيناً أنَّ الأمَّة كلها تقول بالتَّوسُّل ، وقد سارت علىٰ ذلك قروناً عديدة ، ولم يؤثر عن أحد من السَّلف أو من الخلف قبل ظهور ابن تيمية أنَّه منع التَّوسُّل بذوات الأموات من الأنبياء والصَّالحين .

فلم يخالف في التَّوسُّل إلَّا شرذمة قليلة تمرَّدت علىٰ الدِّين وعلىٰ العباد والبلاد ، شرذمة قليلة أصمَّت آذانها عن كلمة الحق ، وعميت عيونها عن مشاهدته مع وضوحه كالشَّمس في رابعة النَّهار ، وهم بإنكارهم التَّوسُّل يرمون أئمة المذاهب وأساطين العلم وجهابيذه طيلة القرون السَّابقة وكذا القرون اللاحقة بالشِّرك والكفر والابتداع ، مع أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، قال : " لَا يَجْمَعُ الله أُمَّتِي عَلَىٰ ضَلَالَةٍ أَبَداً ، وَيَدُ اللهِّ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ هَكَذَا ، فَاتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ ، فَإِنَّهُ مَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّار " . أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٩٠ برقم ٣٩٦) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (١/ ١١٨ برقم ١٥٤) ، الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (١/ ٤٢٢) ...

وفيما يلي ملخَّص لأسماء من نقلنا عنهم التَّوسُّل في كتابنا : " **إِتْحَافُ العَالَمِيْن بِمَشْرُوْعِيَّةِ التَّوَسُّل إِلَى الله بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْن"** ، ناقلين مقرِّين معتقدين به من غير نكير ، أو قائلين به ، أو عاملين به ... فمن الذين نقلنا عنهم القول بالتَّوسُّل واعتقاده من غير نكير:

أبو عبيدة عامر بن الجرَّاح (١٨هـ) ، عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ (٧٣هـ) ، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (٨٠هـ) ، عبد الملك بن حَبِيب بن حبيب بن سليمان بن هارون السّلمي الإلبيري القرطبي ، أبو مروان (٢٣٨هـ) ، أبو عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل بن هلال بن أسد الشَّيباني (٢٤١هـ) ، سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) ، عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ (٨٦هـ) ، أبو محمَّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروري الدِّينوري (٢٧٦هـ) ، أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدُّنيا (٢٨١هـ) ، وقال الإمام أبو بكر أحمد بن مروان الدِّينوري المالكي (٣٣٣هـ) ، محمَّد بن حبَّان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ ، التميمي ، أبو حاتم ، الدَّارمي ، البُستي (٣٥٤هـ) ، محمَّد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ ، التَّميمي ، أبو حاتم ، الدَّارمي ، البُستي (٣٥٤هـ) ، أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السَّمرقندي (٣٧٣هـ) ، أبو بكر محمَّد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (٣٨٠هـ) ، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النُّعمان بن دينار البغدادي الدَّارقطني (٣٨٥هـ) ، أبو حيان التوحيدي ، علي بن محمَّد بن العبَّاس (٤٠٠هـ) ، أبو عبد الله الحاكم محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطّهماني النَّيسابوري المعروف بابن البيع (٤٠٥هـ) ، منصور بن الحسين الرَّازي ، أبو سعد الآبىٰ (٤٢١هـ) ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني (٤٣٠هـ) ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني ، أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ)

، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (٤٦٣هـ) ، أبو معين الدِّين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي (٤٨١هـ) ، أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ) ، أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطُّوسي (٥٠٥هـ) ، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسرو ، أبو شجاع الديلميّ الهمذاني (٥٠٩هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن هبة الله العلوي الحسيني أبو جعفر الأفطسي الطرابلسي (المتوفى: بعد ٥١٥هـ) ، أبو محمَّد القاسم بن علي الحريري (٥١٦هـ) ، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمَّد بن محمَّد (٥٢٦هـ) ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (٥٧١هـ) ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (٥٧٨هـ) ، عبد الحق بن عبد الرَّحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي ، الأندلسي الأشبيلي ، المعروف بابن الخراط (٥٨١هـ) ، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد الجوزي (٥٩٧هـ) ، عماد الدِّين الكاتب الأصبهاني ، محمَّد بن محمَّد صفي الدِّين بن نفيس الدِّين حامد ، أبو عبد الله (٥٩٧هـ) ، علي بن أبي بكر بن علي الهروي ، أبو الحسن (٦١١هـ) ، شَرَفُ الدِّين ، عَلِيُّ بنُ المُفَضَّلِ بنِ عَلِيِّ بنِ مُفَرِّجِ بنِ حَاتِمِ بنِ حَسَنِ بنِ جَعْفَرٍ المَقْدِسِيّ (٦١١هـ) ، ابن جبير ، محمَّد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، أبو الحسين (٦١٤هـ) ، موفق الدِّين أبو محمَّد بن عبد الرَّحمن ، ابن الشَّيخ أبي الحرم مكّي بن عثمان الشارعي الشَّافعي (٦١٥هـ) ، نصير الدِّين محمَّد بن عبد الله السَّامري الحنبلي (٦١٦هـ) ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (٦١٦هـ) ، أبو محمَّد جلال الدِّين عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار الجذامي السَّعدي المالكي (٦١٦هـ) ، أبو محمَّد موفق الدِّين عبد الله بن أحمد بن محمَّد ، الشهير بابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ) ، عبد الكريم بن محمَّد بن عبد الكريم ، أبو القاسم الرافعي القزويني (٦٢٣هـ) ، شهاب الدِّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٦هـ) ، علي بن محمَّد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي ، أبو الحسن ابن القطان (٦٢٨هـ) ، محمَّد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع ، أبو بكر ، معين الدِّين ، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (٦٢٩هـ) ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمَّد بن محمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ، عز الدِّين ابن الأثير (٦٣٠هـ) ، سليمان بن موسى الكلاعي ، أبو الربيع (٦٣٤هـ) ، أبو عبد الله محمَّد بن سعيد ابن الدبيثي (٦٣٧هـ) ، المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإِربلي ، المعروف بابن المستوفي (٦٣٧هـ) ، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو ، تقي الدِّين المعروف بابن الصلاح (٦٤٣هـ) ، محمَّد بن

ناماور بن عبد الملك الخونجى، أبو عبد الله ، أفضل الدِّين (٦٤٦هـ) ، عبد الْعَظِيم بن عبد القوىٰ بن عبد الله بن سَلامَة الْحَافِظ زكىٰ الدِّين أَبُو محمَّد المنذرىٰ القيرواني ثمَّ المصرىٰ الشَّافعي (٦٥٦هـ) ، ابن الأبار ، محمَّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (٦٥٨هـ) ، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي ، كمال الدِّين ابن العديم (٦٦٠هـ) ، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدِّين ، أبو العبَّاس ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ) ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدِّين القرطبي (٦٧١هـ) ، ابن الحداد محمَّد بن منصور بن حبيش (المتوفى: بعد ٦٧٣هـ) ، أبو زكريا محيي الدِّين يحيىٰ بن شرف النووي (٦٧٦هـ) ، أبو العبَّاس شمس الدِّين أحمد بن محمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (٦٨١هـ) ، عفيف الدِّين اليافعي الشَّافعي (٦٨٣هـ) ، أبو العبَّاس ، أحمد بن عبد الله بن محمَّد ، محب الدِّين الطَّبري (٦٩٤هـ) ، محب الدِّين أحمد بن عبد الله الطَّبري (٦٩٤هـ) ، شرف الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن سعيد البوصيري (٦٩٦هـ) ، محمَّد بن مكرم بن علىٰ ، أبو الفضل ، جمال الدِّين ابن منظور الأنصاري الرويفعىٰ الإفريقىٰ (٧١١هـ) ، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطُّوفي الصرصري ، أبو الرَّبيع ، نجم الدِّين الطُّوفي (٧١٦هـ) ، الإمام عماد الدِّين بن العطَّار (٧٢٤هـ) ، الشَّمْس كَمَال الدِّين الزملكاني محمَّد بن عَليّ بن عبد الْوَاحِد الشَّيخ الإِمَام العلَّامة الْمُفْتِي قَاضِي الْقُضَاة ذُو الْفُنُون جمال الْإِسْلَام كَمَال الدِّين أَبُو الْمَعَالِي ابْن الزّملكاني الْأَنْصَارِيّ السماكي الدِّمشقي كَبِير الشَّافِعِيَّة (٧٢٧هـ) ، محمَّد بن يوسف بن يعقوب ، أبو عبد الله ، بهاء الدِّين الجُنْدي اليمني (٧٣٢هـ) ، أحمد بن عبد الوهَّاب بن محمَّد بن عبد الدَّائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدِّين النويري (٧٣٣هـ) ، أبو حفص عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري المالكي، تاج الدِّين الفاكهاني (٧٣٤هـ) ، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن محمَّد العبدري الفاسي المالكي الشَّهير بابن الحاج (٧٣٧هـ) ، أبو القاسم ، محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله ، ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) ، يوسف بن عبد الرَّحمن بن يوسف ، أبو الحجاج ، جمال الدِّين ابن الزكي أبي محمَّد القضاعي الكلبي المزّي (٧٤٢هـ) ، عثمان بن علي بن محجن البارعي ، فخر الدِّين الزيلعي الحنفي (٧٤٣هـ) ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدِّمشقي الحنبلي (٧٤٤هـ) ، تقي الدِّين أبو الفتح السُّبكي (٧٤٤هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن علي بن همام أبو الفتح ، تقيّ الدِّين ، المعروف بابن الإِمَام (٧٤٥هـ) ، شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذَّهبي (٧٤٨هـ) ، محمَّد بن إبراهيم بن ساعد

الأنصاري السّنجاري البخاري ، المعروف بابن الإكفاني (٧٤٩هـ) ، أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله القرشي العدوي العمري ، شهاب الدِّين (٧٤٩هـ) ، تقي الدِّين أحمد بن محمَّد بن علي الأدمي (كان حياً قبل ٧٤٩هـ) ، عمر بن علي بن عمر القزويني ، أبو حفص ، سراج الدِّين (٧٥٠هـ) ، تقي اللدين علي بن عبد الكافي السُّبكي (٧٥٦هـ) ، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الواحد ابن عبد المنعم الطرسوسي، نجم الدِّين الحنفي (٧٥٨هـ) ، جمال الدِّين أبو محمَّد عبد الله بن يوسف بن محمَّد الزيلعي (٧٦٢هـ) ، محمَّد بن مفلح بن محمَّد بن مفرج ، أبو عبد الله ، شمس الدِّين المقدسي الرامينىٰ ثمَّ الصالحي الحنبلي (٧٦٣هـ) ، أبو عبدالله شمس الدِّين محمَّد بن مفلح بن محمَّد المقدسي، ثمَّ الصالحي الرَّاميني، شيخ الحنابلة في وقته (٧٦٣هـ) ، محمَّد بن مفلح بن محمَّد بن مفرج ، أبو عبد الله، شمس الدِّين المقدسي الرامينىٰ ثمَّ الصالحي الحنبلي (٧٦٣هـ) ، صلاح الدِّين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (٧٦٤هـ) ، محمَّد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرَّحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدِّين (٧٦٤هـ) ، شمس الدِّين أبو المحاسن محمَّد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدِّمشقي الشَّافعي (٧٦٥هـ) ، خالد بن عيسىٰ بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي ، أبو البقاء (المتوفىٰ: بعد ٧٦٧هـ) ، الإمام أبو محمَّد عفيف الدِّين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (٧٦٨هـ) ، أحمد بن محمَّد بن علي الفيومي ثمَّ الحموي ، أبو العبَّاس (٧٧٠هـ) ، تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) ، أحمد بن علي بن عبد الكافي ، أبو حامد ، بهاء الدِّين السُّبكي (٧٧٣هـ) ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي (٧٧٤هـ) ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي (٧٧٤هـ) ، عبد القادر بن محمَّد بن نصر الله القرشي ، أبو محمَّد ، محيي الدِّين الحنفي (٧٧٥هـ) ، خليل بن إسحاق بن موسىٰ، ضياء الدِّين الجندي المالكي المصري (٧٧٦هـ) ، محمَّد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل ، الغرناطي الأندلسي ، أبو عبد الله ، الشهير بلسان الدِّين ابن الخطيب (٧٧٦هـ) ، لسان الدِّين بن الخطيب ، محمَّد بن عبد الله (٧٧٦هـ) ، محمَّد بن عبد الرَّحمن بن عمر بن محمَّد بن عبد الله ، أبو حامد ، جمال الدِّين الحبيشي الوَصَابي الشَّافعي (٧٨٦هـ) ، علي بن محمَّد بن أحمد بن موسىٰ ابن مسعود ، أبو الحسن ابن ذي الوزارتين ، الخزاعي (٧٨٩هـ) ، سعد الدِّين التفتازاني الشَّافعي (٧٩١هـ) ، إبراهيم بن علي بن محمَّد ، ابن فرحون ، برهان الدِّين اليعمري (٧٩٩هـ) ، ابن الملقّن سراج الدِّين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشَّافعي المصري (٨٠٤هـ) ، أبو الفضل زين الدِّين عبد الرحيم بن الحسين

بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (٨٠٦هـ) ، كمال الدِّين ، محمَّد بن موسىٰ بن عيسىٰ بن علي الدَّمِيري أبو البقاء الشَّافعي (٨٠٨هـ) ، عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمَّد، ابن خلدون أبو زيد ، ولي الدِّين الحضرمي الإشبيلي (٨٠٨هـ) ، أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب ، أبو العبَّاس القسنطيني ، ابن قنفذ (٨١٠هـ) ، علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن ابن وهاس الخزرجي الزبيدي ، أبو الحسن موفق الدِّين (٨١٢هـ) ، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثمَّ القاهري (٨٢١هـ) ، تقي الدِّين أبي بكر الحصني الدِّمشقي الشَّافعي (٨٢٩هـ) ، محمَّد بن أحمد بن علي ، تقي الدِّين ، أبو الطيِّب المكِّي الحسني الفاسي (٨٣٢هـ) ، شمس الدِّين أبو الخير ابن الجزري ، محمَّد بن محمَّد بن يوسف (٨٣٣هـ) ، ابن حجة الحموي ، تقي الدِّين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (٨٣٧هـ) ، محمَّد بن عبد الله أبي بكر بن محمَّد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدِّمشقي الشَّافعي ، شمس الدِّين ، الشهير بابن ناصر الدِّين (٨٤٢هـ) ، شمس الدِّين محمَّد بن عمار بن محمَّد بن أحمد المصري المالكي المعروف بابن عمار (٨٤٤هـ) ، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العبَّاس الحسيني العبيدي ، تقي الدِّين المقريزي (٨٤٥هـ) ، عبد الرَّحمن بن محمَّد بن عَليّ بن أبي بكر بن عَليّ بن محمَّد بن أبي بكر ابْن عبد الله بن عمر بن عبد الرَّحمن بن عبد الله أَبُو محمَّد النَّاشِرِيّ (٨٤٨هـ) ، شمس الدِّين محمَّد بن كميل المنصوري الشَّافعي (٨٤٨هـ) ، أبو بكر بن أحمد بن محمَّد بن عمر بن قاضي شهبة (٨٥١هـ) ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشَّافعي (٨٥٢هـ) ، شهاب الدِّين محمَّد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (٨٥٢هـ) ، لأبي العبَّاس أحمد بن يحي الوانشريسي المالكي (٨٥٤هـ) ، أبو محمَّد محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) ، كمال الدِّين محمَّد بن عبد الواحد السِّيواسي المعروف بابن الهمام (٨٦١هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن محمَّد ، أبو الفضل تقي الدِّين ابن فهد الهاشمي العلويّ الأصفوني ثمَّ المكيّ الشَّافعي (٨٧١هـ) ، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظَّاهري الحنفي ، أبو المحاسن ، جمال الدِّين (٨٧٤هـ) ، أحمد بن إبراهيم بن محمَّد بن خليل ، موفق الدِّين ، أبو ذر سبط ابن العجمي (٨٨٤هـ) ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (٨٨٥هـ) ، علاء الدِّين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الصَّالحي الحنبلي (٨٨٥هـ) ، أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي، زين الدِّين الزَّبيدي (٨٩٣هـ) ، عبد الرَّحمن بن عبد السَّلام الصَّفُّوري (٨٩٤هـ) ، شهاب الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن أحمد بن محمَّد بن عيسىٰ البرنسي الفاسي، المعروف بـ زروق (٨٩٩هـ) ، إبراهيم بن محمَّد بن

محمود بن بدر ، برهان الدِّين ، أبو إسحاق الحلبي القبيباتي الشَّافعي الناجي (٩٠٠هـ) ، شمس الدِّين أبو الخير محمَّد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد بن أبي بكر بن عثمان بن محمَّد السَّخاوي (٩٠٢هـ) ، الحسين بن صديق بن الأهدل (٩٠٣هـ) ، عبد الوهَّاب بن عبد الرَّحمن البريهي السكسكي اليمني (٩٠٤هـ) ، علي بن يوسف بن علي بن أحمد، علاء الدِّين الدِّمشقي العاتكي الشَّافعي الشَّهير بالبصروي (٩٠٥هـ) ، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي ، جمال الدِّين ، ابن المِبْرَد الحنبلي (٩٠٩هـ) ، السيوطي (٩١١هـ) ، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني السَّمهودي (٩١١هـ) ، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشَّافعي ، نور الدِّين أبو الحسن السَّمهودي (٩١١هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن أحمد الغزال الدِّمشقي ، بدر الدِّين ، الشَّهير بسبط المارديني (٩١٢هـ) ، محمَّد بن قاسم بن محمَّد بن ، أبو عبد الله ، شمس الدِّين الغزي ، ويعرف بابن قاسم وبابن الغرابيلي (٩١٨هـ) ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن محمَّد بن علي بن غازي العثماني المكناسي (٩١٩هـ) ، زين الدِّين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدِّين خليل بن شاهين الظَّاهري الملطيّ ثمَّ القاهري الحنفيّ (٩٢٠هـ) ، إبراهيم بن موسىٰ بن أبي بكر ابن الشَّيخ علي الطَّرابلسي ، الحنفي (٩٢٢هـ) ، أحمد بن محمَّد بن أبىٰ بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري (٩٢٣هـ) ، زكريا بن محمَّد بن أحمد بن زكريا الأنصاري ، زين الدِّين أبو يحيىٰ السنيكي (٩٢٦هـ) ، محمَّد بن عمر بن مبارك الحميري الحضرمي الشَّافعي ، الشهير بـ " بَحْرَق " (٩٣٠هـ) ، أبو جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي (٩٣٨هـ) ، علي بن خلف المنوفي المالكي المصري أبو الحسن المالكي (٩٣٩هـ) ، محمَّد بن يوسف الصالحي الشامي (٩٤٢هـ) ، شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمن الطَّرابلسي المغربي ، المعروف بالحطَّاب الرُّعيني المالكي (٩٥٤هـ) ، شهاب الدِّين أحمد بن حمزة الأنصاري الرملي الشَّافعي (٩٥٧هـ) ، موسىٰ بن أحمد بن موسىٰ بن سالم بن عيسىٰ بن سالم الحجاوي المقدسي ، ثمَّ الصالحي ، شرف الدِّين ، أبو النَّجا (٩٦٨هـ) ، طاش كبري زادة (٩٦٨هـ) ، زين الدِّين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (٩٧٠هـ) ، أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري ، شهاب الدِّين شيخ الإسلام ، أبو العبَّاس (٩٧٣هـ) ، علاء الدِّين علي بن حسام الدِّين ابن قاضي خان القادري الشَّاذلي الهندي البرهانفوري ثمَّ المدني فالمكي الشَّهير بالمتَّقي الهندي (٩٧٥هـ) ، شمس الدِّين ، محمَّد بن أحمد الخطيب الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) ، عبد الباسط بن موسىٰ بن محمَّد بن إسماعيل العلموي ثمَّ الموقت الدِّمشقي الشَّافعي (٩٨١هـ) ، أحمد بن قاسم العبادي (٩٩٢هـ) ، شمس الدِّين

محمَّد بن أبي العبَّاس أحمد بن حمزة شهاب الدِّين الرَّملي (١٠٠٤هـ) ، تقي الدِّين بن عبد القادر التَّميمي الدَّاري الغزي (١٠١٠هـ) ، أبو السَّعد زين الدِّين منصور بن أبي النصر بن محمَّد الطَّبَلاوي ، سبط ناصر الدِّين محمَّد بن سالم (١٠١٤هـ) ، علي بن سلطان محمَّد ، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ) ، زين الدِّين محمَّد المدعو بعبد الرَّؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدَّادي ثمَّ المناوي القاهري (١٠٣١هـ) ، أبو العبَّاس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمَّد أقيت بن عمر بن علي بن يحيىٰ التكروري ، التنبكتي (١٠٣٦هـ) ، أبو المواهب بن محمَّد بن علي البكري الصديقي المصري الشَّافعي (١٠٣٧هـ) ، محي الدِّين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس (١٠٣٨هـ) ، أبو محمَّد عبد الواحد بن أحمد بن علي ابن عاشر الأنصاري ، المعروف بابن عاشر (١٠٤٠هـ) ، شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد بن أحمد بن يحيىٰ ، أبو العبَّاس المقرِّي التِّلمساني (١٠٤١هـ) ، منصور بن يونس بن صلاح الدِّين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (١٠٥١هـ) ، محمَّد بن علَّان الصدِّيقي الشَّافعي (١٠٥٧هـ) ، مصطفىٰ بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (١٠٦٧هـ) ، حسن بن عمار بن علي الشرنبلالي المصري الحنفي (١٠٦٩هـ) ، شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد بن عمر الخفاجي (١٠٦٩هـ) ، محمَّد أحمد الخطيب الشوبري الشَّافعي (١٠٦٩هـ) ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد ميارة الفاسي (١٠٧٢هـ) ، عبد الرَّحمن بن محمَّد بن سليمان المدعو بشيخي زاده ، يعرف بداماد أفندي (١٠٧٨هـ) ، محمَّد بن علي بن محمَّد الحِصْني المعروف بعلاء الدِّين الحصكفي الحنفي (١٠٨٨هـ) ، عبد الحي بن أحمد بن محمَّد ابن العماد العَكري الحنبلي ، أبو الفلاح (١٠٨٩هـ) ، عبد القادر بن عمر بن بايزيد بن أحمد البغدادي (١٠٩٣هـ) ، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله الخرشي المالكي الخرشي (١١٠١هـ) ، الحسن بن مسعود بن محمَّد، أبو علي ، نور الدِّين اليوسي (١١٠٢هـ) ، محمَّد أمين بن فضل الله بن محب الدِّين بن محمَّد المحبي (١١١١هـ) ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (١١١١هـ) ، أحمد بن محمَّد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ ، شهاب الدِّين الشهير بالبناء (١١١٧هـ) ، علي بن أحمد بن محمَّد معصوم الحسني الحسيني ، الشهير بابن معصوم (١١١٩هـ) ، محمَّد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري (١١٢٢هـ) ، إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولىٰ أبو الفداء (١١٢٧هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن أحمد البديري الحسيني ، الدمياطيّ الأشعري الشَّافعي ، أبو حامد (١١٤٠هـ) ، محمَّد بن عيسىٰ بن محمود بن كنان الحنبلي (١١٥٣هـ) ، محمَّد بن

محمَّد بن مصطفىٰ بن عثمان ، أبو سعيد الخادمي الحنفي (١١٥٦هـ) ، إسماعيل بن محمَّد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدِّمشقي ، أبو الفداء (١١٦٢هـ) ، حسين بن محمَّد المحلي الشَّافعي المصري (١١٧٠هـ) ، أحمد بن علي بن عمر بن صالح المنيني (١١٧٢هـ) ، أبو الحسن علي بن خليفة بن رزق الله بن عبد الواحد بن علي المساكني (١١٧٢هـ) ، أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي (١١٨٩هـ) ، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري ، المعروف بالجَمَل (١٢٠٤هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزَّبيدي الشَّهير بمرتضىٰ (١٢٠٥هـ) ، محمَّد خليل بن علي بن محمَّد بن محمَّد مراد الحسيني ، أبو الفضل (١٢٠٦هـ) ، أبو عبد الله الطالب محمَّد بن أبي بكر الصدِّيق البرتلي الولاتي (١٢١٩هـ) ، سليمان بن محمَّد بن عمر البجيرمي الشَّافعي (١٢٢١هـ) ، أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) ، محمود بن سعيد مقديش الملقَّب بأبي الثَّناء الصفاقسي (١٢٢٨هـ) ، أحمد بن محمَّد بن إسماعيل الطَّحطاوي الحنفي (١٢٣١هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن أحمد بن عبد القادر بن عبد العزيز السَّنَباوي الأزهري ، المعروف بالأمير (١٢٣٢هـ) ، عبد الرَّحمن بن حسن الجبرتي المؤرخ (١٢٣٧هـ) ، أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد الخلوتي ، الشَّهير بالصاوي المالكي (١٢٤١هـ) ، مصطفىٰ بن سعد بن عبده السُّيوطي شهرة ، الرحيبانىٰ مولداً ثمَّ الدِّمشقي الحنبلي (١٢٤٣هـ) ، محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) ، محمَّد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدِّمشقي الحنفي (١٢٥٢هـ) ، أحمد بن محمَّد بن علي بن إبراهيم الأنصاري الشرواني (١٢٥٣هـ) ، علي بن عبد السَّلام بن علي ، أبو الحسن التُّسُولي المالكي (١٢٥٨هـ) ، شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٢٧٠هـ) ، نصر أبو الوفاء ابن الشَّيخ نصر يونس الوفائي الهوريني الأحمدي الأزهري الأشعري الحنفي الشَّافعي (١٢٩١هـ) ، عبد الغني الغنيمي الحنفي (١٢٩٨هـ) ، محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش ، أبو عبد الله المالكي (١٢٩٩هـ) ، عبد الحميد المكي الشَّرواني (١٣٠١هـ) ، أبو الطيب محمَّد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) ، أبو بكر (المشهور بالبكري) بن محمَّد شطا الدِّمياطي (١٣١٠هـ) ، محمَّد بن أحمد بن عبدالله متولي (١٣١٣هـ) ، شهاب الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن خالد بن محمَّد النَّاصري الدّرعي الجعفري السلاوي (١٣١٥هـ) ، محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليماً ، التناري بلداً (١٣١٦هـ) ، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدِّمشقي (١٣٣٥هـ) ، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمَّد بن أبي الثَّناء الألوسي (١٣٤٢هـ) ، أبو

إسحاق إبراهيم بن أحمد بن سليمان المارغني التُّونسي المالكي (١٣٤٩هـ) ، يوسف بن إسماعيل بن يوسف النَّبْهَاني (١٣٥٠هـ) ، كامل بن حسين بن محمَّد بن مصطفى البالي الحلبي ، الشَّهير بالغزي (١٣٥١هـ) ، محمَّد بخيت المطيعي الحنفي (١٣٥٤هـ) ، أبو عبد الله محمَّد المكي البطاوري (١٣٥٥هـ) ، أبو الفيض عبد السَّتَّار بن عبد الوهَّاب البكري الصدِّيقي المكِّي الحنفي (١٣٥٥هـ) ، الحسن بن محمَّد بن الغَسَّال الطَّنجي (١٣٥٨هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (١٣٦٠هـ) ، مصطفى وهيب بن إبراهيم البارودي (١٣٦٢هـ) ، عبدالله بن محمَّد الغازي المكي الحنفي ، (١٣٦٥هـ) ، محمَّد زاهد الكوثري (١٣٧١هـ) ، محمَّد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير ابن محمَّد الحسني الإدريسي ، المعروف بعبد الحي الكتَّاني (١٣٨٢هـ) ، محمَّد عميم الإحسان المجدِّدي البركتي (١٣٩٥هـ) ، عبد القادر بن ملّا حويش السيِّد محمود آل غازي العاني (١٣٩٨هـ) ، حسن بن محمَّد المشاط المالكي (١٣٩٩هـ) ، عبد السَّلام بن عبد القادر بن محمَّد بن عبد القادر بن الطَّالب بن محمَّد ابن سودة (١٤٠٠هـ) ، محمَّد عبد الله عنان المؤرِّخ المصري (١٤٠٦هـ) ، علي بن مصطفى الطَّنطاوي (١٤٢٠هـ) ، إحسان عبَّاس (١٤٢٤هـ) ، محمَّد إبراهيم محمَّد سالم (١٤٣٠هـ) ، أبو عبد الله محمَّد عبد القادر بن محمَّد بن المختار بن أحمد العالم القبلوي الجزائري المالكي الشَّهير بالَّشيخ باي بلعالم (١٤٣٠هـ) ، محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) ، محمَّد سعيد رمضان البوطي () ، بالإضافة إلى أغلب دور الإفتاء في العالمين : العربي والإسلامي ......

الجواب :

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب :

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب :

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب :

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب:

سُؤالٌ:

الجواب :

﴿سُؤالٌ﴾ : أَيُّهُمَا أَفْضَلُ : الأَنْبِيَاءُ وَالمُرسلُوْن أَمْ المَلَائِكَةُ ؟

الجواب : حاصل جواب هذا السُّؤال ينتظم في النِّقاط التَّالية"

أَوَّلاً : أجمع المسلمون على أنَّ سيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل المخلوقات على الإطلاق علويَّة كانت أو سفليَّة ، قال الإمام محمَّد بن جعفر الكتَّاني في "جلاء القلوب" (٢/ ٢٤٠-٢٤١) بعد أن ذكر أنَّ الخلاف في المفاضلة بين الملائكة والنَّبيين مخصوص بغير نبيِّنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أمَّا هو – أي النَّبي – فالإجماع كما ذكره فخر الدِّين الرَّازي ، وأبو عبد الله الأُبِّي ، وغيرهما على أنَّه أفضل من المخلوقات على الإطلاق ، وأجلّهم عند الله ، وأكملهم بطريق العموم والاستغراق . وفي نظمٍ محصِّل المقاصد في كلامه على الأنبياء:

وإنَّهم أفضـــــــــل في الأصحِّ	من الملائكـــــــــــة دون قـدح
نبيّنـا ذا الخلق لا يشملـــــــــــه	ومن يعمِّمــه يخصّ
قلت كما يظهر في الأبكــــــــــار	قولـــــــــــه
نبيّنـا أفضــل بالإطبـــــــــــاق	للآمدي يـرد بالأقطـــــــــــــار
	من كلِّ مخلـــــــوق على الإطلاق

وفي أرجوزة علم الكلام لسيِّدي حمدون بن الحاج السّلمي المرداسي:

الرُّســــــــل أفضل من الملائك	والمصطفى أفضل من أولئـــــــك
هو أجلّ مـــــــــا اختفى وظهر	انعقد الإجمــــــــــاع فيه واشتهر

وقال الدُّكتور البوطي في " كبرىٰ اليقينيَّات الكونيَّة" (ص١٩٩) : " لا ريب أنَّ أفضل الخلق على الإطلاق هو نبيّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو ما أجمع عليه المسلمون قاطبة " .

وقد تناول هذا الأمر علماء الأمَّة في منظوماتهم وأشعارهم...

قال الإمام اللقَّاني في جوهرته:

وأفضل الخلق على الإطلاق	نبيّنا فمِل عن الشِّقــاق

وقال صاحب الدرَّة المضيّة:

وأفضل العالم من غير امترا	نبيّنا المبعوث في أمِّ القرىٰ

..نَبِيُّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ

وقال الإمام محمَّد بن أحمد بن سالم السَّفاريني الحنبلي في " غذاء الألباب شرح منظومة الآداب" (١/ ١٥) : " وَلا شَكَّ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الْخَلائِقِ تَفْصِيلا وَجُمْلا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : مَا خَلَقَ خَلْقًا وَلا بَرَأَهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفِي أَبِي نُعَيْمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلا فَخْرَ . وَرَوَى الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا قَالَ : أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ" ، وَنَحْوُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَالأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ ."

وقال الإمام سليمان البُجَيْرَمِيّ الشَّافعي في " تحفة الحبيب على شرح الخطيب " (١/ ٣٦) : " أَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ نَبِيُّنَا إجْمَاعًا، ثُمَّ الْخَلِيلُ، ثُمَّ الْكَلِيمُ، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ نُوحٌ، ثُمَّ بَاقِي الْمُرْسَلِينَ، ثُمَّ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الرُّسُلُ مِنْ الْمَلَائِكَــــةِ، ثُمَّ بَاقِيهِمْ، ثُمَّ صُلَحَاءُ الْمُؤْمِنِينَ. وَالتَّفْضِيلُ إمَّا لِكَثْرَةِ الثَّوَابِ أَوْ كَثْرَةِ الْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ، فَنَبِيُّنَا أَفْضَــــــلُ مِنْ جَمِيعِهِمْ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا بِمَعْنَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْعَالَمِ ." ...

وقال الإمام ابن تيمية في " منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة" (٢/ ٤١٧) : " وَالْأَنْبِيَاءُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ."

وجاء في فتاوى الإمام محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش (١/ ٤٠-٤١) : " (مَا تَقُولُ) فِي سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ هُنَاكَ مَخْلُوقٌ أَفْضَلُ مِنْهُ وَإِذَا قُلْت لَا مَخْلُوقَ أَفْضَلَ مِنْهُ فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ مَخْلُوقًا أَفْضَلُ مِنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا الْحُكْمُ فِيهِ ؟

فَأَجَبْتُ بِمَا نَصُّهُ : الْحَمْدُ للهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلِ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِنْ بَاقِي الْمَخْلُوقِينَ مِنْ الْإِنْسِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَشَاعَتْ أَفْضَلِيَّتُهُ وَذَاعَتْ ، وَصَارَتْ كَالْمَعْلُومَاتِ الضَّرُورِيَّةِ حَتَّى عِنْدَ الْعَوَّامِ فَإِنَّ الْمُؤَذِّنِينَ يَصْرُخُونَ بِهَا عَلَى الْمَآذِنِ لَيْلًا وَنَهَارًا وَصَبَاحًا وَمَسَاءً وَالْمَدَّاحِينَ كَذَلِكَ فِي الْأَزِقَّةِ وَالطُّرُقِ ، وَدَلَائِلُ الْخَيْرَاتِ مَشْحُونَةٌ بِذَلِكَ وَنُسَخُهَا كَثِيرَةٌ وَقِرَاءَتُهَا فِي مَسَاجِدِ الْجَمَاعَاتِ بِرَفْعِ الْأَصْوَاتِ شَهِيرَةٌ فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ اعْتِقَادُهَا وَمَنْ لَمْ يَعْتَقِدْهَا وَجَحَدَهَا بَعْدَ التَّعْلِيمِ فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ فَيُسْتَتَابُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنْ تَابَ نَجَا وَإِلَّا قُتِلَ بِالسَّيْفِ قَالَ الْبُرْهَانُ اللَّقَانِيُّ فِي شَرْحِ قَوْلِهِ فِي جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ : وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ نَبِيُّنَا فَمِلْ عَنْ الشِّقَاقِ أَفْضَلِيَّتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَأَقَامَ عَلَيْهِ قَوَاطِعَ الْأَدِلَّةِ الْمُحَقِّقُونَ قَالَ الْبَدْرُ

الزَّرْكَشِيُّ وَهُوَ مُسْتَثْنًى مِنَ الْخِلَافِ فِي التَّفْضِيلِ بَيْنَ الْمَلَكِ وَالْبَشَرِ ثُمَّ قَالَ اللَّقَانِيُّ صَرِيحُ كَلَامِهِمْ وَظَوَاهِرُهُ كَقَوْلِ النَّوَوِيِّ لَا بُدَّ مِنِ اعْتِقَادِ التَّفْضِيلِ مُفِيدَةٌ لِوُجُوبِهِ وَانْظُرْ مَا حُكْمُ مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْهُ كَذَلِكَ فَإِنِّي لَا أَسْتَحْضِرُهُ الْآنَ وَلَا يَبْعُدُ تَفْسِيقُهُ وَتَبْدِيعُهُ إنْ أَصَرَّ عَلَيْهِ بَعْدَ الْعِلْمِ وَأَمَّا خَرْقُ الْإِجْمَاعِ فَفِيهِ مَا يَأْتِي انْتَهَى .

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلَامِ فِي هِدَايَةِ الْمُرِيدِ لِجَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ وَاجِبُ الِاعْتِقَادِ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ عَلَى مَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِ كَلَامِهِمْ ، وَصَرَّحَ بِهِ بَعْضُهُمْ وَلَفْظُ النَّوَوِيِّ وَلَا بُدَّ مِنِ اعْتِقَادِ التَّفْضِيلِ انْتَهَى . وَلَا شَكَّ فِي عِصْيَانِ مُنْكِرِهِ وَتَبْدِيعِهِ وَتَأْدِيبِهِ."

ثانياً : اخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ عَلَى أَقْوَال:

قال الإمام البيهقي في "شُعب الإيمان" (٣٠٦/١) : " وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ قَدِيمًا، وَحَدِيثًا فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْبَشَرِ فَذَهَبَ ذَاهِبُونَ إِلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنَ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَوْلِيَاءُ مِنَ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْمَلَأَ الْأَعْلَى مُفَضَّلُونَ عَلَى سُكَّانِ الْأَرْضِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ وَجْهٌ."

وقال الإمام ابن عادل في " اللباب "(٥٢٩/١-٥٣٠) : " فصل في بيان أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة:

قال أكثر أهل السُّنَّة: الأنبياء أفضل من الملائكة. وقالت المعتزلة: الملائكة أَفْضَلُ من الأنبياء، وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني وأبي عبد الله الحليميّ."

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح" (٣٨٦/١٣) : " الْمَعْرُوفَ عَنْ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ صَالِحِي بَنِي آدَمَ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ ، وَالَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ الْفَلَاسِفَةُ ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةُ وَقَلِيلٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَبَعْضِ أَهْلِ الظَّاهِرِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَاضَلَ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ ، فَقَالُوا : حَقِيقَةُ الْمَلَكِ أَفْضَلُ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّهَا نُورَانِيَّةٌ وَخَيِّرَةٌ وَلَطِيفَةٌ مَعَ سَعَةِ الْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ وَصَفَاءِ الْجَوْهَرِ."

وقال الإمام السُّيوطي في " الحبائك في أخبار الملائك " (ص٢٠٣-٢٠٤) : " مسألة: في التَّفضيل بين الملائكة والبشر : اعلم أنَّ هنا ثلاث صور:

الأُوْلَى: التَّفضيل بين الأنبياء والملائكة، وفي هذه ثلاثة أقوال:

أَحَدُهَا: أنَّ الأنبياء أفضل وعليه جمهور أهل السُّنَّة واختاره الإمام فخر الدِّين في " الأربعين " وفي " المحصِّل"

وَالثانِي : أنَّ الملائكة أفضل وعليه المعتزلة واختاره من أئمَّة السُّنَّة الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني والقاضي أبو بكر الباقلاني والحاكم والحليمي والإمام فخر الدِّين في العالم وأبو شامة.

وَالثَّالِثُ : الوقف ، واختاره الكيا الهراسي ومحلُّ الخلاف في غير نبيِّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أمَّا هو فأفضل الخلق بلا خلاف ، لا يفضل عليه مَلَكٌ مقرَّب ولا غيره، كذا ذكره الشَّيخ تاج الدِّين بن السُّبكي في " منع الموانع" ، والشَّيخ سراج الدِّين البلقيني في منهج الأصلين "، والشَّيخ بدر الدِّين الزّركشي في شرح " جمع الجوامع "، وقال: إنَّهم استثنوه، وإنَّ الإمام فخر الدِّين نقل في تفسيره الإجماع علىٰ ذلك.

الصُّورة الثَّانِيَةُ: التَّفضيل بين خواصِّ الملائكة، وأولياء البشر، وهم من عدا الأنبياء وهذه الصُّورة لا نعلم فيها خلافاً أنَّ خواصّ الملائكة أفضل، وقد نقل الشَّيخ سعد الدِّين التَّفتازاني في " شرح العقائد" الإجماع علىٰ ذلك، لكن رأيت عن طائفة من الحنابلة أنَّهم فضلوا أولياء البشر علىٰ خواصِّ الملائكة وخالفهم ابن عقيل من أئمَّتهم وقال: إنَّ في ذلك شناعة عظيمة عليهم.

الصُّوْرَةُ الثَّالِثَةُ: التَّفضيل بين أولياء البشر وغير الخواصّ من الملائكة، وفي هذه قولان :

أَحَدُهُمَا: تفضيل جميع الملائكة علىٰ أولياء البشر، وجزم به ابن السُّبكي في "جمع الجوامع" وفي منظومته، وذكر البلقيني في منهجه أنَّه قول أكثر العلماء.

والثَّاني: تفضيل أولياء البشر علىٰ أولياء الملائكة، وجزم به الصفَّار من الحنفيَّة في أسئلته، والنَّسفي منهم في عقائده، وذكر البلقيني أنَّه المختار عند الحنفيَّة، ومال إلىٰ بعضه وهو أنَّه قد يوجد من أولياء البشر من هو أفضل من غير الخواصّ من الملائكة."

ثَالِثَاً : أَدِلَّةُ القَائِلِيْنَ بِتَفْضِيْلِ صَالِحِي البَشَرِ عَلَى المَلَائِكَة:

استدلَّ القائلون بتفضيل صالحي البشر علىٰ الملائكة بالعديد من الأدلَّة ، منها:

الدَّلِيْلُ الأَوَّلُ : قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** [البقرة:٣٠] .

قال الإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوىٰ" (٤/ ٣٦٧) : " قَوْلُهُ : **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ تَفْضِيلِ الْخَلِيفَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَوَّلُهُمَا : أَنَّ الْخَلِيفَةَ يُفَضَّلُ عَلَىٰ مَنْ هُوَ خَلِيفَةٌ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ وَهَذَا غَايَتُهُ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَىٰ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ .

وَثَانِيهِمَا : أَنَّ الْمَلَائِكَةَ طَلَبَتْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِخْلَافُ فِيهِمْ وَالْخَلِيفَةُ مِنْهُمْ حَيْثُ قَالُوا : **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾** الْآيَةَ. فَلَوْلَا أَنَّ الْخِلَافَةَ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ أَعْلَىٰ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ لَمَّا طَلَبُوهَا وَغَبَطُوا صَاحِبَهَا."

الدَّلِيْلُ الثَّانِي: قوله تعالىٰ : قوله تعالىٰ : **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [البقرة:٣١] .

قال الإمام السَّمعاني في " تفسير القرآن "(١/ ٦٥) : " وَإِنَّمَا علمه ذَلِك تكريماً وتشريفاً لَهُ. وَذَلِكَ دَلِيل علىٰ أَنَّ الْأَنْبِيَاء أفضل من الْمَلَائِكَة وَإِن كَانُوا رسلًا كَمَا ذهب إِلَيْهِ أهل السُّنَّة."

وقال الإمام البغوي في " معالم التَّنزيل في تفسير القرآن " (١/ ١٠٣) : " فَأَظْهَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ بِالْعِلْمِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِنْ كَانُوا رُسُلًا كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ " .

وقال الإمام الخازن في " لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل " (١/ ٤٧) : " وفيه دليل لمذهب أهل السُّنَّة أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلاً " .

وقال الإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوىٰ" (٤/ ٣٦٨) : " تَفْضِيلُ بَنِي آدَمَ عَلَيْهِمْ بِالْعِلْمِ حِينَ سَأَلَهُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِلْمِ الْأَسْمَاءِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ؛ وَاعْتَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَهَا فَأَنْبَأَهُمْ آدَمَ بِذَلِكَ؛ وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾** .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي في " اللباب في علوم الكتاب " (١/ ٥٣٦) : " : " أنَّ آدم – عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ – كان أعلم، والأعلم أفضل، أما أنَّه أعلم فلأنَّه – تعالىٰ – لَمَّا طلب منهم علم الأسماء **﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ﴾** [البقرة: ٣٢] فعند ذلك قال الله : **﴿يَآءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾** [البقرة: ٣٣] وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ آدم – عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ – كان عالماً بما لم يكونوا عالمين به، والعالم أَفْضَلُ لقوله تعالىٰ : **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ﴾** [الزمر: ٩] .

وقال الإمام السُّيوطي في " الحبائك في أخبار الملائك " (ص٢٠٨) : ضمن استدلاله علىٰ أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة : " الحجَّة الثَّانية: أنَّ آدم عليه السَّلام كان أعلم من الملائكة، والأعلم أفضل، بيان الأوَّل قوله تعالىٰ : وَعَلَمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَها ﴿إلىٰ قوله﴾ : قَالوا سُبحانَكَ لا عِلمَ لَنَا إلاّ ما عَلَمَتَنا إنّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيم [البقرة: ٣١ – ٣٢] ، وبيان الثَّاني : **﴿هَل يَستَوي الّذينَ يَعلَمَونَ وَالّذينَ لا يَعلَمُون﴾** [الزمر: ٩] .

الدَّلِيْلُ الثَّالِثُ : قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾** [البقرة:٣٤] ، فقالوا بأنَّ الله تعالىٰ أمر الملائكة بالسُّجود لآدم عليه السَّلام ، ولا شكَّ في أنَّ المسجود له أفضل من السَّاجد ...

ومن أقوال العلماء في ذلك:

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير " (٢/ ٤٣٠) : " اعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِنَا يَحْتَجُّونَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ لِلْمَلَائِكَةِ بِسُجُودِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَنَّ آدَمَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَرَأَيْنَا أن نذكر هاهنا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَنَقُولُ: قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ: الْأَنْبِيَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ بَلِ الْمَلَائِكَةُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الشِّيعَةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتِيَارُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَّا وَأَبِي عَبْدِ اللهِ الْحَلِيمِيِّ مِنْ فُقَهَائِنَا ."

قال الإمام الخازن في " لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل " (١/ ٤٨) : " ... وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السُّنَّة في تفضيل الأنبياء علىٰ الملائكة."

قال الإمام ابن عادل الحنبلي في " اللباب في علوم الكتاب " (١/ ٥٣٦) : " أنَّ الله تعالىٰ أمر الملائكة بالسُّجود لآدم، وثبت أنَّ آدم لم يكن كالقِبْلَةِ، فوجب أن يكون آدم أفضل منهم؛ لأنَّ السُّجود نهايَةَ التَّواضُعِ، وتكليف الأشرف بنهاية التَّواضُعِ للأَدْوَنِ مُسْتَقْبَحٌ في العقول " .

وثانيها: أن آدم – عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ – خليفةٌ له، والمراد منه خلافة الولاية لقوله : **﴿يَا دَاوُوْدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ الناس بالحق﴾** [ص: ٢٦] .

وقال الإمام السُّيوطي في " الحبائك في أخبار الملائك " (ص٢٠٧-٢٠٨) : ضمن استدلاله علىٰ أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة : " الحجَّة الأولىٰ: أنَّ آدم عليه السَّلام كان مسجود الملائكة، والمسجود أفضل من السَّاجد، فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يقال: السَّجدة كانت لله تعالىٰ، وآدم كالقبلة؟ سلَّمنا أنَّ السَّجدة كانت لآدم، لكن لم يجوز أن يكون المراد من السَّجدة التَّواضع والتَّرحيب؟ قال الشَّاعر :

ترىٰ الأكم فيها سجدا للحوافر

سلَّمنا أنَّ السَّجدة عبارة عن وضع الجبهة علىٰ الأرض، لكن لا نسلِّم أنَّ هذا غاية التَّواضع، لأنَّ هذا قضيَّة عرفيَّة، والقضايا العرفيَّة يجوز أن تختلف باختلاف الأزمنة، فلعلَّ العرف في ذلك الوقت أنَّ من سلَّم علىٰ غيره وضع جبهته علىٰ الأرض، وتسليم الكامل علىٰ غيره أمر معتاد، والجواب عن الأسئلة الثَّلاثة: أنَّ

ذلك السُّجود لو لم يكن دالّاً على زيادة منصب المسجود على السَّاجد، لما قال إبليس : **﴿أَرَأَيْتَكَ هَذا الَّذِي كَرَمتَ عَلَيَّ﴾** [الإسراء: ٦٢] ، فإنه لم يوجد شيء آخر يصرف هذا الكلام إليه سوى هذا السُّجود، فدلَّ ذلك على أنَّ ذلك السُّجود اقتضى ترجيح منصب المسجود له على السَّاجد" .

وقال الإمام القاسمي في " محاسن التَّأويل " (١/ ٢٩٠) : " فإنَّ أهل السُّنَّة قالوا: ... صالح البشر أفضل من الملائكة، واحتجُّوا بسجود الملائكة لآدم " .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي في " التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم " (١/ ٩٨) : " إن أهل السُّنَّة قالوا: ... الصَّالحون من البشر أفضل من الملائكة، واحتجُّوا بسجود الملائكة لآدم."

الدَّليل الرَّابعُ : قوله تعالى : **﴿إِنَّ الله اصطفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العالمين﴾** [آل عمران: ٣٣]

قال الإمام ابن عادل الحنبلي في " اللباب في علوم الكتاب " (١/ ٥٣٦) : " والعَالَم عبارة عن كلِّ ما سوى الله – تعالى – فمعناه أنَّ الله – تعالى – اصطفاهم على المخلوقات.

فإن قيل: يُشْكل بقوله تعالى : **﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا نِعْمَتِي التِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِيْن﴾** [البقرة: ٤٧] .

قلنا: الإشكال مدفوع؛ لأنَّ قوله : **﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾** خطاب مع الأنبياء الذين كانوا أسلاف اليهود، وحينما كانوا موجودين لم يكن محمَّد – عليه الصَّلاة والسَّلام – موجوداً في ذلك الزَّمان، والمعدوم لا يكون من العالمين؛ لأنَّ اشتقاق العالم من العَلَم فكلّ ما كان عَلَماً على الله ودليلاً عليه فهو عالم، وإذا كان كذلك لم يلزم اصْطِفاء الله إيَّاهم على العالمين في ذلك الوقت أن يكونوا أفضل من محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ ، والملائكة كانوا موجودين، فيلزم أن يكون الله – تعالى – قد اصطفى هؤلاء على الملائكة، وأيضاً فهب أن تلك دَخَلَها التَّخصيص لقيام الدَّليل، وها هنا فلا دليل يوجب ترك الظَّاهر، فوجب إجراؤه على ظاهره في العموم."

وقال الإمام السُّيوطي في " الحبائك في أخبار الملائك " (ص٢٠٩-٢١٠) : ضمن استدلاله على أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة : " والعالم عبارة عن كلِّ ما سوى الله، والآل: يُراد به الرَّجل نفسه فيبقى معمولاً في حقِّ الأنبياء، فإن قيل : يشكل هذا بقوله تعالى في بني إسرائيل **﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾** [البقرة: ٤٧] " فإنَّه لو كان الأمر كما ذكرتم لزم تفضيل أنبياء بني إسرائيل على محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الجواب: تحمل التَّخصيص في آية لا يوجب تحمله في سائر الآيات، وأيضاً شرط العالم أن يكون موجوداً، ومحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان موجوداً حال وجود أنبياء بني إسرائيل، أمَّا الملائكة فهم موجودون حال وجود محمَّد عليه السَّلام فظهر الفرق."

الدَّلِيْلُ الخَامِسُ : قوله تعالى: **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ﴾** [الأنعام:٨٣-٨٦] .

ففي كلامهم على قوله تعالى : **﴿وَكلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ﴾** ، ذكر أهل العلم أنَّ الآية دليل على تفضيل الأنبياء على الملائكة...

قال الإمام الخازن في " لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل " (١٥٦/٢) : " يعني على عالمي زمانهم. ويستدلُّ بهذه الآية من يقول إنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة لأنَّ العالم اسم لكلِّ موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فيه الملك ، فيقتضي أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة."

وقال الإمام في " البحر المحيط في التَّفسير " (٥٧٦/٤) : " فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِعُمُومِ الْعَالَمِينَ وَهُمُ الْمَوْجُودُونَ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى فَيَنْدَرِجُ فِي الْعُمُومِ الْمَلَائِكَةُ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: مَعْنَاهُ عَالَمِي زَمَانِهِمْ ."

الدَّلِيْلُ السَّادسُ : قوله تعالى : **﴿قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾** [ص:٧٥] .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير " (٣٧٥/٢١) : " وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُشْتَمِلٌ عَلَى بَحْثَيْنِ:

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَفْضَلُ أَمِ الْمَلَائِكَةُ؟ وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالِاسْتِقْصَاءِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾** [الْبَقَرَة: ٣٤] .

وَالْبَحْثُ الثَّانِي: أَنَّ عَوَامَّ الْمَلَائِكَةِ وَعَوَامَّ الْمُؤْمِنِينَ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِتَفْضِيلِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِمَا رُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ رَبَّنَا إِنَّكَ أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ

فِيهَا وَيَتَنَعَّمُونَ وَلَمْ تُعْطِنَا ذَلِكَ فَأَعْطِنَا ذَاكَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كما قُلْتُ لَهُ كُنْ فَكَانَ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ عِنْدَهُ هَكَذَا أَوْرَدَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «الْبَسِيطِ» : وَأَمَّا الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْمَلَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ فَقَدْ عَوَّلُوا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَمَسُّكٌ بِدَلِيلِ الْخِطَابِ لِأَنَّ تَقْرِيرَ الدَّلِيلِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ تَخْصِيصَ الْكَثِيرِ بِالذِّكْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَالَ فِي الْقَلِيلِ بِالضِّدِّ، وَذَلِكَ تَمَسُّكٌ بِدَلِيلِ الْخِطَابِ والله أعلم."

وجاء في فتاوى الإمام ابن تيمية (٤/ ٣٤٤) : " وَسُئِلَ: عَنْ " الْمُطِيعِينَ " مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ؟

فَأَجَابَ: قَدْ ثَبَتَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: "إنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبِّ جَعَلْت بَنِي آدَمَ يَأْكُلُونَ فِي الدُّنْيَا وَيَشْرَبُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ كَمَا جَعَلْت لَهُمْ الدُّنْيَا قَالَ: لَا أَفْعَلُ ثُمَّ أَعَادُوا عَلَيْهِ قَالَ: لَا أَفْعَلُ ثُمَّ أَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَقَالَ: وَعِزَّتِي لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْت بِيَدَيَّ كَمَنْ قُلْت لَهُ: كُنْ فَكَانَ" ذَكَرَهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدارمي وَرَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَد فِي كِتَابِ " السُّنَنِ " عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا خَلَقَ اللهُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ فَقِيلَ لَهُ: وَلَا جِبْرِيلُ وَلَا ميكائيل فَقَالَ لِلسَّائِلِ: " أَتَدْرِي مَا جِبْرِيلُ وَمَا ميكائيل؟ إنَّمَا جِبْرِيلُ وميكائيل خَلْقٌ مُسَخَّرٌ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَا خَلَقَ اللهُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَمَا عَلِمْت عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ وَهُوَ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ أَفْضَلُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ. وَلَنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ " مُصَنَّفٌ " مُفْرَدٌ ذَكَرْنَا فِيهِ الْأَدِلَّةَ مِنْ الْجَانِبَيْنِ."

وقال الإمام ابن كثير في التَّفسير" (٥/ ٩٧-٩٨) : " وَقَدِ استُدل بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ جِنْسِ الْبَشَرِ عَلَى جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا، إِنَّكَ أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا، يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَتَنَعَّمُونَ، وَلَمْ تُعْطِنَا ذَلِكَ فَأَعْطِنَاهُ فِي الْآخِرَةِ. فَقَالَ اللهُ: "وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدِي، كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ فَكَانَ."

وَهَذَا الْحَدِيثُ مُرْسَلٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ مُتَّصِلًا.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ محمد بن صَدَقَة البغدادي، حدثنا إبراهيم بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدٍ الْمِصِّيصِيّ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّان مُحَمَّدُ بْنُ مُطَرِّفٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُليم، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا، يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَلَا نَأْكُلُ وَلَا نَشْرَبُ وَلَا نَلْهُو، فَكَمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنْيَا فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ. قَالَ: لَا أَجْعَلُ صَـــالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدِي، كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ، فَكَانَ."

وَقَدْ رَوَى ابْنُ عَسَاكِرَ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ أَيُّوبَ الرَّازِيِّ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ خَلَفٍ الصَّيْدَلَانِيُّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنِي عُثْمَانُ بْنُ حِصْنِ بْنِ عُبَيْدَةَ بْنِ عَلاق، سَمِعْتُ عُرْوَةَ بْنَ رُوَيْم اللَّخْمِيَّ، حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا: رَبَّنَا، خَلَقْتَنَا وَخَلَقْتَ بَنِي آدَمَ، فَجَعَلْتَهُمْ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَشْرَبُونَ الشَّرَابَ، وَيَلْبَسُونَ الثِّيَابَ، وَيَتَزَوَّجُونَ النِّسَاءَ، وَيَرْكَبُونَ الدَّوَابَّ، يَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، وَلَمْ تَجْعَلْ لَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَاجْعَلْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةَ. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَا أَجْعَلُ مَنْ خَلَقْتُهُ بِيَدِي، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي، كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ، فَكَانَ."

الدَّلِيْلُ السَّابِعُ : قوله تعالى : **﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧] .

قال الإمام ابن عادل الحنبلي في " اللباب في علوم الكتاب " (١/ ٥٣٧) : " والملائكة من جملة العالمين، فكان محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام رحمة لهم، فوجب أن يكون أفضل منهم " .

الدَّلِيْلُ الثَّامِنُ : قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾** [البينة:٧] .

قال الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية " (١/ ٥٨) : " وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاس فِي تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ عَلَى أَقْوَالٍ: فَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِي كُتُبِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَالْخِلَافُ فِيهَا مَعَ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ ، وَأَقْدَمُ كَلَامٍ رَأَيْتُهُ فِي هذه المسألة ما ذكره الْحَافِظُ بْنُ عَسَاكِرَ فِي تَارِيخِهِ فِي تَرْجَمَةِ أُمية بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، فَقَالَ عُمَرُ :مَا أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ كَرِيمِ بَنِي آدَمَ.

وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿إِنْ الَّذِينَ آمنوا وعلموا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾** [البينة: ٧] ، وَوَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ أُمَيَّة بْنُ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ ، فَقَالَ عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ : مَا أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ هُمْ خَدَمَةُ دَارَيْهِ وَرُسُلُهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ.

وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾** [الأعراف: ٢٠] ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ : مَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا حَمْزَةَ ؟ فَقَالَ : قَدْ أَكْرَمَ اللهُ آدَمَ ، فَخَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ الْمَلَائِكَةَ ، وَجَعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ وَمَنْ يَزُورُهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَوَافَقَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي الْحُكْمِ وَاسْتَدَلَّ بِغَيْرِ دَلِيلِهِ" .

الدَّلِيْلُ التَّاسِعُ : روىٰ البخاري (٩/ ١٢١ برقم ٧٤٠٥) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ."

وروىٰ البيهقي في " شُعَب الإيمان " (٢/ ٨١ برقم ٥٤٧) ، البزّار في المسند" (١١/ ٣٢٥ برقم ٥١٣٨) بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: " عَبْدِي إِذَا ذَكَرْتَنِي خَالِيًا، ذَكَرْتُكَ خَالِيًا، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَأَكْبَرَ " قَالَ: وَمِنْهَا الذِّكْرُ الْخَفِيُّ وَهُوَ ضَرْبَانِ، أَحَدُهُمَا الذِّكْرُ فِي النَّفْسِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾** [الأعراف: ٢٠٥] ، وَالْآخَرُ مَا دَارَ بِهِ اللِّسَانُ وَلَمْ يَسْمَعْهُ إِلَّا صَاحِبُهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي" .

قال الإمام ابن حبَّان في " الصَّحيح" (٣/ ٩٤) : " اللهُ أَجَلُّ وَأَعْلَىٰ مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ، إِذْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهَذِهِ أَلْفَاظٌ خَرَجَتْ مِنْ أَلْفَاظِ التَّعَارُفِ عَلَىٰ حَسَبِ مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ مِمَّا بَيْنَهُمْ، وَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي نَفْسِهِ بِنُطْقٍ أَوْ عَمَلٍ يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، ذَكَرَهُ اللهُ فِي مَلَكُوتِهِ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُ تَفَضُّلًا وَجُودًا، وَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ فِي مَلَأٍ مِنْ عِبَادِهِ، ذَكَرَهُ اللهُ فِي مَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُ، وَقَبُولِ مَا أَتَىٰ عَبْدُهُ مِنْ ذِكْرِهِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىٰ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا بِقَدْرِ شِبْرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ، كَانَ وُجُودُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنَ الرَّبِّ مِنْهُ لَهُ أَقْرَبَ بِذِرَاعٍ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىٰ مَوْلَاهُ جَلَّ وَعَلَا بِقَدْرِ ذِرَاعٍ مِنَ الطَّاعَاتِ كَانَتِ الْمَغْفِرَةُ مِنْهُ لَهُ أَقْرَبَ بِبَاعٍ، وَمَنْ أَتَىٰ فِي أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ بِالسُّرْعَةِ كَالْمَشْيِ، أَتَتْهُ أَنْوَاعُ الْوَسَائِلِ وَوُجُودُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِالسُّرْعَةِ كَالْهَرْوَلَةِ، وَاللهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ" .

وقال الحافظ ابن حجر (١٣/ ٣٨٧) : " وَأَمَّا أَدِلَّةُ الْآخَرِينَ فَقَدْ قِيلَ إِنَّ حَدِيثَ الْبَابِ أَقْوَىٰ مَا اسْتُدِلَّ بِهِ لِذَلِكَ لِلتَّصْرِيحِ بِقَوْلِهِ فِيهِ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الْغُلَاةِ فِي ذَلِكَ وَكَمْ مِنْ ذَاكِرٍ للهِ فِي مَلَإٍ فِيهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَأَجَابَ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ بِأَنَّ الْخَبَرَ الْمَذْكُورَ لَيْسَ نَصًّا وَلَا صَرِيحًا فِي الْمُرَادِ بَلْ يَطْرُقُهُ احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمَلَإِ الَّذِينَ هُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَإِ الذَّاكِرِ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَلَمْ يَنْحَصِرْ ذَلِكَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَأَجَابَ آخَرُ وَهُوَ أَقْوَىٰ مِنَ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْخَيْرِيَّةَ إِنَّمَا حَصَلَتْ بِالذَّاكِرِ وَالْمَلَإِ مَعًا فالجانب الَّذِي فِيهِ رب الْعِزَّة خيرا مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي لَيْسَ هُوَ فِيهِ بِلَا ارْتِيَابٍ فَالْخَيْرِيَّةُ حَصَلَتْ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَجْمُوعِ عَلَىٰ الْمَجْمُوعِ." ...

الدَّلِيلُ العَاشِرُ : " أَحَادِيثُ الْمُبَاهَاةِ ... فقد روىٰ مسلم (٢/ ٩٨٢ برقم ١٣٤٨) بسنده عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟."

وروىٰ أيضاً (٤/ ٢٠٧٥ برقم ٢٧٠١) بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَىٰ حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَىٰ حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ" .

وروىٰ أحمد في المسند (١٣/ ٤١٥ برقم ٨٠٤٧) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَىٰ عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا " . قال الهيثمي في " مجمع الزوائد" (٣/ ٢٥٢ برقم ٥٥٤٧) : " رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ " ، وقال الأرنؤوط : " صحيح، وهذا إسناد حسن" .

قال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣٧٠) : " وَالْمُبَاهَاةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْأَفَاضِلِ. فَإِنْ قِيلَ هَذِهِ الْأَخْبَارُ رَوَاهَا آحَادٌ غَيْرُ مَشْهُورِينَ وَلَا هِيَ بِتِلْكَ الشُّهْرَةِ فَلَا تُوجِبُ عِلْمًا وَالْمَسْأَلَةُ عِلْمِيَّةٌ. قُلْنَا:

أَوَّلًا : مَنْ قَالَ إنَّ الْمُطْلَقَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْيَقِينُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ نَقِيضُهُ؟ بَلْ يَكْفِي فِيهَا الظَّنُّ الْغَالِبُ وَهُوَ حَاصِلٌ. ثُمَّ مَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: عِلْمِيَّةٌ؟ أَتُرِيدُ أَنَّهُ لَا عِلْمَ؟ فَهَذَا مُسْلِمٌ. وَلَكِنْ كُلُّ عَقْلٍ رَاجِحٌ يَسْتَنِدُ إلَى دَلِيلٍ فَإِنَّهُ عِلْمٌ وَإِنْ كَانَ فِرْقَةٌ مِنْ النَّاسِ لَا يُسَمَّوْنَ عِلْمًا إلَّا مَا كَانَ يَقِينًا لَا يَقْبَلُ الِانْتِقَاضَ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: **﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾** ، وَقَدْ اسْتَوْفَى الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنْ أُرِيدَ عِلْمِيَّةٌ: لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ الِاسْتِيقَانُ؛ فَهَذَا لَغْوٌ مِنْ الْقَوْلِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ حَقًّا لَوَجَبَ الْإِمْسَاكُ عَنْ الْكَلَامِ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ عِلْمِيٍّ إلَّا بِالْيَقِينِ وَهُوَ تَهَافُتٌ بَيِّنٌ. ثُمَّ نَقُولُ: هِيَ بِمَجْمُوعِهَا وَانْضِمَامِ بَعْضِهَا إلَى بَعْضٍ وَمَجِيئِهَا مِنْ طُرُقٍ مُتَبَايِنَةٍ قَدْ تُوجِبُ الْيَقِينَ لِأُولِي الْخِبْرَةِ بِعِلْمِ الْإِسْنَادِ وَذَوِي الْبَصِيرَةِ بِمَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ وَرِجَالِهِ فَإِنَّ هَذَا عِلْمٌ اخْتَصُّوا بِهِ كَمَا اخْتَصَّ كُلُّ قَوْمٍ بِعِلْمٍ؛ وَلَيْسَ مِنْ لَوَازِمِ حُصُولِ الْعِلْمِ لَهُمْ حُصُولُهُ لِغَيْرِهِمْ إلَّا أَنْ يَعْلَمُوا مَا عَلِمُوا مِمَّا بِهِ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ صَحِيحِ الْحَدِيثِ وَضَعِيفِهِ.

وَالْعُلُومُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَتَبَايُنِ صِفَاتِهَا لَا تُوجِبُ اشْتِرَاكَ الْعُقَلَاءِ فِيهَا لَا سِيَّمَا السَّمْعِيَّاتُ الْخَبَرِيَّاتُ وَإِنْ زَعَمَ فِرْقَةٌ مِنْ أُولِي الْجَدَلِ أَنَّ الضَّرُورِيَّاتِ يَجِبُ الِاشْتِرَاكُ فِيهَا فَإِنَّ هَذَا حَقٌّ فِي بَعْضِ الضَّرُورِيَّاتِ؛ لَا فِي جَمِيعِهَا مَعَ تَجْوِيزِنَا عَدَمَ الِاشْتِرَاكِ فِي شَيْءٍ مِنْ الضَّرُورِيَّاتِ لَكِنْ جَرَتْ سُنَّةُ الِاشْتِرَاكِ بِوُقُوعِ الِاشْتِرَاكِ فِي بَعْضِهَا فَغَلِطَ أَقْوَامٌ فَجَعَلُوا وُجُوبَ الِاشْتِرَاكِ فِي جَمِيعِهَا فَجَحَدُوا كَثِيرًا مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ غَيْرُهُمْ. ثُمَّ نَقُولُ: لَوْ فَرَضْنَا أَنَّهَا لَا تُفِيدُ الْعِلْمَ وَإِنَّمَا تُفِيدُ ظَنًّا غَالِبًا؛ أَوْ أَنَّ الْمَطْلُوبَ هُوَ الِاسْتِيقَانُ؛ فَنَقُولُ: الْمَطْلُوبُ حَاصِلٌ بِغَيْرِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَإِنَّمَا هِيَ مُؤَكِّدَةٌ مُؤَيِّدَةٌ لِتَجْتَمِعَ أَجْنَاسُ الْأَدِلَّةِ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ" .

الدَّلِيْلُ الحَادِيْ عَشَر : " أنَّ الله تعالى خلق للملائكة عقولاً بلا شهوة، وخلق للبهائم شهوةً بلا عَقْلٍ، وخلق الآدمي وجمع فيه الأمرين، فصار الأدمي بسبب العَقْل فوق البهيمة بدرجة، فوجب أن يصير بسبب الشَّهوة دون المَلائكة، ثمَّ وجدنا الآدمي هَوَاهُ عقله، فإنَّه يصير دون البَهِيْمَةِ على ما قال: «أولئك كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ» فيجب أن يُقال: إذا غلب عقله هواه أن يكون فوق الملائكة اعتباراً لأحد الطَّرفين بالآخر ... البشر لهم أنواع كثيرة من الشَّهوات مثل شهوة البَطْنِ والفَرْجِ، وشهوة الرِّئاسة والملك ليس إلَّا شهوة واحدة، وهي شهوة الرِّئاسة، والمبتلى بأنواع كثيرة من الشَّهوات تكون الطَّاعة عليه أشقّ ... وأيضاً الملائكة لا يعملون إلاَّ بالنَّص لقوله: **﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾** [البقرة: ٣٢] ، وقوله: **﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٧] ، والبشر لهم قوَّة الاسْتنباط والقياس، والعمل بالاسْتِنْبَاط أشق من العمل بالنَّص،

وأيضاً فإنَّ الشُّبهات للبشر أكثر منها للملائكة؛ لأنَّ من جملة الشُّبهات القويَّة كون الأفلاك والأنجم السَّيَّارة أسباباً لحوادث هذا العالم، فالبَشَرُ احتاجوا إلى دفع هذه الشُّبهة، والملائكة لا يحتاجون إليها، لأنَّهم ساكنون في عالم السَّماوات، فيشاهدون كيفية افتقارها إلَى المدبّر الصَّانع، وأيضاً فإنَّ الشَّيطان لا سَبِيلَ له إلى وسوسة الملائكة، وهو مسلّط على البشر في الوَسْوَسَةِ، وذلك تفاوت عظيم. إذا ثبت أنَّ طاعتهم أشقّ، فوجب أن يكونوا أكثر ثواباً للنَّصِّ والقياس" . انظر : اللباب في علوم الكتاب" (١/ ٥٣٧) .

وقال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة في " طريق الهجرتين وباب السَّعادتين " (ص٢٢٧) : " ... صالح البشر أفضل من الملائكة ، لأنَّ الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب ودواعي النُّفوس والشَّهوات البشريَّة، فهي صادرة عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق، وهي كالنَّفس للحي، وأمَّا عبادات البشر فمع منازعات النُّفوس وقمع الشَّهوات ومخالفة دواعي الطَّبع، فكانت أكمل، ولهذا كان أكثر النَّاس على تفضيلهم على الملائكة لهذا المعنى ولغيره، فمن لم يخلق له تلك الدَّواعي والشَّهوات فهو بمنزلة الملائكة، ومن خلقت له وأعانه الله على دفعها وقهرها وعصيانها كان أكمل وأفضل."

رَابِعَاً : أَدِلَّةُ القَائِلِيْنَ بِتَفْضِيْلِ المَلَائِكَة عَلَى صَالِحِي البَشَرِ:

ذكر الإمام ابن عادل الحنبلي في " " (١/ ٥٣٠-٥٣٦) أدلَّة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحي البشر ، وناقشها ، فقال : " وحجَّة المعتزلة أمور:

أَحَدُهَا: قوله تعالى: **﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾** [الأنبياء: ١٩] ، والمراد من هذه العِنْدِيَّة القرب، والشَّرف، وهذا حاصل لهم لا لغيرهم.

ولقائل أن يقول: إنَّه تعالى أثبت هذه الصِّفة في الآخرة لآحاد المؤمنين في قوله: **﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾** " .

وهذا أكثر إشعاراً بالتَّعظيم؛ لأنَّ كون الله تعالى عند العبد أدخل في التَّعظيم من كون العبد عند الله.

وَثَانِيْهَا: قالوا: عبادات الملائكة أشَقّ من عبادات البشر، فيكونون أكثر ثواباً من عبادات البشر، فإنَّ الملائكة سُكَّان السَّماوات، وهي جَنَّات، وهم آمنون من المَرضِ والفقر، ثم إنهم مع استكمال أسباب النِّعم لهم خاشعون وجِلُونَ كأنَّهم مَسْجُونون لا يلتفتون إلى نعيم الجنَّات، بل يقبلون على الطَّاعة الشَّاقَّة، ولا

يقدر أحد من بني آدم أن يبقىٰ كذلك يوماً واحداً فضلاً عن تلك الأعصار المُتَطَاولة، ويؤيِّده قصَّة آدم عليه الصَّلاة والسَّلام فإنَّه أطلق له الأكل في جميع مواضع الجنَّة، ثمَّ إنَّه منع من شجرة واحدة فلم يملك نفسه.

وَثَالِثُهَا: أنَّ انتقال المكلَّف من نوع عِبَادَةٍ إلىٰ نوع آخر كالانتقال من بُسْتَان إلىٰ بستان، أمَّا الإقامة علىٰ نَوْعٍ واحدٍ، فإنَّها تورث المَشَقَّة والمَلاَلَة، والملائكة كلّ واحد منهم مُوَاظب علىٰ عمل واحد لا يعدل عنه إلىٰ غيره، فكانت عبادتهم أَشَقّ، فيكون أفضل لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا» أي: أَشَقُّهَا، وقوله لعائشة: «إنَّمَا أَجْرُكِ علىٰ قَدْرِ نَصَبِكِ" .

ولقائل: أن يقول: في الوَجْه الأوَّل لا نسلِّم أنَّ عبادة الملائكة أشقّ.

أمَّا قولهم: السَّماوات جنَّات.

قلنا: نسلِّم، ولِمَ قلتم بأنَّ العبادة في المَوَاضع الطِّيِّبة أشقّ من العبادة في المواضع الرَّديئة؟ أكثر ما في الباب أنَّه تهيَّأ لهم أسباب النِّعم، فامتناعه عنها مع تهيئتها له أشقّ، ولكنَّه معارض بها أنَّ أسباب البلاء مجتمعةٌ علىٰ البشر، ومع هذا يرضون بقضاء الله، ولا تغيِّرهم تلك المِحَنُ عن المُوَاظبة علىٰ عبوديَّته، وهذا أعظم في العبوديَّة.

وأمَّا قولهم: المُوَاظبة علىٰ نَوْعٍ واحدٍ من العبادة أشقّ.

قلنا: لَمَّا اعتادوا نوعاً واحداً صاروا كالمَجْبُورين الذين لا يقدرون علىٰ خِلاَفِهِ؛ لأنَّ العادة طبيعة خامسة، ولذلك قال صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ كان يصوم يوماً ويُفْطر يوماً" .

وَرَابِعُهَا: قالوا: عبادات المَلاَئكة أَدْوَم؛ لأنَّ أعمارهم أطول، فكانت أفضل لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ: «أَفْضَلُ العُبَّاد من طل عمره، وحَسُنَ عمله" .

ولقائل أن يقول: إنَّ نوحاً ولقمان والخَضِر عليهم الصَّلاة والسَّلام كانوا أطول عمراً من محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ، فوجب أن يكونوا أفضل منه، وذلك باطل بالاتِّفاق.

وَخَامِسُهَا: أنَّهم أسبق في كلِّ العِبَادِاتِ فيكونون أفضل لقوله تعالىٰ : **﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾** [الواقعة: ١٠- ١١] ، ولقوله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ: «من سَنَّ سُنَّة حَسَنَة فله أَجْرُهَا وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة" .

ولقائل أن يقول: فهذا يقتضي أن يكون آدم عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام أفضل من محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّه أوَّل من سَنَّ عبادة الله من البشر وأسبق، وذلك باطل.

وَسَادِسُهَا: أنَّ الملائكة رُسُل إلىٰ الأنبياء، والرَّسول أفضل من الأمَّة.

فإن قيل: إنَّ السُّلطان إذا أرسل واحداً إلىٰ جمع عظيم ليكون حاكماً فيهم، فإنَّه يكون أشرف منهم، أمَّا إذا أرسل واحداً إلىٰ واحد، فقد لا يكون الرَّسول أشرف، كما إذا أرسل السُّلطان مَمْلُوكَهُ إلىٰ وزيره في مُهِمَّة فإنَّه لا يلزم أن يكون ذلك العبد أشرف من الوزير . قلنا: لكن جبريل عليه السَّلام مبعوث إلىٰ كافَّة الأنبياء والرُّسل من البشر، فعلىٰ هذا يكون جبريل أفضل منهم.

وأيضاً أنَّ الملك قد يكون رسولاً إلىٰ ملك آخر أو إلىٰ أحد من الأنبياء، وعلىٰ التَّقديرين المَلَك رسول، وأمّته رُسل، والرَّسول الذي كلّ أمّته رُسل أفضل من الرَّسول الذي ليس كذلك، ولأنَّ إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام كان رسولاً إلىٰ لُوطٍ عليه السَّلام فكان أفضل منه، وموسىٰ كان رسولاً إلىٰ الأنبياء الذين كانوا في عَصْرِهِ، فكان أفضل منهم.

ولقائل أن يقول: الملك إذا أرسل رسولاً إلىٰ بعض النّواحي، فقد يكون ذلك الرَّسول حاكماً ومتولّياً أمورهم، وقد يكون ليخبرهم عن بعض الأمور مع أنَّه لا يجعله حاكماً عليهم، فالقسم الأوَّل هم الأنبياء المبعوثون إلىٰ أممهم، فلا جرم كانوا أفضل من الأنبياء.

وَسَابِعُهَا : قوله : **﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيْحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للهِّ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُوْن﴾** [النساء: ١٧٢] ، فقوله: **﴿وَلَا الْمَلَائِكَة﴾** خرج مخرج التَّأكيد للأوَّل، وهذا التَّأكيد إنَّما يكون بذكر الأفضل يقال: هذه الخَشَبة لا يقدر علىٰ حملها العَشْرة، ولا المائة، ولا يقال: لا يقدر علىٰ حملها العشرة ولا الواحد، ويقال: هذا العالِم لا يَسْتَنْكِفُ عن خدمته الوزير ولا الملك، ولا يقال: ولا يستنكف عن خدمته الوزير ولا البوَّاب.

ولقائل أن يقول: هذه الآية إن دلَّت، فإنَّما تدلُّ علىٰ فضل الملائكة المقرَّبين علىٰ المسيح، لكن لا يلزم منه فَضْلُ الملائكة المقرَّبين علىٰ مَنْ هو أفضل من المسيح، وهو محمَّد عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام وموسىٰ وإبراهيم عليهما الصَّلاة والسَّلام بإجماع المسلمين.

ثمَّ نقول قوله : **﴿وَلَا الْمَلَائكَة﴾** ليس فيه إلَّا «واو» العطف، و «الواو» للجمع المُطْلق، فيدلُّ علىٰ أنَّ المسيح لا يستنكف، والملائكة لا يستنكفون، فأمَّا أن يدلُّ علىٰ أنَّ الملائكة أفضل من المسيح فلا.

قال تعالىٰ : ﴿لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلاَ الهَدْيَ وَلاَ القَلاَئِد﴾ [المائدة: ٢] أو نقول: سلَّمنا أنَّ عيسىٰ دون مَجْمُوعِ الملائكة في الفَضْلِ، فإن قلتم: دون كلّ واحد من الملائكة في الفضل؟ فإن قيل: وصف الملائكة بكونهم مقرَّبين يوجب ألاَّ يكون المسيح كذلك.

قلنا: تخصيص الشَّيء بالذِّكر لا يدلُّ علىٰ نفيه عمَّا عداه.

وَثَامِنُهَا : قوله : **﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾** [الأعراف: ٢٠] ، ولو لم يكن متقرِّراً عند آدم وحوَّاء عليهما الصَّلاة والسَّلام أنَّ الملك أفضل من البَشَرِ لم يقدر «إبليس» علىٰ غرورهما بذلك.

ولقائل أن يقول: هذا قول «إبليس» فلا يكون حُجَّة، ولا يقال: إنَّ آدم اعتقد صحَّة ذلك، واعتقاد آدم حُجَّة، لأنَّا نقول: لعلَّ آدم عليه الصَّلاة والسَّلام ما كان نبيَّاً في ذلك الوقت، فلم يلزم من فَضْلِ الملك عليه في ذلك الوَقْتِ فضل الملك عليه حال ما صار نبيًّا، ولأنَّ الزَّلَّة جائزة علىٰ الأنبياء.

وأيضاً فهب أنَّ الآية تدلُّ علىٰ أنَّ الملك أفضل من البَشَرِ في بعض الأمور المرغوبة.

فلمَ قلتم: إنَّها تدلُّ علىٰ فضل الملك علىٰ البَشَرِ في باب القدرة والقوَّة، والحُسن والجَمال، والصَّفاء والنَّقاء عن الكُدُورات الحاصلة بسبب التَّركيبات؟ فإنَّ الملائكة خُلقوا من الأنوار وآدم خلق من التُّراب، فلعلَّ آدم وإن كان أفضل منهم في كثرة الثَّواب إلاَّ أنَّه رغب في أن يكون مساوياً لهم في تلك الأمور المعدودة.

وَتَاسِعُهَا: قوله تعالىٰ : **﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغيب وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾** [الأنعام: ٥٠] .

ولقائل أن يقول: يحتمل أن يكون المراد: ولا أقول لكم إِنِّي مَلَكٌ في كثرة العلوم، وشدَّة القوَّة، ويؤيِّده أنَّ الكفَّار طالبوه بأمور عظيمة نحو: صعود السَّماء، ونقل الجِبَالِ، وإحضار الأموال العظيمة، وأيضاً قوله : **﴿قُل لَا أَقُوْلُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ الله﴾** يدلُّ علىٰ اعترافه بأنَّه لا يعلم كلَّ المعلومات، فلذلك لا أدَّعي قُدْرَةٌ مِثْلَ قُدْرَةِ الملك، ولا علماً مثل علمه.

وَعَاشِرُهَا: قوله تعالىٰ: **﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾** [يوسف: ٣١] .

فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد التَّشبيه في الجَمال؟

قلنا: الأَوْلَىٰ أن يكون هذا التَّشبيه في السِّيرة لا في الصُّورة، لأنَّ الملك إنَّما تكون سِيرَتُهُ المرضيَّة لا بمجرد الصُّورة.

ولقائل: أن يقول: قول المرأة **﴿فَذَلِكُنَّ الذِيْ لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾** [يوسف: ٣٢] كالصَّريح في أنَّ مراد النِّسَاء بقولهن **﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾** [يوسف: ٣١] تعظيم لحسن يُوسف وجماله لا في السِّيرة؛ لأنَّ ظهور عُذْرِهَا في شدَّة عشقها، إنَّما يحصل بسبب فرط يوسف في الجَمَال لا بسبب فرط زُهْده وورعه، فإنَّ ذلك لا يُنَاسب شدَّة عشقها.

سلَّمنا أنَّ المراد تشبيه يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ بالمَلَكِ في حسن السِّيرة، فلمَ قُلتم: يجب أن يكون أقلّ ثواباً من الملائكة؟

الحَادِيْ عَشَر: قوله تعالىٰ : **﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠] ، ومخلوقات الله تعالىٰ أمَّا المكلَّفون، أو من عداهم، ولا شكَّ أنَّ المكلَّفين أفضلُ من غيره، فالمكلَّفون أربعة أنواع: الملائكة، والإنس، والجنّ، والشَّياطين، ولا شَكَّ أنَّ الإنس أفضل من الجنّ والشَّياطين، فلو كان البشر أفضل من الملائكة لزم أن يكون البشر أفضل من كلِّ المخلوقات، وحينئذ لا يبقىٰ لقوله: **﴿وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى جَمِيْعِ مَنْ خَلَقْنَا﴾** ، ولمَّا لم يقل ذلك علمنا أنَّ الملك أفضل من البشر.

ولقائل أن يقول: هذا تمسُّك بدليل الخطاب؛ لأنَّ التَّصريح بأنَّهم أفضل من كثيرٍ من المَخْلُوقات لا يدلُّ علىٰ أنَّه ليس أَفْضل من الباقي إلَّا بواسطة دليل الخطاب.

وأيضاً فهب أنَّ جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم، ولكن لا يلزم من كون أحد المجموعين أفضل من المجموع الثَّاني أن يكون كُلّ واحد من أفراد المجموع الأوَّل أفضل من أفراد المجموع الثَّاني ، فإنَّا إذا قدرنا عشرة من العَبيدِ كلّ واحد منهم يساوي مائة دينار، وعشرة أخرىٰ حصل فيهم عبد يساوي مائتي دينار والتِّسعة الباقية كلّ واحد منهم ديناراً، فالمجموع الأوَّل أفضل من آحاد المجموع الأوَّل فكذا ها هنا.

الثَّانِي عَشَر: قوله تعالىٰ : **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾** [الانفطار: ١٠- ١١] ، فيدخل فيه الأنبياء وغيرهم، وهذا يقتضي كونهم أفضل من البشر لوجهين:

الأَوَّلُ : أنَّه تعالىٰ جعلهم حَفَظَةً، والحافظ للمكلَّف عن المعصية يكون أبعد عن الخطأ من المحفوظ، وذلك يقتضي أن يكون قولهم أولىٰ بالقَبُولِ من قول البشر، ولو كان البشر أعظم حالاً منهم لكان الأمر بالعكس.

ولقائل أن يقول: أمَّا كون الحافظ أكرم من المحفوظ، فهذا بعيد، فإنَّ المَلِكَ قد يوكِّل بعض عبيده علىٰ ولده.

وأمَّا الثَّاني: فقد يكون الشَّاهد أدون حالاً من المشهود عليه.

الثَّالِثُ عَشَر: قوله تعالىٰ : **﴿يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن﴾** [النبأ: ٣٨]

والمقصود من ذكر أحوالهم المُبَالغة في شَرْحِ عظمة الله وجلاله، ولو كان في الخلق طائفة أخرىٰ قيامهم وتضرُّعهم أقوىٰ في الإنباء عن عَظَمَةِ الله وجلاله وكبريائه من قيامهم لكان ذكرهم أولىٰ.

ولقائل أن يقول: ذلك يدلُّ علىٰ أنَّهم أزيد حالاً من البَشَرِ في بعض الأمور، فلم لا يجوز أن تكون تلك الحالة هي قوَّتهم وشدَّتهم وبطشهم؟ وهذا كما يقال: إنَّ السُّلطان لَمَّا جلس وقف حَوْلَ سريره ملوك أطراف العالم خاضعين فإنَّ عظمة السُّلطان إنَّما تشرح بذلك، ثمَّ إنَّ هذا لا يدلُّ علىٰ أنَّهم أكرم عند السُّلطان من ولده، فكذا ها هنا.

الرَّابِعُ عَشَر: قوله: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِّ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه﴾** [البقرة: ٢٨٥] ، فبيَّن تعالىٰ أنَّه لا بدَّ في صحَّة الإيمان من الإيمان بهذه الأشياء، فبدأ بنفسه، وثَنَّىٰ بالملائكة، وثلَّث بالكُتُب، وربَّع بالرُّسل، وكذا في قوله: **﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾** [آل عمران: ١٨] ، وقال : **﴿إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي﴾** [الأحزاب: ٥٦] ، والتَّقديم في الذِّكر يدلُّ علىٰ التَّقديم في الدَّرجة؛ لأنَّ تقديم الأَدْوَنِ علىٰ الأشرف في الذِّكر قبيح عرفاً، فوجب أن يكون قبيحاً شرعاً.

ولقائل أن يقول: هذه الحجَّة ضعيفة؛ لأنَّ الاعتماد إن كان علىٰ «الواو» ف «الواو» لا تفيد التَّرتيب، وإِنْ كان علىٰ التَّقديم في الذِّكْرِ ينتقض بتقديم سورة «تَبّت» علىٰ سورة **﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ﴾** [الإخلاص: ١] .

الخَامِسُ عَشَر: قوله تعالىٰ : **﴿إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾** ، فجعل صلوات الملائكة كالتَّشريف للنَّبي صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّم وذلك يدلّ علىٰ كون الملائكة أشرف من النَّبي."

وأخيراً ، فقد حقَّق الإمام ابن تيمية المسألة في "مجموع الفتاوىٰ" (٤/ ٣٧٢) ، وناقشها من جميع أطرافها ، وخلص إلىٰ القول بأنَّ " التَّفْضِيلُ إذَا وَقَعَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْفَضِيلَةِ مَا هِيَ؟ ثُمَّ يُنْظَرُ أَيُّهُمَا أَوْلَىٰ بِهَا؟ . وَأَيْضًا فَإِنَّا إنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي تَفْضِيلِ صَالِحِي الْبَشَرِ إذَا كَمُلُوا وَوَصَلُوا إلَىٰ غَايَتِهِمْ وَأَقْصَىٰ نِهَايَتِهِمْ وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ إذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ وَنَالُوا الزُّلْفَىٰ وَسَكَنُوا الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ وَحَيَّاهُمْ الرَّحْمَنُ وَخَصَّهُمْ بِمَزِيدِ قُرْبِهِ وَتَجَلَّىٰ لَهُمْ؛ يَسْتَمْتِعُونَ بِالنَّظَرِ إلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَقَامَتْ الْمَلَائِكَةُ فِي خِدْمَتِهِمْ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ."

وبهذا الجمع والسَّبْر الطيِّب تتبيَّن لنا حقيقة التَّفضيل ، وتتَّفق أدلَّة الفريقين ، والحمد لله ربِّ العالمين ...

﴿سُؤالٌ﴾ : هَل يَعْتَقِدُ الشِّيْعَةُ الإِمَامِيَّةُ بِأَنَّ الأَئِمَّةَ أَفْضَلُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُل ؟

الجواب : ممَّا روته كُتب الشِّيْعَةِ عن أئمَّتهم من كونهم يعلمون الغيب : عن سيف التَّمار قال : كنَّا مع أبي عبد الله عليه السَّلام – جماعة من الشِّيعة- فقال : علينا عين ؟ فالتفتنا يمْنة ويسْرة فلم نرَ أحداً ، فقال : ليس علينا عين ، فقال : وربِّ الكعبة وربِّ البنيَّة ، ثلاث مرات ، لو كنت بين موسىٰ والخضر لأخبرتهما أنِّي أعلم منهما ، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما ؛ لأنَّ موسىٰ والخضر عليهما السَّلام أُعطيا علم ما كان ، ولم يُعطيا علم ما يكون ، وما هو كائن حتىٰ تقوم السَّاعة ، وقد ورثناه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراثة " . انظر : الكافي (١/ ٢٦١) ، شرح أصول الكافي (٦/ ٤٣) ، المحتضر (ص ٢٠٧) ، تفسير كنز الدقائق (٢/ ٢٣) ، تأويل الآيات الظاهرة (١/ ١٠٣) .

والرِّواية تشتمل علىٰ العديد من الطَّامَّات منها :

(١) فيها ترجمة عمليَّة لتقيّة الشِّيْعَةِ ، التي تمثِّل عندهم تسعة أعشار الإسلام ، وتقيَّتهم – كما هو معلوم – ليست ، مع الكفَّار ، إنَّما هي مع أهل السُّنَّة ، وفيها ترجمة عمليَّة كذلك لكتم العلم الذي جاء الأنبياء لنشره وإذاعته ، وأمروا أتباعهم بذلك ، لأنَّ العلماء ورثة الأنبياء... وكان الأَوْلىٰ بأبي عبد الله أن يُقسم – لو صحَّت الرِّواية عنه – بربِّ كربلاء ، لأنَّ كربلاء أعظم عندهم وأقدس من الكعبة ، فقد جاء في (كامل الزيارات) عن أبي عبد الله عليه السَّلام ، قال : إنَّ أرض الكعبة قالت ، من مثلي وقد بُني بيت الله علىٰ ظهري ؟ ويأتيني النَّاس من كلِّ فجٍّ عميقٍ ، وجُعلتُ حرم الله وأمنه ، فأوحىٰ الله إليها أن كفِّي وقرِّي ، فوعزَّتي وجلالي ما فضلُ ما فضلت به فيما أُعطيت به أرض كربلاء إلَّا بمنزلة الإبرة غُمست في البحر فحملت من ماء البحر ، ولولا تُربة كربلاء ما فضَّلتك ، ولولا ما تضمَّنته أرض كربلاء ما خلقتُك ، ولا خلقتُ البيت الذي افتخرت به ، فقرِّي واستقرِّي وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً ، غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء ، وإلَّا سخت بك وهويت بك في نار جهنَّم " . انظر : كامل الزيارات ص ٤٤٩ ، وسائل الشِّيْعَةِ (آل البيت) (١٤/ ٥١٥) ، وسائل الشِّيْعَةِ (الإسلامية) (١٠/ ٤٠٣) ، مستدرك الوسائل (١٠/ ٣٢٢)، بحار الأنوار (٩٨/ ١٠٧) ، مستدرك سفينة البحار (٩/ ٨٦) ، موسوعة أحاديث أهل البيت (٩/ ٣٢٣) .

(٢) والرِّواية – أيضاً – نصٌّ صريحٌ علىٰ أنَّهم يفضِّلون جعفر الصَّادق علىٰ موسىٰ والخضر...

ومن المعلوم أنَّ تفضيل الشِّيْعَةِ لأئمَّتهم علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين عقيدة من العقائد المسلَّم بها عند الشِّيْعَةِ ، وبها جاءت رواياتهم...

يقول إمامهم ومحدِّثهم نعمة الله الجزائري مبيِّناً رأي الإماميَّة وعقيدتهم في المفاضلة بين الأنبياء والأئمَّة :" اعلم أنّه لا خلاف بين أصحابنا ، رضوان الله عليهم ، في أشرفيَّة نبيّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ سائر الأنبياء عليهم السَّلام ، للأخبار المتواترة ، وإنَّما الخلاف بينهم في أفضليَّة أمير المؤمنين والأئمَّة عليهم السَّلام ، علىٰ الأنبياء ما عدا جدّهم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فذهب جماعةٌ : إلىٰ أنَّهم أفضل من باقي الأنبياء ما خلا أولي العزم ، فإنَّهم أفضل من الأئمَّة عليهم السَّلام ، وبعضهم إلىٰ المساواة ، وأكثر المتأخِّرين إلىٰ أفضليَّة الأئمَّة عليهم السَّلام علىٰ أولي العزم وغيرهم ، وهو الصَّواب " . انظر : الأنوار النعمانية (١/ ٢٠-٢١) .

فالجزائري ينصُّ علىٰ أنَّ الأكثرين يذهبون إلىٰ أنَّ الأئمَّة أفضل من جميع أولي العزم من الرُّسل ، ومن ضمنهم سيِّدنا مُحمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أجمعت الأمَّة علىٰ كونه أفضل الخلق....

وقد أكَّد الخُميني علىٰ كون الأئمَّة أفضل من جميع الأنبياء والرُّسل ، وأنَّهم كذلك أفضل من الملائكة فقال : " إنَّ لأئمّتنا مقاماً لا يبلغه مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبّيٌّ مُرسَلٌ " . انظر : الحكومة الإسلامية (ص ٤٧) ، وأصل كلام الخميني هذا موجود في : الكافي (٨/ ١٠) ، شرح أصول الكافي (١١/ ١٧٢) ، بحار الأنوار (٧٥/ ٢١٩) ، وانظر :الأسرار الفاطمية (ص ٢٦٦) ، الولاية التَّكوينية الحق الطبيعي للمعصوم (ص١٠٣) .

وأخيراً فإنَّ الرِّواية تزعم أنَّ الأئمَّة ورثوا علم الغيب من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !! فأين ورد أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلَم الغيب ؟؟ وأنّىٰ له أن يعلَم الغيب وهو المخاطب من ربّه بـ : **﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهَّ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحى إِلَيَّ﴾** [الأنعام:٥٠] ، وأنَّىٰ له أن يدَّعي علم الغيب والقرآن يقول : **﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾** [الأنعام:٥٩] ،

ومن رواياتهم المصرِّحة بعلم أئمَّتهم للغيب ما رواه الكليني عن جعفر الصَّادق أنَّه قال : " إنَّا عندنا الجامعة ، صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإملائه ، فيها كُلُّ حلال وحرام ، وكلُّ شيء يحتاج النَّاس إليه ... وإنَّ عندي الجفر وعاء من أدم ، فيه علم النَّبيِّين والوصيِّين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل... وإنَّ عندنا لمصحف فاطمة ، فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد ، أما إنَّه ليس فيه شيء من الحلال والحرام ؛ ولكن فيه علم ما يكون ،

وإنَّ عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلىٰ أن تقوم السَّاعة " . انظر : الكافي (١/ ٢٣٩) ، شرح أصول الكافي للمازندراني (٥/ ٣٣٤ ، مجمع البحرين (١/ ٣٩٦) ، وسائل الشِّيْعَةِ (آل البيت) (١/ ٦١) ، تأويل الآيات ١/ ١٠٢) ، شرح إحقاق الحق (٢٨/ ٥٢٠) ، تفسير كنز الدقائق (٢/ ٢١) ، المحتضر (ص ٢٠٣) ، الفصول المهمة (١/ ٤٨٥) ، بصائر الدرجات (ص ١٦) ، مكاتيب الرسول (٢/ ٣١) ، ينابيع المعاجز (ص ١٢٩) ، بحار الأنوار (٢٦/ ٢٢) ، جامع أحاديث الشِّيْعَةِ (١/ ١٣٢) ، بيت الأحزان (ص ٣٢) ، علم الإمام (ص ٥٥) ، معالم المدرستين (٢/ ٣١٠) ، موسوعة أحاديث أهل البيت (٢/ ٣٣٧) ، (٨/ ٢٧٦) ، (١٠ / ٢٩٩) .

فعلمُ أئمَّتهم شامل للماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وحتىٰ يرث الله الأرض وما عليها... والعياذ بالله...

وتعدَّىٰ علمُ أئمَّتهم إلىٰ العلم بما في أرحام النِّساء وأصلاب الرِّجال ، يوضِّح ذلك ما رواه المجلسي عن جعفر الصَّادق ، قال : " والله لقد أُعطينا علم الأوَّلين ، والآخرين ، فقال له رجلٌ من أصحابه : جُعلتُ فِداك أعندك علم الغيب ؟ قال له : ويحك إنِّي لأَعْلَمُ ما في أصلاب الرِّجال وأرحام النِّساء ، وَيحَكُم وسِّعوا صدُوركم ، ولتبصر أعينكم ، ولتعِ قلوبكم ؛ فنحن حجَّة الله – تعالىٰ – في خلقه ، ولن يسع ذلك إلَّا صدر كلّ مؤمن قوي ، قوَّته كقوَّة جبال تهامة إلَّا بإذن الله ؛ والله لو أردت أن أُحصي لكم كلَّ حصاة عليها لأخبرتكم ، وما من يوم وليلة إلَّا والحصىٰ تلد إيلاداً كما يلد هذا الخلق ، والله لتتباغضون بعدي حتىٰ يأكل بعضكم بعضاً " . انظر : بحار الأنوار (٢٦/ ٢٧) ، مناقب آل أبي طالب (٣/ ٣٧٤) ، حقيقة علم آل مُحمَّد وجهاته (ص ١٣٩) .

فأين هذا الهُراء وسقط القول من قول الله تعالىٰ : **﴿إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [لقمان:٣٤] .

فالله تعالىٰ هو المتفرِّد بعلم أطوار تخلُّق الإنسان من النُّطفة ، والعلقة ، والمضغة... وجيء بالمضارع لإفادة تكرُّر العلم بتبدُّل تلك الأطوار والأحوال . والمعنىٰ : ينفرد بعلم جميع تلك الأطوار التي لا يعلمها النَّاس ، لأنَّه عطف علىٰ ما قصد منه الحصر ، فكان المسند الفعلي المتأخِّر عن المسند إليه مفيداً للاختصاص بالقرينة ... انظر : التحرير والتنوير (٢١/ ١٣٦) .

إلَّا أنَّ الشِّيْعَةَ الإماميَّة ادَّعوا أنَّ أئمَّتهم يعلمون ما في أرحام النِّساء ، وزادوا علىٰ ذلك بأنَّ أئمَّتهم كذلك يعلمون ما في أصلاب الرِّجال!!!

ثم زادوا ضغثاً علىٰ إبالة ، فادعوا أنَّ أئمَّتهم يعلمون ما عند أصحابهم...

فقد رووا عن جعفر الصّادق رحمه الله " أنَّ الأوصياء لتطوىٰ لهم الأرض ويعلمون ما عند أصحابهم " .

انظر : بصائر الدرجات الكبرىٰ (ص ٤١٨) ، الاختصاص (ص ٣١٦) ، ينابيع المعاجز (ص ١٨٣) ، بحار الأنوار (٢٥/ ٣٧٠) ، مستدرك سفينة البحار (٦/ ٦٠٤) ، الولاية التّكوينية لآل مُحمَّد (ص ١٦٧) .

وهذا منهم مضاهاة لما أعطاه الله تعالىٰ لسيِّدنا عيسىٰ عليه السَّلام ، بقوله : ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩] .

ونسبوا إلىٰ الصَّادق كذلك أنَّه قال : " إنَّ الدُّنيا تمثّل للإمام في فلقة الجوز ، فما تعرض لشيء منها ، وإنَّه ليتناولها من أطرافها كما يتناول أحدهم من فوق مائدته ما يشاء ، فلا يعزُبُ عنه منها شيء " . انظر : بصائر الدرجات (ص ٤٢٨) ، ينابيع المعاجز (ص ١٨٥) ، مكيال المكارم (١/ ٤١٦) .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلَّا كذباً...

وذكر الطَّبرسي في " الاحتجاج " منسوباً إلىٰ سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه ، قال : " ... وعرف الخلق اقتدارهم علىٰ علم الغيب " . انظر : الاحتجاج (ص ٣٧٥) ، بحار الأنوار (٩٠/ ١١٨) ، تفسير نور الثقلين (٥/ ٤٤٤) .

وقال الدَّيلمي في حديثه عن معجزات عليٍّ رضي الله عنه : " وأمَّا إخباره بالغيب فكثيرة ، وهي معجزات عظيمة دالَّة علىٰ إمامته ، ويعدِّد بعض هذه المعجزات فيقول : " وأخبار إخباره بالغيب كثيرة يطول بذكرها الكتاب ، وهذا ممَّا يدلُّ علىٰ اتصال نفسه الشَّريفة الطَّاهرة بمعالم الغيب " . انظر : انظر: إرشاد القلوب (١/ ٢٢٤ فما بعدها) .

وروىٰ صدوقهم ابن بابويه القمِّي : أنَّ الباقر سئل بِمَ يُعرف الإمام ؟ فقال : بخصال أوَّلها : نصٌّ من الله تبارك وتعالىٰ عليه ، ونصبه علماً للنَّاس حتىٰ يكون عليهم حجَّة . لأنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصب عليّاً عليه السَّلام ، وعرَّف النَّاس باسمه وعينه ، وكذلك الأئمَّة عليهم السَّلام ، ينصب الأوَّل الثَّاني ، وأن يسأل فيُجيب ، وأن يسكت عنه فيبتدئ ، ويخبر النَّاس بما يكون في غد ، ويكلِّم النَّاس بكلِّ لسان ولغة " . انظر : معاني الأخبار (ص ١٠٢) ، الكافي (١/ ٢٨٥) ، روضة الواعظين (ص ٢١٣) ، الإرشاد (٢/ ٢٢٤) ، عيون المعجزات (ص ٨٩) ، مناقب آل أبي طالب (٣/ ٤١٦) ، ينابيع المعجزات (ص ١٧٠) ، بحار الأنوار (٢٥/ ١٣٣) ، (٤٨/ ٤٧) ، موسوعة أحاديث أهل البيت (٨/ ٢٦٢) ، إعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ (٢/ ٢٢) ، كشف الغمة (٣/ ١٦) ، أهل البيت في الكتاب والسنة (ص ٢٠٥) ، موسوعة المصطفىٰ والعترة (١١/ ١٤٨) ، شرح إحقاق الحق (٢٩/ ٦٢٩) .

فالإمام عندهم لا يكون إماماً إلَّا إذا أخبر النَّاس بما يكون في غدٍ ، وكذا بتكليمه للنَّاس بكلِّ الألسنة واللغات...

وتمادىٰ القوم في غلوِّهم بأئمّتهم ، حيث ادَّعوا أنَّ أئمَّتهم يعلمون ضمائر العباد...

يقول المفيد : " إنَّ الأئمَّة من آل مُحمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد ويعرفون ما يكون قبل كونه " . انظر : أوائل المقالات (ص ٦٧) ، بحار الأنوار (٢٦/ ١٠٤) ، البيان في عقائد أهل الإيمان (ص ١٢٥) .

قلت : أليس هذا تأليهاً منهم لأئمَّتهم ...؟!!!

وأين هذا من قول الله تبارك وتعالىٰ : **﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾** [غافر: ١٩] ، وقوله سبحانه : **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ﴾** [العنكبوت: ١٠] ، وقوله : **﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾** [الأنفال: ٤٣] ...

الفَصْلُ السَّادِسُ

الإِيْمَانِ بِنُبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿ سُؤالٌ ﴾ مَا هِيَ مُقْتَضَيَاتُ الإِيْمَانِ بِنُبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

الجواب : من مقتضيات الإيمان بنبوَّة سيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَوَّلاً : تَصْدِيْقُهُ فِي كُلِّ مَا صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ثَانِياً : الإِيْمَانُ بِجَمِيْعِ مَا ثَبَتَ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِه :

ثَالِثاً : المَحَبَّةُ المُطْلَقَةُ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قال تعالىٰ : **﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾** [التوبة:٢٤] ، قال القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٨/ ٩٥) : " وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ كُلِّ مَحْبُوبٍ."

وروىٰ البخاري (١/ ١٢ برقم ١٥) ، مسلم (١/ ٦٧ برقم ٤٤) بسندهما عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري"(١/ ٥٩-٦٠) : " وَمِنْ عَلَامَةِ الْحُبِّ الْمَذْكُورِ أَنْ يُعْرَضَ عَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ لَوْ خُيِّرَ بَيْنَ فَقْدِ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ أَوْ فَقْدِ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَوْ كَانَتْ مُمْكِنَةً فَإِنْ كَانَ فَقْدُهَا أَنْ لَوْ كَانَتْ مُمْكِنَةً أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ فَقْدِ شَيْءٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ فَقَدِ اتَّصَفَ بِالْأَحَبِّيَّةِ الْمَذْكُورَةِ وَمَنْ لَا فَلَا وَلَيْسَ ذَلِكَ مَحْصُورًا فِي الْوُجُودِ وَالْفَقْدِ بَلْ يَأْتِي مِثْلُهُ فِي نُصْرَةِ سُنَّتِهِ وَالذَّبِّ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَقَمْعِ مُخَالِفِيهَا وَيَدْخُلُ فِيهِ بَابُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِيمَاءٌ إِلَىٰ فَضِيلَةِ التَّفَكُّرِ فَإِنَّ الْأَحَبِّيَّةَ الْمَذْكُورَةَ تُعْرَفُ بِهِ وَذَلِكَ أَنَّ مَحْبُوبَ الْإِنْسَانِ إِمَّا نَفْسُهُ وَإِمَّا غَيْرُهَا أَمَّا نَفْسُهُ فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ دَوَامَ بَقَائِهَا سَالِمَةً مِنَ الْآفَاتِ هَذَا

هُوَ حَقِيقَةُ الْمَطْلُوبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا فَإِذَا حَقَّقَ الْأَمْرَ فِيهِ فَإِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ تَحْصِيلِ نَفْعٍ مَا عَلَىٰ وُجُوهِهِ الْمُخْتَلِفَةِ حَالًا وَمَآلًا فَإِذَا تَأَمَّلَ النَّفْعَ الْحَاصِلَ لَهُ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَىٰ نُورِ الْإِيمَانِ إِمَّا بِالْمُبَاشَرَةِ وَإِمَّا بِالسَّبَبِ عَلِمَ أَنَّهُ سَبَبُ بَقَاءِ نَفْسِهِ الْبَقَاءَ الْأَبَدِيَّ فِي النَّعِيمِ السَّرْمَدِيِّ وَعَلِمَ أَنَّ نَفْعَهُ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الِانْتِفَاعَاتِ فَاسْتَحَقَّ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ حَظُّهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ أَوْفَرَ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّ النَّفْعَ الَّذِي يُثِيرُ الْمَحَبَّةَ حَاصِلٌ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ" .

وقال الإمام النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (٢/ ١٦) : " قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ وَمِنْ مَحَبَّتِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُصْرَةُ سُنَّتِهِ وَالذَّبُّ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَتَمَنِّي حُضُورِ حَيَاتِهِ فَيَبْذُلَ مَالَهُ وَنَفْسَهُ دُونَهُ قَالَ وَإِذَا تَبَيَّنَ مَا ذَكَرْنَاهُ تَبَيَّنَ أَنَّ حقيقة الايمان لا يتم الابذلك وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ إِعْلَاءِ قَدْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْزِلَتِهِ عَلَىٰ كُلِّ وَالِدٍ وَوَلَدٍ وَمُحْسِنٍ وَمُفَضَّلٍ وَمَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ هَذَا وَاعْتَقَدَ سِوَاهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللهُ وَاللهُ أَعْلَمُ " .

وروىٰ البخاري (١/ ١٢ برقم ١٦) بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" (١/ ٦١) : " وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ الرَّسُولِ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُزَادُ أَنْ لَا يَتَلَقَّىٰ شَيْئًا مِنَ الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهِيَّاتِ إِلَّا مِنْ مِشْكَاتِهِ وَلَا يَسْلُكُ إِلَّا طَرِيقَتَهُ وَيَرْضَى بِمَا شَرَعَهُ حَتَّىٰ لَا يَجِدَ فِي نَفْسِهِ حَرَجًا مِمَّا قَضَاهُ وَيَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ فِي الْجُودِ وَالْإِيثَارِ وَالْحِلْمِ وَالتَّوَاضُعِ وَغَيْرِهَا فَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَتَتَفَاوَتُ مَرَاتِبُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ ذَلِكَ " .

رَابِعَاً: الإِيْمَانُ بِعُمُوْمِ رِسَالَتِه :

خَامِسَاً : الاعْتِقَادُ بِكَوْنِهِ خَاتَم الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِيْن :

قال تعالى : ﴿مَا كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهَّ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

وروىٰ البخاري (١٨٦/٤ برقم ٣٥٣٥) ، مسلم (١٧٩١/٤ برقم ٢٢٨٦) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ " مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ،

إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ " .

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٦/ ٥٥٩) : " وَفِي الْحَدِيثِ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ لِلتَّقْرِيبِ لِلْأَفْهَامِ وَفَضْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ وَأَنَّ اللهَ خَتَمَ بِهِ الْمُرسلين وأكمل بِهِ شرائع الدّين" .

وقال الإمام ابن تيمية في " مجموع الفتاوى" (١١/ ١٧٠) : " فَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَأَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنِ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ؛ وَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضِ فَهُوَ كَافِرٌ لَيْسَ بِمُؤْمِنِ " .

سَادِسَاً : اعْتِقَادُ أَفْضَلِيَّتِه عَلَى جَمِيْعِ الخَلْق:

أَوَّلاً : دَلَالَةُ القُرْآنِ العَظِيْمِ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدَاً أَفْضَل العَالَمِيْن:

أدلَّة القرآن العظيم على أنَّ مُحَمَّدَاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل العالمين كثيرة وعديدة ، من الصَّعب جمعها وعدّها وحصرها ، لذلك أحببت الإشارة إلى أهمها وأشهرها ، من ذلك:

(١) قوله تعالى : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجات ﴾** [البقرة:٢٥٣] . والآية نصٌّ صريح محكم على تفضيل بعض النَّبيين على بعض ، فهي إعلام بأنَّ بعض الرُّسل أفضل من بعض على وجه الإجمال ، وعدم تعيين الفاضل من المفضول ، ذلك أنَّ كل فريق اشتركوا في صفة خير لا يخلُونَ من أن يكون بعضهم أفضل من بعض بما للبعض من صفات كمال زائدة على الصِّفة المشتركة بينهم...

وقد ثبت أنَّ محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الرُّسل لما تظاهر من آيات تفضيله ، وتفضيل الدِّين الذي جاء به ، وتفضيل الكتاب الذي أنزل عليه . انظر: التحرير و التنوير (٢/ ٤٨٣) ، البحر المحيط (٢/ ٢٨٢) ، نظم الدرر (١/ ٤٨٣-٤٨٤) ، روح البيان (١/ ٤٨٤-٤٨٥) ، محاسن التأويل ٢(/ ٥٨٢-٥٨٣) ، تفسير الشعراوي (٢/ ١٠٧٠-١٠٧٣) ، حاشية الشهاب على البيضاوي (٢/ ٥٧٣-٥٧٤) ، فتح القدير (ص ٢٣٢).

وقد روي عن ابن عبَّاس ، والشَّعبي ، ومجاهد ، أنّ المعني بقوله تعالى : **﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾** ، إنَّما هو **محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** . انظر : تفسير الطبري (٣/ ٣) ، الدر المنثور ٢(/ ٥) ، تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٤) ، روح البيان (١/ ٤٨٥) ، تفسير الرازي (٦/ ١٧١) .

قال الإمام الزَّمخشري في " الكشَّاف" (١/ ٣٨٢) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ**﴾ : " أي : ومنهم من رفعه علىٰ سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة ، والظَّاهر أنَّه أراد محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنَّه هو المفضَّل عليهم ، حيث أُوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلىٰ ألف آية وأكثر ، ولو لم يؤت إلَّا القرآن وحده لكفىٰ به فضلاً منيفاً علىٰ سائر ما أوتي الأنبياء ، لأنَّه المعجزة الباقية علىٰ وجه الدَّهر دون سائر المعجزات ، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفىٰ ، لما فيه من الشَّهادة علىٰ أنَّه العلم الذي لا يشتبه ، والمتميِّز الذي لا يلتبس"...

فالتَّفاضل إذن باعتبار الدَّرجات وكثرة المعجزات والمكرمات ... قال الإمام الألوسي في "روح المعاني" (٢/ ٤) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ**﴾ " : " أي : ومنهم من رفعه الله تعالىٰ علىٰ غيره من الرُّسل بمراتب متباعدة ، ومن وجوه متعدِّدة ، وتغيير الأسلوب لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشَّرف ، والمراد ببعضهم هنا النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما ينبئ عنه الإخبار بكونه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم ، فإنَّه قد خُصّ بمزايا تقف دونها الأماني حسرىٰ ، وامتاز بخواص علميَّة وعمليَّة لا يستطيع لسان الدَّهر لها حصراً ، ورقي أعلام فضل رفعت له علىٰ كواهله الأعلام ، وطأطأت له رؤوس شرفات الشَّرف فقبلت منه الأقدام ، فهو المبعوث رحمة للعالمين ، والمنعوت بالخلق العظيم بين المرسلين ، والمنزل عليه قرآن مجيد ﴿**لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت:٤٢] ، والمؤيّد دينه المؤيَّد بالمعجزات المستمرَّة الباهرة ، والفائز بالمقام المحمود ، والشَّفاعة العظمىٰ في الآخرة ، والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنَّه العلم الفرد عن التَّعيين" .

وعليه ، فإنَّ للتَّفضيل أسباب من خلالها يتفاضلون لا يعلمها جميعاً إلَّا الله تعالىٰ ، قال الطاهر بن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير " (٣/ ٦) : " وَأَسْبَابُ التَّفْضِيلِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَىٰ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمُصْلِحَةِ لِلْبَشَرِ وَمِنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَمَا لَقُوهُ مِنَ الْأَذَىٰ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَمَا أُيِّدُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْعَظِيمَةِ الْمُتَفَاوِتَةِ فِي هُدَىٰ الْبَشَرِ، وَفِي عُمُومِ ذَلِكَ الْهُدَىٰ وَدَوَامِهِ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ" أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٤٠٣ برقم ٩٣٠) ، الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩١ برقم ٦٥٣٧) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٤٣٠ برقم ٩٧١٥) من طريقين – وقال : رواه الطبراني عن يزيد بن أبي زياد مولىٰ ابن عباس ، ذكره المزي في الرواة عن أبي رافع ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وبقية رجال الطريق الأولىٰ ثقات .

فَمَا بَالُكَ بِمَنْ هَدَىٰ اللهُ بِهِمْ أُمَمًا فِي أَزْمَانٍ مُتَعَاقِبَةٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلَ الرُّسُلِ" . وانظر أيضاً : الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٤٤٢) ، حاشية الجمل على الجلالين (١/ ١٥٧) ، البحر المحيط (٨/ ٢٨٣)

(٢) قوله تعالىٰ : ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً**﴾ [الإسراء:٥٥] .

والآية كسابقتها دليل واضح بيّن على تفضيل بعض النَّبيِّين على بعض ...

وقد استدلَّ الإمام الزَّمخشري بهذه الآية على أفضليَّته عليه الصَّلاة والسَّلام على سائر النَّبيِّين ، فقال في "الكشَّاف" (٢/ ٤٥٣) : " وقوله : ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ**﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقوله : ﴿**وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً**﴾ دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنَّه خاتم الأنبياء ، وأنَّ أُمَّته خير الأمم ، لأنَّ ذلك مكتوب في زبور داود ، قال تعالىٰ : ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٥] ، وهم محمد وأمته " .

وفي تفسيره لقول الله تعالىٰ : ﴿**وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً**﴾ قال الإمام البروسوي في" روح البيان" (٥/ ٢٠٥) : " إشارة إلى أنَّ فضل النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على داود بقدر فضل القرآن على الزَّبور.

وقد نعت نبيّنا عليه السَّلام وأُمَّته المرحومة في جميع الكتب المتقدِّمة ، وفضَّله الله بكثرة الأتباع أيضاً ، كما قال النَّبيُّ عليه السَّلام : «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، أَنْتُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا» " . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٢٧ ، الطبراني في الكبير (٩/ ١٢)١٢ ، الحاكم في المستدرك ١/ ١٥٥ برقم ٥(٥/ ٣٦٨ برقم ١٩٩٩ ، ابن حبّان في الصحيح (١٦/ ٤٩٩ برقم ٧٤٦٠) ، الدارمي (٢/ ٢٦٦ برقم ٢٨٣٥) ، الترمذي ص ٤١٣ برقم ٤١٣٦ برقم ٢٥٤٦ ، وقال هذا حديث حسن ، ابن ماجه ص ٤٦٢ برقم ٤٢٨٩ ، الطبراني في الأوسط (١/ ٤٣٧ برقم ١٦٠٤) .

فتفضيل بعضهم على بعض منوط بما منحوا من الفضائل النَّفسيَّة ، والصِّفات العليَّة ، والمزايا القُدُسيَّة ، والأسرار الرَّبَّانيَّة ، وإنزال الكتب السَّماويَّة ، وبما أُعطوه لإثبات دعوتهم من الدَّلائل ، والوسائل ، والشَّمائل ، وقد أشار ابن عبَّاس رضي الله عنهما إلى هذا فقال : إنَّ الله فضَّل محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأنبياء ، وعلى أهل السَّماء ، فقالوا : بِمَ يا ابن عبَّاس فضَّله على أهل السَّماء ؟ فقال : إنَّ الله تعالىٰ قال : ﴿**وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء:٢٩] ، وقال لمحمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿**إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح:١] . قالوا : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : قال الله تعالىٰ : ﴿**وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم:٤] . وقال عزَّ وجلَّ لمحمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿**وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾

[سبأ:٢٨] فأرسله إلى الجنّ والإنس . أخرجه الدارمي ١/ ٢٣ برقم ٤٦ ، الطبراني في الكبير برقم ١١٦١٠ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٢٥ برقم ١٣٩٢٧) .

(٣) قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] . والآية تبيّن عظيم فضل الله على سّيدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قرن الله تعالى اسمه مع اسمه سبحانه وتعالى في كلمتي الشَّهادة ، والأذان ، والإقامة ، والتَّشهُّد ، ... فلا يذكر الله تعالى إلَّا ذكر معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قال الإمام القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٠٧) في معنى الآية : " وَقِيلَ: أَيْ أَعْلَيْنَا ذِكْرَكَ، فَذَكَرْنَاكَ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، وَأَمَرْنَاهُمْ بِالْبِشَارَةِ بِكَ، وَلَا دِينَ إِلَّا وَدِينُكَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: رَفَعْنَا ذِكْرَكَ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ، وَفِي الْأَرْضِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَرْفَعُ فِي الْآخِرَةِ ذِكْرَكَ بِمَا نُعْطِيكَ مِنَ المقام المحمود، وكرائم الدَّرجات " .

"وقيل : رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النَّبيِّين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله" . انظر : تفسير الخطيب الشربيني ٤(/ ٦٤١) ، " وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة ، وهو المقام الذي تفرَّد به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر العالمين.

﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في اللوح المحفوظ ، حيث قدر الله أن تمرّ القرون وتكرّ الأجيال ، وملايين الشِّفاه في كلِّ مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصَّلاة والتَّسليم ، والحبّ العظيم العميق.

﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرَّفيع ، وكان مجرَّد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل في هذا الوجود " . انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٠) .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ: كَيْفَ رَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي» . أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٤٩٤) ، السيوطي في الدر المنثور ٨(/ ٥٠٤) ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في الدلائل ، وأبي يعلى وابن حبّان ، أبو يعلى في المسند (٣/ ٣٩٣ برقم ١٣٤٩) ، ابن حبّان ٨(/ ١٧٥ برقم ٣٣٨٢) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٢٤ برقم ١٣٩٢) ، قال : رواه أبو يعلى ، وإسناده حسن.

وبسبب قرن الله تعالى لاسم الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع اسمه في الشَّهادتين ، فإنَّه لا يُذكر الله ذاكر إلَّا ويثنِّي بذكر الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومن المعلوم أنَّ من أشهر الشَّعائر التي اقترن بها اسم الرَّسول مع اسم الله تعالى بعد الشَّهادتين : الأذان.....

(٤) أنَّ الله تعالىٰ قرن اسمه مع محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العديد من آيات القرآن ، من ذلك:

قوله تعالىٰ : **﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾** [النساء:٨٠] ، وقد جاء في الأثر أنَّ سيِّدنا عمر رضي الله عنه قال للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربِّك أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تعالىٰ : **﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾** [النساء :٨٠] . ففوَّض إليك ، فلم تأمر إلَّا بخير ورشد ، بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربِّك أنَّ أهل النَّار يودُّون لو يكونون أطاعوك ، وهم بين أطباقها ، يعذَّبون يقولون : **﴿يَا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾** [الأحزاب:٦٦] . انظر : نهاية السول في خصائص الرسول (ص٣٠) .

وقوله تعالىٰ : **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾** [النساء:١٤] .

وقوله تعالىٰ : **﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾** [المائدة:٥٥] .

وقوله تعالىٰ : **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ﴾** [الأنفال:٢٤] .

وقوله تعالىٰ : **﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾** [المنافقون:٨] .

وفي دراسة لأحد البحَّاثه بدولة الإمارات العربيَّة المتَّحدة ، توصل إلىٰ أنَّ الأذان لا ينقطع عن الكرة الأرضيَّة طيلة اليوم والليلة ، فهو مستمرٌّ علىٰ مدار أربع وعشرين ساعة ، فما أن ينتهي في منطقة حتىٰ ينطلق في أخرىٰ ، وشرح الباحث عبد الحميد الفاضل فكرته بتوضيحه أنَّ الكرة الأرضيَّة تنقسم إلىٰ (٣٦٠) خطاً تحدِّد الزَّمن في كلِّ منطقة منها ، يفصل كلّ خط عن الخطِّ الذي يليه (٤) دقائق بالضَّبط ، والأصل في الأذان أن ينطلق في موعده المحدَّد ، ويفترض أن يؤدِّيه المؤذِّن أداءً حسناً يستمرُّ أربعة دقائق من الزَّمن ، فإذا افترضنا أنَّ الأذان انطلق الآن في المنطقة الواقعة عند خطِّ الطُّول (١) ، واستمرَّ أربعة دقائق ، فإنَّه سينطلق في المنطقة الواقعة عند الخطِّ (٢) ، وعندما ينتهي سينطلق في الخطِّ الثَّالث ثمَّ الرَّابع ، وهكذا لا ينقطع الأذان طول اليوم ، وبالتَّالي فإنَّ اسم محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتردَّد في كلِّ ثانية من ثواني أيَّامنا.

ويمكن التَّأكُّد بعمليَّة حسابيَّة صغيرة ، كالآتي :

٤ (دقائق) × ٣٦٠ (يوم) = ١٤٤٠ (دقيقة)

١٤٤٠ (دقيقة) ÷ ٦٠ (دقيقة) = ٢٤ (ساعة) اقتبست من شبكة الإنترنت.

فسبحان الله العظيم..........

(٥) أنَّ الله تعالىٰ في خطابه وندائه للأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام كان يناديهم بأسمائهم ، قال تعالىٰ :" يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة " (البقرة/ ٣٥) ، وقال :" يا نوح اهبط بسلام منا " (هود/ ٤٨) ، وقال : " يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا "(الصافات/ ١٠٤-١٠٥) ، وقال :" يا موسىٰ إني أنا ربك "(طه/ ١١-١٢) ، وقال :" يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيىٰ " (مريم/ ٧) ، وقال : " يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوة "(مريم/ ١٢) ، وقال : " يا عيسىٰ ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله " (المائدة/ ١١٦) ، وهكذا......

أما عند ندائه لسيدنا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنه لم يناده إلا بأحبّ الأسماء وأسنىٰ الأوصاف ، كقوله : " يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر"(المائدة/ ٤١) ، وقوله : " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك "(المائدة/ ٦٧) ، وقوله : " يا أيها النبي قل لأزواجك " (الأحزاب/ ٥٩) ، وهذا منه تعالىٰ توقير وإجلال للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو دليل علىٰ أفضليته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ سائر الأنبياء والمرسلين.

ومن المعلوم أنّ من دُعي بأوصافه العلية ، وأخلاقه السنية ، أفضل وأعزّ وأكرم ممن دُعي باسمه العلم الذي لا يشعر بوصف من الأوصاف ، ولا بخلق من الأخلاق . بداية السول ص ١٨ .

(٦) أنّ الله تعالىٰ أقسم بحياة نبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال :" لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون "(الحجر/ ٧٢) ، وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع ، وجاه عريض لم يتأتىٰ لغيره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النبيين . قال ابن عباس : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحدٍ غيره . أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٥٨ برقم ١٦٠٤٨ ، ابن كثير في التفسير ص ٩٥٣.

وذلك يدلّ علىٰ أنه أكرم الخلق علىٰ الله تعالىٰ" . تفسير الرازي ١٩/ ١٦١ .

قال القاضي عياض : " قال تعالىٰ : " لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" (الحجر/ ٧٢) . اتفق أهل التفسير في هذا انه قسم من الله جلّ جلاله بمدّة حياة محمد صلىٰ الله عليه وسلم...... ومعناه : وبقائك يا محمد ، وقيل : وعيشك ، وقيل : وحياتك . وهذه نهاية التعظيم وغاية البرّ والتشريف ... قال أبو الجوزاء :

ما أقسم الله تعالىٰ بحياة أحد غير محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنه أكرم البرية عنده " . الشفا ١/ ٨٦-٨٧ ، وانظر : فتح القدير ص ٩٣٢ ، لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٩٥.

فإقسام الله تعالىٰ بحياة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر النبيين دليل علىٰ شرفه ومكانته وفضله .... ، وفي آية أخرىٰ قال تعالىٰ : " يس و القرآن الحكيم " (يس/ ١-٢) ، وقد روىٰ البيهقي بسنده عن ابن عمر عن محمد بن الحنفية ، قال :" يس " محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٣٢ برقم ٦١ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٣٨ ، وقال : أخرجه ابن مردويه ، وابن أبي المنذر ، والبيهقي في الدلائل.

وروىٰ البيهقي - أيضاً - ، عن أبي زكريا يحيىٰ بن محمد العنبري قال : لنبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسة أسماء في القرآن : محمد ، وأحمد ، وعبد الله ، وطه ، وياسين ، ...... قال تعالىٰ : " يس " يعني يا إنسان ، والإنسان ها هنا العاقل وهو محمد . أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٣٣ برقم ٦٣ ، وذكره القرطبي في التفسير ١٥/ ٥ ، والقاضي عياض في الشفا ١/ ٨٨ .

)٦ (أنَّ الله تعالىٰ أمر نبيَّنا محمداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاقتداء بالهدي الذي كان عليه أنبياؤه ورسله ، إذ أنَّه سبحانه بعد أن قال عن أنبيائه ورسله : " وهديناهم إلىٰ صراط مستقيم " [الأنعام:٨٧] ، قال : " أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة "[الأنعام:٨٩] ، ولذلك أمر النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاهتداء بما كانوا عليه من الهدىٰ ، قال تعالىٰ :" ... أولئك الذين هدىٰ الله فبهداهم اقتده "[الأنعام:٩٠] ، وفي ذلك دلالة علىٰ كونه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلهم...

قال الإمام الخازن في " التَّفسير" (١/ ٤٠٩) : " احتجَّ العلماء بهذه الآية علىٰ أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ، بيانه : أنَّ جميع خصال الكمال وصفات الشَّرف كانت متفرِّقة فيهم ، فكان نوح صاحب احتمال علىٰ أذىٰ قومه ، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله عزَّ وجلَّ ، وكان إسحق ويعقوب من أصحاب الصَّبر علىٰ البلاء والمحن ....ثمَّ إنَّ الله تعالىٰ أمر نبيَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقتدي بهم ، وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرِّقة فيهم ، فثبت بهذا البيان أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرِّقة في جميعهم ."

وقال الإمام ابن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير" (٦ / ٢٠٥-٢٠٦) في تفسيره للآية : " وقوله : ..... فبهداهم اقتده " تفريع على كمال ذلك الهدى ، وتخلُّصٌ إلى ذكر حظ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هدى الله بعد أن قُدِّم قبله مُسهَبُ ذكر الأنبياء وهديهم إشارة إلى علو منزلة محمد وأنها منزلة جديرة بالتخصيص بالذكر ، حيث لم يذكر مع الأنبياء المتقدمين ، وأنه جمع هدى الأولين ، وأكملت له الفضائل ، وجُمع له ما تفرق من الخصائص والمزايا العظيمة . وفي إفراده بالذكر وترك عدّه من الأولين رمز بديعٌ إلى فذاذته وتفرد مقداره ، ورَعْي بديع لحال مجيء رسالته بعد مرور تلك العصور المتباعدة أو المتجاورة ، ولذلك قُدِّم المجرور وهو(بهداهم) على عامله ، للاهتمام بذلك الهدى ، لأنه هو منزلتك الجامعة للفضائل والمزايا ، فلا يليق به الاهتداء بهدى دون هداهم.......

وأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاقتداء بهداهم يؤذن بأنّ الله زَوى إليه كلّ فضيلة من فضائلهم التي اختصّ كل واحد بها سواء ما اتفق منه واتحد ، أو اختلف وافترق ، فإنما يقتدي بما أطلعه الله عليه من فضائل الرسل وسيرهم ، وهو الخُلق الموصوف بالعظيم في قوله تعالى :" وإنك لعلى خلق عظيم " [القلم:٤] .

وقد قام عليه الصَّلاة والسَّلام بما أمر به ، فجمع ما كان عليه جميع الأنبياء من محاسن الأخلاق وأجودها ، فوجب لذلك أن يكون أفضلهم.

وقال الإمام الرَّازي في " التَّفسير" () :" احتج العلماء بهذه الآية على أنّ رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام ، وتقريره هو : أنّ خصال الكمال وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ...... ثم إنه تعالى لما ذكر الكلّ أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بهم بأسرهم ، فكان التقدير كأنه تعالى أمر محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، ولما أمره بذلك ، امتنع أن يقال : إنه قصر في تحصيلها ، فثبت أنه حصلها ، ومتى كان الأمر كذلك ، ثبت أنه اجتمع فيه من خصال الخير ما كان مفرقاً فيهم بأسرهم ، ومتى كان الأمر كذلك ، وجب أن يقال : إنه أفضل منهم بكليتهم ". تفسير الرازي ١٣/ ٥٨.

٧. أنّ الله تعالى أخذ العهد على جميع الأنبياء والمرسلين بالإيمان به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه ونصرته إذا بُعث وهم أحياء ، قال تعالى : " وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم

جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين" (آل عمران/ ٨١) .

وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قوله : لم يبعث الله عزّ وجل نبياً ، آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد : لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه، فقال :" وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة " ... الآية . أخرجه الطبري في التفسير ٣/ ٤٥٠ برقم ٥٧٩٠ ، السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٤٠ ، ونسبه لابن جرير ، ابن كثير في التفسير ص ٣٢١.

وفي هذا بيان لرفعته ومكانته وعظيم قدره وأفضليته على سائر النبيين ....

٨. أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى النَّاس كافَّة ، قال تعالى مبيناً عموم دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً "(سبأ/ ٢٨) . فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرسول الوحيد الذي أرسل لعموم الإنس والجن . والأدلة على إرساله للجن عديدة منها هذه الآية . " قال أبو الوفا بن عقيل : الجن داخلون في مسمى الناس لغة . وقال الجوهري : الناس قد يكون من الإنس والجن . وقال الراغب : الناس جماعة حيوان ذوي فكر وروية ، والجن لهم فكر وروية ، والناس من ناس ينوس إذا تحرك ".. قرة العين ص ١٣ ، وانظر: لسان العرب ٣/ ٧٤١ ، مادة : نوس ، تهذيب اللغة ١٣/ ٦٢.

ووجه الدلالة من الآية على أفضليته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر النبيين هو أنه كلما كانت دائرة مسؤوليته كبيرة ، كانت المشقة أكبر ، وكبر المشقة سبب لكثرة الأجر ، لأنّ الأجر على قدر المشقة.

قال الإمام ابن تيمية : ".... الرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى والنصر والقهر ..." . مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣١٥.

٩. التفضيل بكثرة المعجزات ، فمن المعلوم أنّ أعظم الرسل معجزات وأكثرها هو سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد قيل : إنها تبلغ ألفاً ، قاله البيهقي ، وقيل : ألفا ومائتين ، قاله النووي . وقيل : ثلاثة آلاف سوى القرآن ، حكاهما البيهقي . وذكر بعض العلماء أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصة . انظر : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١١/ ٥٢ ، شرح الزرقاني ٥/ ٢٠٦ فما بعدها ، حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين ص ١٤ فما بعدها.

١٠.	التفضيل بخيرية الأمة ، وكثرة الأتباع ، قال تعالىٰ عن أمة سيدنا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" كنتم خير أمة أخرجت للناس " (آل عمران / ١١٠) ، ووجه الدلالة من هذه الآية علىٰ أفضلية سيدنا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ سائر الأنبياء والمرسلين : أنّ الآية دلت دلالة واضحة بيّنه علىٰ أنّ أمة سيدنا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي خير الأمم ، وما نالت الأمة هذا الشرف الرفيع إلا بسبب متابعتهم له عليه الصلاة والسلام ، قال الإمام التفتازاني :" وتفضيل الأمة من حيث إنها أمة ، تفضيل للرسول الذي هم أمته " . شرح المقاصد ٥/ ٤٧.

وقال صاحب الجواهر :" لا شك أنّ الخيرية للأمة إنما هي بحسب كمالهم في الدين ، وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه ، أي : فلولا أنه خير الأنبياء لم تكن أمته خير الأمم ، وقد ثبت بنصّ الآية أنهم خير الأمم ، فيكون نبيّهم خير الأنبياء لما علمت ما بينهما من الملازمة الظاهرة "()
.؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

ومن خيرية هذه الأمة : كثرة الأتباع ، فقد روىٰ الشيخان من حديث ابن عباس مرفوعاً : "عُرضت عليّ الأمم فأجد النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمرّ معه النفر ، والنبي يمرّ معه العشرة ، والنبي يمرّ معه الخمسة ، والنبي يمرّ وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، فقلت : يا جبريل ، هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلىٰ الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك .... ". جواهر البحار في فضائل النبي المختار ٢/ ١٣٠
.

وفي شرحه لحديث :" ولن تزال هذه الأمة قائمة علىٰ أمر الله لا يضرّهم من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله "، أخرجه البخاري ص ٣٩ برقم ٧١ ، كتاب العلم ، باب : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

قال ابن أبي جمره :" وفي هذا دليل علىٰ أفضلية هذه الأمة علىٰ غيرها من الأمم ، إذ أنّ الله عزّ وجل أبقاها علىٰ دينها إلىٰ قيام الساعة من غير أن يدخل عليها في ذلك خلل ، ولا تتعبد لغير ما شرع لها ، وغيرها من الأمم ليس كذلك ، لأنه لم تأت أمة قط حتىٰ تنقرض الأخرىٰ ، وفي هذا دليل علىٰ شرف النبي إذ إنه بسببه حصلت لها هذه السعادة العظمىٰ" . عون المريد ٢/ ٧٧٨ نقلاً عن بهجة النفوس لابن أبي جمره ١/ ١١٨.

ومن الآيات الدالة على خيرية هذه الأمة وأفضليتها على جميع الأمم ، قوله تعالى :" وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً "(البقرة/ ١٤٣) ، " أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم ، والوسط العدل ، وأصل هذا أنّ أحمد الأشياء أوسطها ، وروى الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله :" وكذلك جعلناكم أمة وسطاً " قال : عدلاً (تفسير القرطبي ٢/ ١٥٣ ، وانظر : تفسير الطبراني ١/ ٢٥٨-٢٥٩ ، روح المعاني ١/ ٤٠٤ ، روح البيان ١/ ٣١٠-٣١١ .) والحديث أخرجه الترمذي ص برقم ٢٩٦١ ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة البقرة ، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

ولأنّ هذه الأمة أمة عدل وخيرية ستشهد للنبيين بالتبليغ يوم الدين ، فقد روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : " يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فتشهدون أنه قد بلغ (ويكون الرسول عليكم شهيداً) ، كذلك قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ، الوسط العدل". أخرجه البخاري ص ٨٤٩ برقم ٤٤٨٧ ، كتاب التفسير ، باب قول الله تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً."

وجاء في رواية أحمد :"....... فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أنّ الرسل قد بلغوا ، فذلك قوله : لتكونوا شهداء على الناس ". أخرجه أحمد ص ٧٩٣ برقم ١١٥٧٩.

١١. أنّ الله سبحانه وتعالى تولى بسه ن الجدال والدفاع عنه ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بينما غيره من الأنبياء والمرسلين كانوا يجادلون عن أنفسهم وينافحون.

فها هم قوم نوح عليه السلام يقولون له : " إنا لنراك في ضلال مبين " (الأعراف/ ٦٠)

فأجابهم بنفسه ، فقال : " ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون "(الأعراف/ ٦١-٦٢) ، وها هم قوم هود عليه السلام يقولون له :" أنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين" (الأعراف/ ٦٥) . فأجابهم قائلاً :" يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين" (الأعراف/٦٦)، وها هو فرعون يقول لموسى عليه السلام :" إني لأظنك يا موسى مسحوراً "(الإسراء/ ١٠١) فأجابه موسى بقوله :" إني لأظنك يا فرعون متبوراً."

وأما نبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد تولىٰ الله بنفسه الدفاع والمجادلة عنه ، فلما قالوا عنه :" بل هو شاعر "(الأنبياء/ ٥) ، ردّ الله تعالىٰ عليهم فقال :" وما علمناه الشعر"(يس/ ٦٩) ، وقال أيضاً : " ... ولا بقول شاعر "(الحاقة/ ٤١) ، ولما اتهموه بالكهانة ، أجاب الله تعالىٰ عنه ، فقال :" ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون "(الحاقة/ ٤٢) ، وعندما اتهموه بالضلال والغواية ، أجاب الله تعالىٰ عنه ، فقال :" ما ضل صاحبكم وما غوىٰ "(النجم/ ٢) ، ولما اتهموه بالجنون ، كما في قوله تعالىٰ :" ويقولون إنه لمجنون" (القلم/ ٥١) ، أجاب الله تعالىٰ عنه ، فقال :" ما أنت بنعمة ربك بمجنون "(القلم/ ٢).

وهذا كله بيان وبرهان وأي برهان علىٰ فضله علىٰ سائر المرسلين ، ودلالة واضحة ناطقة علىٰ علو مكانته وعظيم قدره ورفيع درجته التي لم يصل إليها غيره من الأنبياء والمرسلين.......

١٢. التفضيل بإنزال الشرائع ، كما قال الله تعالىٰ عن سيدنا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجهاً أنظار أهل الكتاب إلىٰ صفته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي لم تزل موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم : " يحلّ لهم الطيبات ويحرم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم " (الأعراف/ ١٥٧) . فمن أوتي من الأنبياء شريعة تامة كاملة ، صالحة لكلّ زمان ومكان أفضل من غيره من الأنبياء.

١٣. ومن عظيم قدره ، وعلو شأنه ومكانته : أنّ الله تعالىٰ أمرنا وطالبنا بتقديره وتبجيله وتعزيره ، بحيث لا يُناديٰ باسمه ، بل يُناديٰ بأحبّ صفاته ومحامده ، نحو : يا رسول الله ، يا نبي الله ، قال تعالىٰ :" لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم "(النور/ ٦٣).

رويٰ ابن كثير وغيره عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد ابن جبير في معنىٰ الآية : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم . فنهاهم الله عزّ وجل عن ذلك ، إعظاماً لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ، قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله . وقال قتاده : أمر الله أن يُهاب نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأن يُبجّل ، وأن يُعظم ، وأن يسوّد . وقال مقاتل في معنىٰ الآية : لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ، ولا تقولوا يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله. انظر : تفسير ابن كثير ص ١٢٢٩ ، الدر المنثور ٦/ ٢١١ ، تفسير القرطبي ١٢/ ٣٢٢ ، روح البيان ٦/ ٢٤٠- ٢٤١.

أما أتباع الأنبياء السابقين ، فإنهم كانوا ينادون أنبيائهم بأسمائهم المجردة من غير إضافة ، وقد دلت على ذلك آيات عديدة ، من ذلك:

- قوله تعالى على لسان قوم نوح :" قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا" (هود/ ٣٢) .
- وقوله تعالى على لسان قوم صالح :" وقالوا يا صالح ائتنا بما وعدتنا إن كنت من المرسلين "(الأعراف/ ٧٧).
- وقوله تعالى على لسان قوم موسى :" قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبارين " (المائدة/ ٢٢).
- وقوله تعالى على لسان قوم شعيب :" قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا "(هود/ ٨٧) .
- وقوله تعالى على لسان قوم لوط :" قالوا لو لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين"(الشعراء/ ١٦٧).

"ولا يخفى على أحدٍ أنّ السيد إذا دعا أحد عبيدِه بأفضل ما وُجِد فيه من الأوصاف العليّة ، والأخلاق السنية ، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصفٍ من الأوصاف ، ولا بخُلق من الأخلاق ، أنّ منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعزّ عليه ، وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم . وهذا معل.

انظر : بداية السول ص ١٨-١٩.

وبعد ، فهذه بعض الدلالات القرآنية التي تشير إلى عظيم قدر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى كونه سيد الأنبياء والمرسلين...

ثَانِياً : أَدِلَّةُ السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ عَلَى كَوْنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَل العَالَمِيْن:

أدلَّة السُّنَّة المطهَّرة على كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل العَالَمِيْن كثيرة ، منها:

١. قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة "، أخرجه البخاري ص ٩٠٦ برقم ٤٧١٢ ، كتاب التفسير ، باب : ذرية من حملنا مع نوح ، مسلم ص ٩٣٥ برقم ٢٢٧٨ ، كتاب الفضائل ، باب : تفضيل نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع الخلائق ، واللفظ له

٢. وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنا سيد الناس يوم القيامة ". أخرجه البخاري ص ٦٣٧ برقم ٣٣٤٠ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : قول الله عز وجل ولقد أرسلنا نوحاً إلىٰ قومه ، مسلم ص ١٩٤ ، كتاب الإيمان ، باب : أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها.

٣. والسيد هو الذي فاق قومه ، وقام بأمرهم ، وتحمل مكارههم ، ولا يكون كذلك إلا إذا اتصف بالصفات العلية ، والأخلاق السنية ، قال الإمام النووي :" قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ...." قال الهروي : السيد هو الذي يفوق قومه في الخير ، وقال غيره : هو الذي يفزع إليه في النوائب والشدائد ، فيقوم بأمرهم ، ويتحمل عنهم مكارههم ، ويدفعها عنهم . وأما قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يوم القيامة " مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة ، فسبب التقييد أنّ في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ، ولا يبقىٰ منازع ، ولا معاند ، ونحوه ، بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين . وهذا التقييد قريب من معنىٰ قوله تعالىٰ :" لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " (غافر/ ١٦) مع أنّ الملك لله سبحانه قبل ذلك ، لكن كان في الدنيا من يدعي الملك أو من يضاف إليه مجازاً ، فانقطع كل ذلك في الآخرة . قال العلماء : وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنا سيد ولد آدم " لم يقله فخراً ، بل صرّح بنفي الفخر في غير مسلم في الحديث المشهور : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . أخرجه أحمد ص ٧٥٠ برقم ١١٠٠٠ ، الترمذي ص ٥٠٠ برقم ٣١٤٨ ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة بني إسرائيل ، ابن ماجه ص ٤٦٤ برقم ٤٣٠٨ ، كتاب الزهد ، باب : ذكر الشفاعة.

٤. وإنما قاله لوجهين ، أحدهما : امتثال قوله تعالىٰ : " وأما بنعمة ربك فحدث " (الضحىٰ/ ١١) ، والثاني : أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلىٰ أمته ليعرفوه ، ويعتقدوه ، ويعملوا بمقتضاه ، ويوقروه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما تقتضي مرتبته ، كما أمرهم الله تعالىٰ . وهذا الحديث دليل لتفضيله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الخلق كلهم" صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٧ ، وانظر: جواهر البحار ٢/ ٦٤" ..

وسيادته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس يوم القيامة ستكون واضحة جلية بما سيعطاه يوم القيامة من الشرف العظيم والمكانة الرفيعة التي عبّرت عنها عشرات الأحاديث الصحيحة التي أبانت عن مجموعة كبيرة من فضائله ، وخصائصه وميزاته ، من ذلك:

أ- أنه أول شافع وأول مشفع ، روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك مرفوعاً : " أنا أول الناس يشفع في الجنة "، وقال : " أنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر " أخرجه مسلم ص ١١١ برقم ١٩٦ ، كتاب الإيمان ، باب : في قول النبي صلى الله عليه وسلم، أنا أول الناس يشفع .

ب- أنه صاحب المقام المحمود ، قال تعالى :" عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً " (الإسراء/ ٧٩) . والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي ليست إلا له ، دون غيره من الأنبياء والمرسلين . فقد روى البخاري بسنده عن ابن عمر قال :" إنّ الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود . أخرجه الدارمي ١/ ٢٤ برقم ٤٩، المقدمة .

ج- أنّ الله تعالى خصه بالكوثر دون سائر النبيين . فعن أنس بن مالك قال : بينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم بين أظهرنا ، إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسماً ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ، قال : أنزلت علي آنفاً سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إنّ شانئك هو الأبتر . ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم ، فيختلج العبد منهم ، فأقول رب إنه من أمتي ، فيقول : ما تدري ما أحدثت بعدك " . أخرجه مسلم ص ١٧٢ برقم ٤٠٠، كتاب الصلاة ، باب حجة من قال : البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة.

والكوثر خاص بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم ينقل أنّ لغيره من الأنبياء مثله ، قال الحافظ ابن حجر : " المختص بنبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكوثر الذي يصب من مائه في حوضه ، فإنه لم ينقل نظيره لغيره ، ووقع الامتنان عليه به في السورة المذكورة ". فتح الباري ١١/ ٤٦٧.

د- أنّ الخلائق يرغبون إليه يوم القيامة كي يشفع لهم ، كما جاء في حديث الشفاعة.....

ه- أنه أول من يجوز الصراط بأمته ، كما جاء في الحديث : " ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته . أخرجه البخاري ص ١٤١٦ برقم ٧٤٣٧ ، كتاب التوحيد ، باب : قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، مسلم ص ١٠٠ برقم ١٨٢ ، كتاب الإيمان ، باب : معرفة طريق الرؤية .

و- أنّ أمته يدخلون الجنة قبل جميع الخلائق إكراماً له صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال عليه الصلاة والسلام : نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة....". أخرجه مسلم ص ٣٣١ برقم ٨٥٥، كتاب الجمعة ، باب : هداية هذه الأمة ليوم الجمعة.

ز- أنه عليه الصلاة والسلام صاحب لواء الحمد يوم القيامة ، وهو لواء حقيقي اختص عليه الصلاة والسلام بحمله دون سائر الأنبياء والمرسلين ، خصّه الله تعالىٰ به لحمده الله تعالىٰ بمحامد لم يحمده بها غيره . وقد دلّت السنة علىٰ اختصاصه بهذه الخصيصة ، فقد روىٰ الترمذي وغيره بسندهم إلىٰ أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر " . أخرجه الترمذي ص ٥٦٨ برقم ٣٦١٥ ، كتاب المناقب ، باب : في فضل النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، أحمد في المسند ص ٧٥٠ برقم ١١٠٠٠ .

ح- أنه أول من يقرع باب الجنة ، لقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة ". أخرجه مسلم ص ١١١ برقم ١٩٦ ، كتاب الإيمان ، باب : في قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أنا أول الناس يشفع في الجنة ، ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٤١ ، أبو عوانة في المستخرج ١/ ٢٧١ ، البغوي في شرح السنة ٧/ ٤٤٧ ، أبو يعلىٰ في المسند ٧/ ٤٦ .

ط- أنه عليه الصلاة والسلام صاحب الوسيلة ، وهي درجة عالية في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد واحد . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أنه سمع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثمّ صلّوا علي ، فإنه من صلىٰ عليّ صلاة ، صلىٰ الله عليه بها عشراً ، ثمّ سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة ". أخرجه مسلم ص ١٦٥ برقم ٣٨٤ ، كتاب الصلاة ، باب : استحباب القول مثل ما يقول المؤذن.

وغير هذه كثير من الخصائص التي خصّ الله بها النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون غيره من الأنبياء ، وما خصّ بها إلا لشرفه ومكانته وفضله علىٰ من سواه....

وقد استشكل قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" أنا سيد ولد آدم ولا فخر " علىٰ البعض ، ففهم منه عدم تفضيله علىٰ آدم ، وإنما تفضيله علىٰ أولاده . انظر : شرح العقائد النسفية (ص١٦٦) .

والحق أنه استنتاج مردود بالآتي:

أولاً : قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ..." . أخرجه أحمد ص ٢٢٦ برقم ٢٦٩٢ ، الترمذي ص ٥٦٨ برقم ٣٦١٥ ، كتاب المناقب ، باب : في فضل النبي صلىٰ الله عليه وسلم، واللفظ له ، ابن ماجه ص ٤٦٤ برقم ٤٣٠٨ ، كتاب الزهد ، باب : ذكر الشفاعة ، الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٤٥٠ برقم ٥٧١٠ ، البيهقي في الدلائل ٦/ ١٠٦ برقم ٢٢٣١ ، أبو يعلىٰ في المسند ١٥/ ٣٠٣ برقم ٧٣٢٧ ، الطيالسي برقم ٢٨٢٦ ، الدارمي ١/ ٢٣ برقم ٤٧ .

والحديث نصّ صريح علىٰ علوّ قدره ومرتبته وفضله علىٰ سائر النبيين ، آدم وغيره . قال ابن الجوزي في معنىٰ قوله (ولا فخر) : " قال ابن الأنباري : المعنىٰ : لا أتبجح بهذه الأوصاف ، وإنما أقولها شكراً لربي ، ومنبّهاً أمتي علىٰ إنعامه عليّ . وقال ابن عقيل : إنما نفي الفخر الذي هو الكبر الواقع في النفس المنهي عنه الذي قيل فيه : " إنّ الله لا يحب كل مختال فخور "(لقمان/ ١٨) ولم ينف فخر التجمل بما ذكره من النعم التي بمثلها يفتخر ، ومثله قوله : " إنّ الله لا يحب الفرحين " (القصص/ ٧٦) يعني الأشرين ، ولم يرد الفرح بنعمة الله تعالىٰ ". صفة الصفوة ١/ ١٨٣ .

وقال الباجوري في شرح قوله عليه السلام في الحديث : " ولا فخر " : أي : ولا فخر أعظم من ذلك " . شرح الجوهرة (ص ٤١٥).

ثانياً : أنه سيد الخلائق جميعهم بما فيهم آدم ، لقوله في الحديث المتقدم : " أنا سيد الناس يوم القيامة " والحديث صريح في تفضيله علىٰ جميع الخلق حتىٰ آدم عليه السلام ، قال تعالىٰ : " وما ينطق عن الهوىٰ " (النجم/ ٣) ، وإنما تأدب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبيه آدم ، لأنه لا ينبغي للولد أن يقول : أنا أفضل من أبي ، إلا فيما ورد فيه الإذن الإلهي ، كما في حديث:" آدم ومن دونه تحت لوائي " جواهر البحار ٢)٢/ ٦٨. (

٥. وقوله صلى الله عليه وسلم:" فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأُحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون ". أخرجه مسلم ص ٢١١، كتاب المساجد ، باب : ايتاء مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برقم ٥٢٣.

والحديث يدلّ دلالة صريحة على كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من سائر النبيين ، قال الإمام الطحاوي عقب ذكره للحديث :" وفي هذا ذكر تفضيله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على النبيين ، وفيهم إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين ". بيان مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٦٢ ، وانظر : فيض القدير ٤/ ٥٧٧.

٦. أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمّهم ليلة المعراج ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم :" وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، فإذا موسى قائم يصلي " ، وذكر إبراهيم وعيسى ووصفهم ، ثم قال : " فحانت الصلاة فأممتهم " أخرجه مسلم ص ٩٦ برقم ١٧٢ ، كتاب الإيمان ، باب : ذكر المسيح ابن مريم ، البيهقي في الدلائل ٢/ ٢٨٤ برقم ٧٠٢.

٧. ومن المعلوم أنه لا يتقدم إلا الأفضل...

٨. أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضِّل على الأنبياء بأمور جاء ذكرها في الحديث الصحيح : " أعطيت خمساً : لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة ". أخرجه البخاري ص ٨٦ برقم ٣٣٥ ، كتاب التيمم ، باب : (١) ، مسلم ص ٢١١ برقم ٥٢١ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

وفي رواية : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلنا إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون " . أخرجه مسلم ص ٢١١ برقم ٥٢٣ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، البيهقي في الكبرى ٢/ ٤٣٣ ، دلائل النبوة ٦/ ٨٨ برقم ٢٢١٣ ، أبو يعلى في المسند ١٣/ ٢٥٥ برقم ٦٣٦ ، ابن حبان ٦/ ٨٧ برقم ٢٣١٣ ، الطحاوي في المشكل ٣/ ١٣ برقم ٨٥٥ ، أحمد في المسند ص ٦٥٢ برقم ٩٣٢٦ ، البغوي في شرح السنة ١/ ٨٥٣ ، الطبراني في الكبير ٧/ ١٥٤ برقم ٦٦٧٤.

وفي أخرىٰ : " فضّلنا علىٰ الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً ، إذا لم نجد الماء ". أخرجه مسلم ص ١١ برقم ٥٢٢ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ابن أبي شيبه ٧/ ٤١١ ، البيهقي في السنن الكبرىٰ ١/ ٢١٣ ، ابن حبان ١٤/ ٣١٠ برقم ٦٤٠٠ ، الطيالسي ١/ ٤٢٩ برقم ٤١٣ ، الطحاوي في المشكل ٣/ ١٢ برقم ٨٥٤ ، البزار ٤/ ٣٤٤ برقم ٢٨٤٥.

وهناك روايات أخرىٰ غير التي ذكرت أبانت عن خصائص خصَّه الله تعالىٰ بها دون غيره من المرسلين ، لدرجة أنَّ بعض العلماء جمعها في مصنَّفات خاصَّة ، منها :

نهاية السول في خصائص الرسول لابن دحية الكلبي.

غاية السول في خصائص الرسول لسراج الدين بن الملقن.

خصائص النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلاء الدين مغلطاي.

خصائص سيد العالمين ليوسف بن محمد العبادي.

الأنوار بخصائص النبي المختار لابن حجر العسقلاني.

اللفظ المكرم في خصائص النبي المعظم لشهاب الدين أحمد بن عبد السلام المنوفي.

خصائص الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإمام الكاملية.

الإعلام بخصائص النبي عليه السلام لجلال الدين بن البلقيني.

الخصائص الكبرىٰ للسيوطي.

الدرر البهية في شرح الخصائص النبوية لمحمد بن عمر النووي الجاوي.

والرِّوايات الخاصَّة بخصائصه وفضائله التي خصّ بها دون غيره من الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت في تحديد العدد ، فإنَّ ذلك لا يعتبر تعارضاً واختلافاً في الرِّوايات ، لأنَّ الجمع بينها سهل ، وقد جمع العديد من العلماء بينها . قال الحافظ بن حجر في " فتح الباري" (١/ ٤٣٦) :" وَطَرِيقُ الْجَمْعِ أَنْ يُقَالَ لَعَلَّهُ اطَّلَعَ أَوَّلًا عَلَىٰ بَعْضِ مَا اخْتُصَّ بِهِ ثُمَّ اطَّلَعَ عَلَىٰ الْبَاقِي وَمَنْ لَا يَرَىٰ مَفْهُومَ الْعَدَدِ حُجَّةً يَدْفَعُ هَذَا الْإِشْكَالَ مِنْ أَصْلِهِ وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَمْسِ الْمَذْكُورَاتِ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ" .

ثمَّ إنَّ العدد لا مفهوم له ، كما هو رأي العديد من أهل الأصول، فقوله : " أُعْطِيْتُ خَمْسَاً " لا يُفيد نفي ما فوقها كالستَّة والسَّبعة ...

ثَالِثَاً : دِلَالَةُ الإِجْمَاعِ وَالعَقْلِ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدَاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَل العَالَمِيْن:

أَوَّلاً : دِلَالَةُ الإِجْمَاع:

الإجماع حجَّة شرعيَّة لازمة ، قال الإمام الخطيب البغدادي في " الفقيه والمتفقِّه" (ص١٥٤) : " إجماع أهل الاجتهاد في كلِّ عصر حجَّة من حجج الشَّرع ، ودليل من أدلَّة الأحكام مقطوع على مغيبة ، ولا يجوز أن تجتمع الأمَّة على خطأ ... " .

والمسائل التي أجمعت عليها الأمَّة عديدة ، وقد صُنِّفت في ذلك المصنَّفات ، ومن جملة ما أجمعوا عليه : أفضليَّة سيِّدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع المرسلين...

ومن أقوال العلماء في ذلك:

قال الإمام فخر الدِّين الرَّازي في كتابه : " مفاتيح الغيب" (٦/ ١٦٥) : " أجمعت الأمَّة على أنَّ بعض النَّبيِّين أفضل من بعض ، وعلى أنَّ محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل وأكمل ..." .

وقال الإمام السَّعد التَّفتازاني في كتابه : " شرح المقاصد" (٥/ ٤٧) :" وأجمع المسلمون على أنَّ أفضل الأنبياء محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وقال الإمام محمَّد بن جعفر الكتاني في "جلاء القلوب " (٢/ ٧٢) بعد أن ذكر أنَّ الخلاف في المفاضلة بين الملائكة والنَّبيِّين مخصوص بغير نبيِّنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أمَّا هو – أي النَّبي – فالإجماع كما ذكره فخر الدِّين الرَّازي ، وأبو عبد الله الأُبِّي ، وغيرهما على أنَّه أفضل من المخلوقات على الإطلاق ، وأجلّهم عند الله ، وأكملهم بطريق العموم والاستغراق . وفي نظمٍ محصل المقاصد في كلامه على الأنبياء:

وإنّهم أفضل في الأصحِّ ... من الملائكة دون قدح
نبيّنا ذا الخلق لا يشمله ... ومن يعمّمه يخصّ قوله
قلت كما يظهر في الأبكار ... للآمدي يرد بالأقطار
نبيّنا أفضل بالإطباق ... من كلِّ مخلوق على الإطلاق

وفي أرجوزة علم الكلام لسيِّد حمدون بن الحاج السّلمي المرداسي:

الرُّسل أفضل من الملائك والمصطفى أفضل من أولئك

هو أجل ما اختفى وظهر انعقد الإجماع فيه واشتهر

وقال الدُّكتور البوطي في" كبرى اليقينيَّات الكونيَّة" (ص١٩٩) : " لا ريب أنَّ أفضل الخلق على الإطلاق هو نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو ما أجمع عليه المسلمون قاطبة ... " .

وقد تناول هذا الأمر علماء الأمة في منظوماتهم وأشعاره ...

قال الإمام اللقَّاني في جوهرته:

وأفضل الخلق على الإطلاق نبيّنا فمِل عن الشِّقــاق

وقال صاحب الدرَّة المضيَّة:

وأفضل العالم من غير امترا نبيّنا المبعوث في أمِّ القُرى

وقال الإمام البوصيري:

محمَّد أشرف الأعراب والعجم محمَّد خير من يمشي على قدم

ثَانِيَاً : دِلَالَةُ العَقْلِ:

أدلَّة العقل على أفضليَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر المرسلين كثيرة ، منها:

(١) أَنَّ مُعْجِزَةَ رَسُولِنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِنْ مُعْجِزَاتِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ رَسُولُنَا أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ. انظر : تفسير الرازي (٦/ ٥٢٢) .

وأفضليَّة معجزته على سائر معجزات الأنبياء تبدو في أمور كثيرة لم تكن في معجزات غيره من الأنبياء ، فقد امتاز القرآن العظيم على غيره من معجزات الأنبياء بـِ:

(أ) أنَّه باقٍ لا ينسخ.

(ب) أنَّه محفوظ بحفظ الله تعالى ، حيث تعهد الله تعالى بحفظه فقال : **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [الحجر:٩] ، أمَّا معجزات غيره من الأنبياء، فقد انتهت لوقتها ، ولم يبق إلَّا خبرها ، ولم يشاهدها إلَّا من حضرها...

(ج) أنَّه ناسخ لجميع الشَّرائع قبله ومهيمن عليها جميعاً.

(د) أنَّه احتوى على جميع مقاصد الشَّريعة ، وتناول أسباب سعادة الدَّارين.

(ه) أنَّه آخر الكتب السَّماويَّة ، وذلك أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلىٰ النَّاس كافَّة.

(و) أنَّه تضمَّن خلاصة التَّعاليم السَّماويَّة التي تضمَّنتها الكُتُب السَّابقة.

(ز) أنَّه سهل لا مشقَّة علىٰ النَّاس في فَهْمِه ، وكذا لا يصعب عليهم العمل به ، قال تعالىٰ : ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ [القمر:١٧] .

(٢) أنَّ دين محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الأديان ، فيلزم أن يكون محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الأنبياء، بيان الأوَّل: أنَّه تعالىٰ جعل الإسلام ناسخاً لسائر الأديان، والنَّاسخ يجب أن يكون أفضل لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " . أخرجه أحمد في المسند (٣١/ ٥١٠ برقم ١٩١٧٤) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم " .

فَلَمَّا كَانَ هَذَا الدِّينُ أَفْضَلَ وَأَكْثَرَ ثَوَابًا، كَانَ وَاضِعُهُ أَكْثَرَ ثَوَابًا مِنْ وَاضِعِي سَائِرِ الْأَدْيَانِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ" . انظر : تفسير الرازي (٦/ ٥٢٣) .

﴿سُؤالٌ﴾ : بِمَاذَا أَجَابَ العُلَمَاءُ عَنْ أَحَادِيْثِ النَّهي عَنْ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الأَنْبِيَاء ؟

الجواب : لقد تبيَّن ممَّا سبق بيانه أنَّ التَّفاضُل بين الأنبياء أمرٌ ثابت في الكتاب والسُّنَّة ، ومع ذلك فقد وردت أحاديث تنصُّ نصَّاً صريحاً علىٰ المنع من التَّفضيل ، وفي هذا إشكال ألجأ العلماء لدراسة تلك الأحاديث دراسة معمَّقة ، خلصوا من خلالها إلىٰ الجمع بين ما قرَّره القرآن الكريم من التَّفضيل بين النَّبيِّين ، وبين ما ورد في الأحاديث الصَّحيحة التي تنهىٰ عن التَّفضيل.

والأحاديث التي تنهىٰ عن التَّفضيل هي :

(١) روىٰ البخاري (٣/ ١٢٠ برقم ٢٤١١) ، مسلم (٤/ ١٨٤٤ برقم ٢٣٧٣) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُحَمَّدًا عَلَىٰ العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَىٰ العَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَإِنَّ

النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ" .

(٢) وروى البخاري (٦/ ٥٧ برقم ٤٦٣٠) ، مسلم (٤/ ١٨٤٦ برقم ٢٣٧٧) بسندهما عَنِ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى."

(٣) وروى البخاري (٣/ ١٢١ برقم ٢٤١٢) ، مسلم (٤/ ١٨٤٥ برقم ٢٣٧٤) بسندهما عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِمِ ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: مَنْ؟ "، قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «ادْعُوهُ» ، فَقَالَ: «أَضَرَبْتَهُ؟» ، قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، قُلْتُ: أَيْ خَبِيثُ، عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى" .

(٣) وروى البخاري (٤/ ١٥٩ برقم ٣٤١٤) ، مسلم (٤/ ١٨٤٣ برقم ٢٣٧٣) بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لاَ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا القَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، فَمَا بَالُ فُلاَنٍ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ» فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: " لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي."

(٤) وروى مسلم (٤/ ١٨٣٩ برقم ٢٣٦٩) بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. «

هذه هي أشهر الأحاديث التي جاء النَّهي فيها عن المفاضلة بين الأنبياء...

وحاصل ما ذكره العلماء من تأويلات لأحاديث النَّهي ، ينتظم في النّقاط التّالية:

(١) إنَّما نهىٰ عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقوله بدليل ، أو من يقوله بحيث يؤدِّي إلىٰ تنقيص المفضول ، أو يؤدِّي إلىٰ الخصومة والتَّنازع.

(٢) أو المراد : لا تفضِّلوا بجميع أنواع الفضائل ، بحيث لا يُترك للمفضول فضيلة ، فالإمام مثلاً إذا قلنا أنَّه أفضل من المؤذِّن ، لا يستلزم نقص فضيلة المؤذِّن بالنِّسبة إلىٰ الأذان.

(٣) وقيل : النَّهي عن التَّفضيل إنَّما هو في حقِّ النُّبوَّة نفسها ، كقوله تعالىٰ : **﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾** [البقرة:٢٨٥] ، ولم ينه عن تفضيل بعض الذَّوات علىٰ بعض لقوله : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ﴾** [البقرة:٢٥٣] ، قال الإمام القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٣/ ٢٦٣) : " وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، فَإِنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الْآيِ وَالْأَحَادِيثِ مِنْ غَيْرِ نَسْخٍ " .

(٤) قال الإمام ابن حجر في " فتح الباري" (٦/ ٤٤٦) : " الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّخْيِيرِ إِنَّمَا هِيَ فِي مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَفْضِيلِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ بَعْضٍ بِالْمُخَايَرَةِ لِأَنَّ الْمُخَايَرَةَ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَ أَهْلِ دِينَيْنِ لَا يُؤمن أَن يخرج أَحدهمَا إِلَىٰ الإزدراء بِالْآخَرِ فَيُفْضِي إِلَىٰ الْكُفْرِ فَأَمَّا إِذَا كَانَ التَّخْيِيرُ مُسْتَنِدًا إِلَىٰ مُقَابَلَةِ الْفَضَائِلِ لِتَحْصِيلِ الرُّجْحَانِ فَلَا يَدْخُلُ فِي النَّهْيِ" ، وانظر : اليواقيت والجواهر (٢/ ٢٢) ، عون المريد (٢/ ٧٨٢) ، تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) ، فتاوىٰ ابن تيمية (١٤/ ٤٣٦) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٣٧-٣٨) ، جواهر البحار (٢/ ١٢٩) ، العقائد الإسلامية لسيد سابق (ص ١٩٩).

(٥) أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا ، لأنَّ التَّفضيل إذا كان علىٰ وجه الحميَّة والعصبيَّة وهوىٰ النَّفس كان مذموماً ، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرَّجل حميَّة وعصبيَّة كان مذموماً ، فإنَّ الله حرَّم الفخر ، وقد قال تعالىٰ : **﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ على بَعْضٍ﴾** [الإسراء:٥٥] ، وقال تعالىٰ : **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ﴾** [البقرة:٢٥٣] ، فعُلم أنَّ المذموم إنَّما هو التَّفضيل علىٰ وجه الفخر ، أو علىٰ وجه الانتقاص بالمفضول .

(٦) أَنَّ قَوْلَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ»، وَقَوْلَهُ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ الْخَاصِّ، أَيْ: لَا يُفَضَّلُ بَعْضُ الرُّسُلِ عَلَىٰ بَعْضٍ بِعَيْنِهِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» فَإِنَّهُ تَفْضِيلٌ عَامٌّ فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ. وَهَذَا كَمَا لَوْ قِيلَ: فُلَانٌ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَلَدِ، لَا يَصْعُبُ عَلَىٰ أَفْرَادِهِمْ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ: فُلَانٌ أَفْضَلُ مِنْكَ" . انظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص١٢٠) ، وانظر : تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) .

(٧) أنّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك تواضعاً منه ، مع علمه أنّه أفضل الأنبياء . انظر : تأويل مختلف الحديث (ص ٧٨) ، اليواقيت والجواهر (٢/ ٢٢) ، البداية والنهاية (١/ ٣٣١) ، دلائل النبوة (٥/ ٣٧٩) ، الشفا(١/ ٤٤٠) .

(٨) أَنَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ الْعِلْمِ بِتَفْضِيلِ اللهَّ لَهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، مَعَ مُرَاعَاتِهِ لِعُلُوِّ مَرَاتِبِهِمُ الْبَاذِخَةِ وَجَلَالَةِ مَنَاصِبِهِمُ الشَّامِخَةِ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَأَفْضَلُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَمَرَ بِتَبْلِيغِ ذَلِكَ فَبَلَّغَهُ كَمَا أُمِرَ، فَالْقُرْآنُ نَاسِخٌ لِلْمَنْعِ عَنِ التَّفْضِيل . انظر : لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٩٨) ، التحرير والتنوير (٢/ ٤٨٤) ، تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) ، مشكل الآثار للطحاوي (٣/ ١٢) ، صحيح مسلم شرح النووي (١٥/ ٣٨) ، الشفا(١/ ٤٣٩) .

(٩) أنَّ الْمَنْعَ مِنَ التَّفْضِيلِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي هِيَ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاضُلَ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ فِي زِيَادَةِ الْأَحْوَالِ وَالْخُصُوصِ وَالْكَرَامَاتِ وَالْأَلْطَافِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْمُتَبَايِنَاتِ، وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فِي نَفْسِهَا فَلَا تَتَفَاضَلُ وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِأُمُورٍ أُخَرَ زَائِدَةٍ عَلَيْهَا، وَلِذَلِكَ مِنْهُمْ رُسُلٌ وَأُولُو عَزْمٍ، وَمِنْهُمْ مَنِ اتُّخِذَ خَلِيلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ" . انظر : تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٣٨) ، الشفا) (١/ ٤٤١) .

(١٠) " لَيْسَ مَقَامُ التَّفْضِيلِ إِلَيْكُمْ وَإِنَّمَا هُوَ إِلَىٰ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَيْكُمُ الِانْقِيَادُ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ" . انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٦٧١) .

(١١) إنّما خصّ سيّدنا يونس بالذّكر خشية على من سمع قوله تعالىٰ : **﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾** [القلم:٤٨] ، أن يقع في نفسه تنقيصه ، والحطّ من مرتبته ، فبالغ في ذكر فضله سدّاً لهذه الّذريعة. انظر : هداية الباري إلىٰ ترتيب أحاديث البخاري (٢/ ١٨٤) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٣٢) ، الشفا(١/ ٤٤٠) .

هذا محصّل ما قاله العلماء من تأويلات للّنهي الوارد في الأحاديث الشّريفة عن التّفضيل بين النّبيّين ، والحقّ أنَّ بعضها لا يخلو من مقال...

فالقول بأنَّ النّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ عن التّخيير والتّفضيل تواضعاً منه ، مع علمه بأنّه أفضلهم ، فهذا لا يسلم من الاعتراض كما قال القاضي في " الشّفا (١/ ٤٤٠) ، لأنَّ هذا التّوجيه لا يتناسب مع قوله في الحديث الآخر الذي رواه البخاري (٦/ ٥٠ برقم ٤٦٠٤) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ فَقَدْ كَذَبَ " ، إن قلنا بعود الضّمير (أَنَا) الوارد في الحديث على الرّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر : تحفة الأحوذي (٨/ ٩٢) .؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ مراجعة التحفة

أمَّا إن حُمل على غير الَّرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهذا لا شيء فيه لأنَّ التَّواضع خُلُق إسلاميٌّ رفيع ، جاء الأمر به في القرآن والسُّنَّة ، قال عليه الصَّلاة والسَّلام : " ... وَإِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ " . أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٨ برقم ٢٨٦٥).

ومن قال بأنَّ النَّهي ورد قبل أن يعلم عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه سيِّد ولد آدم ، وأنَّ النَّهي عن التَّفضيل منسوخ بآيتي البقرة والإسراء ، فهذا فيه نظر ، كما قال الإمام ابن كثير في " البداية والنِّهاية" (١/ ٣٣١) : " لِأَنَّ هَذَا مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَمَا هَاجَرَ أبو هريرة ألا عام حنين مُتَأَخِّرًا ، فَيَبْعُدُ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهَذَا، إِلَّا بَعْدَ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَلَا شكَّ أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الْبَشَرِ، بَلِ الخليقة " ، ثمَّ إنَّ القول بالنَّسخ هنا مردود ، لأنَّ آيات التَّصريح بالتَّفضيل آيات مكيَّة ، وأحاديث النَّهي كانت في المدينة...

وأمَّا قول من قال : إنَّ النَّهي إنَّما هو عن تعيين المفضول ، أمَّا التَّفضيل فيما بينهم بالجملة دون تعيين المفضول فهو دلالة النَّص...

ففي هذا التَّوجيه نظر لأنَّ القرآن ذكر الوجوه التي فضّل بها بعض النَّبيِّين على بعض ، فقد امتدح الله تعالى أولي العزم من الرُّسل الذين هم أفضل الرُّسل ، فقال تعالى آمراً نبيَّه بالتَّأسِّي بهم : **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾** [الأحقاف:٣٥] .

قال الإمام ابن كثير في " التَّفسير" (٥/ ٧٨-٨٨) : " لَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أُولِي الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهُمُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾** [الأحزاب: ٧] ، وَفِي الشُّورَىٰ فِي قَوْلِهِ: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** [الشُّورىٰ: ١٣] . وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَىٰ عَلَىٰ الْمَشْهُورِ " .

ثمَّ إنَّ الرُّسل أفضل من الأنبياء كما هو معلوم ، إذ كلُّ رسول نبي وليس كل نبي رسولاً ، وهذا تعيين، كما في قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْر " تعيين لا يخفىٰ ، لأنَّه يتضمَّن أفضليَّته علىٰ جميع الرُّسل ، وأنه مقدمهم

الفَصْلُ السَّابِعُ

الكَرَامَات

الفَصْلُ الثَّامِنُ

تَعَدُّدُ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّة

الفَصْلُ التَّاسِعُ

الوَحْيُ وَأَنْوَاعَه

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا مَعْنَى الوَحْي وَطُرُقَه وَأَحْوَالَه ؟

الجواب : يُطلق الوحي في اللغة على الإخبار أو الإعلام الخفيِّ السَّريع ، كما يُطلق على الإلهام . قال ابن منظور في "لسان العرب" (٣/ ٨٩٣) : " أصل الوحي في اللغة : إعلام في خفاء ، ولذلك صار الإلهام يسمَّى وحياً "

وقال الأصفهاني في " المفردات القرآنيَّة " (ص٥٥٢) : " أصل الوحي : الإشارة السَّريعة ، ولتضمّن السُّرعة قيل : أمرٌ وحي ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض ، وقد يكون بصوت مجرَّد من التَّركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة " .

وقد ذكر اللغويُّون لكلمة الوحي معاني كثيرة ، منها : الإشارة ، والكتابة ، والكلام الخفي ، والأمر ، والإلهام ، والرِّسالة ، والرُّؤيا الصَّالحة ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك ، ثمَّ قالوا : إنَّ الوحي قصر على الإلهام ، وغلب استعماله فيما يلقى من عند الله تعالى إلى الأنبياء . انظر: لسان العرب (٣/ ٨٩٣) ، بصائر ذوي التمييز (٥/ ١٧٧-١٨٢) ، المفردات القرآنيّة (ص٥٥٢) ، معجم مقاييس اللغة (٦/ ٩٣) ، تهذيب اللغة) (٥ / ١٩٢ -١٩) .

أمَّا الوحي في الشَّرع : فمن خلال التَّعريف اللغوي للوحي نستطيع القول بأنَّ الوحي في الشَّرع هو: إلقاءُ الله تعالى الكلام أو المعنى في نفس من اصطفاه الله من عباده بخفاء وسرعة.

وقد أشار الله تعالى إلى الطُّرق التي يتلقَّى بها الأنبياء الوحي ، فقال سبحانه : **﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾** [الشورى:٥١] .

فالطُّرق ثلاثة:

الأُوْلَى : الوحي المجرَّد أو الإلهام يقظة أو مناماً ، إذ رؤيا الأنبياء حقّ ، وهو وحي من الله تعالى . وهذا القِسم غير خاصٍّ بالأنبياء ؟ فقد أوحى الله إلى الحواريِّين ، وأوحى إلى أمِّ موسى ... ومن ذلك أيضاً ما أخرجه القضاعي في المسند (٢/ ١٨٥ برقم ١١٥١) بسنده عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّه قال : «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ" .

الثَّانِيَة : التَّكلُّم المباشر من وراء حجاب ، كما حصل لموسى عليه السَّلام حين كلَّمه ربُّه في الوادي المقدَّس ، ولسيِّدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج.

الثَّالِثَة : الوحي إلى الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة المَلَك جبريل عليه السَّلام . وهذه الطَّريق تارة تكون خفيَّة ، وهو الغالب ، والقرآن الكريم لم يأت إلَّا عبر هذه الطَّريق ، وتارة يأتي المَلَك بصورة آدمي يراه النَّاس ، كما في حديث عمر الشَّهير ...

وأمَّا عن صفة مجيء المَلَك إلى الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنَّه كان يأتيه بثلاثة أحوال:

الأُوْلَى : أن يراه الرَّسول على صورته الملائكيَّة التي خلقه الله تعالى عليها ، وهذا لم يحدث لنبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا مرَّتين اثنتين : مرَّة وهو خارج من غار حراء بعد انقاع الوحي، والثَّانية في رحلة المعراج...

الثَّانِيَة : أن يأتيه المَلَك مثل صلصلة الجرس ، فينفصم عنه وقد وعى الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه ما قال ، كما جاء في البخاري وغيره، وهذه الحالة هي أشدّ الحالات على الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّالِثَة : أن يتمثَّل له المَلَك رجلاً عاديَّاً ، فيخاطبه ويعي عنه خطابه ، وهذه من أخفِّ الأحوال على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿سُؤالٌ﴾ : مَا هِيَ صُوَرُ نُزوْل جِبْرِيْل عَلَى سَيِّدنَا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

الجواب : جاء سيِّدنا جبريل عليه السَّلام إلى سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدَّة صُوَر ، هي:

الصُّوْرَةُ الأُوْلَى : إِتْيَانُهُ عَلَى الصُّوْرَةِ المَلَكِيَّة:

والذي تقرِّره الأدلَّة الصَّريحة الصَّحيحة أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل عليه السَّلام على صورته التي خلقه الله عليها مرَّتين اثنتين:

الرُّؤيَةُ الأُوْلَى : كانت في الأرض في بداية الوحي ، ويستدلُّ لهذه الرُّؤية بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما رواه البخاري (٦/ ١٧٤ برقم ٤٩٥٤) ومسلم (١/ ١٤٣ برقم ١٦١) بسندهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ، قَالَ فِي حَدِيثِهِ: " بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَك الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي "، فَدَثَّرُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرِّجْزَ فَاهْجُر﴾** ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَهِيَ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ – قَالَ: «ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحْيُ" .

وكانت هذه الرُّؤية بعد انقطاع الوحي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ونزلت عليه بعدها سورة المدَّثِّر ، فقد روى البخاري (٦/ ١٧٤ برقم ٤٩٥٤) ومسلم (١/ ١٤٣ برقم ١٦١) بسندهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ، قَالَ فِي حَدِيثِهِ: " بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَك الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي "، فَدَثَّرُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ**

فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَهِيَ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ – قَالَ: «ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحْيُ" .

الرُّؤْيَةُ الثَّانِيَةُ : كانت في السَّماء ، ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهىٰ ، فقد روىٰ البخاري (٤/ ١١٥ برقم ٣٢٣٤) بسنده عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَىٰ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ" .

قال الإمام ابن كثير في " التَّفسير " (٨/ ٣٣٩) : " وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾** [التكوير:٢٣] ، يَعْنِي: وَلَقَدْ رَأَىٰ محمدٌ جِبْرِيلَ الَّذِي يَأْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا لَهُ سِتُّمِائَةُ جَنَاحٍ**﴿ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾** ، أَيِ: الْبَيِّنُ، وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْأَوْلَىٰ الَّتِي كَانَتْ بِالْبَطْحَاءِ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : **﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾** [النَّجم: ٥ -١٠] ، كَمَا تَقَدَّمَ تفسيرُ ذَلِكَ وَتَقْرِيرُهُ. والدليلُ أَنَّ المرادَ بِذَلِكَ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالظَّاهِرُ–وَاللهُ أَعْلَمُ–أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الرُّؤْيَةَ وَهِيَ الْأُولَىٰ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾** [النَّجم: ١٣ -١٦] ، فَتِلْكَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي سُورَةِ "النَّجْمِ"، وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْإِسْرَاء " .

وفي موقعه علىٰ الشَّبكة العنكبوتيَّة وتحت عنوان : " جبريل في غار حراء منامًا ويقظة" ، تناول الأستاذ الدُّكتور غالب السّرجاني في مقال له رؤية رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل في غار حراء للمرَّة الأولىٰ ، وأنَّها كانت أثناء نومه في الغار ، فقال : "جبريل في غار حراء في منام رسول الله للمرَّة الأولىٰ:

من رواية ابن إسحاق يتَّضح لنا أنَّ جبريل جاء للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المرَّة الأولىٰ كرؤيا في حال النَّوم، فقد قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصًّا: "فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ وَأَنَا نَائِمٌ بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ". ثم في آخر الحديث قال: "فَانْصَرَفَ عَنِّي، وَهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي، فَكَأَنَّمَا كَتَبْتُ فِي قَلْبِي كِتَابًا" .

فهذان النَّصَّان في داخل الرِّواية يُشيران بشكلٍ واضحٍ أنَّ القدوم الأوَّل لجبريل عليه السَّلام في الغار كان في الرُّؤيا، وليس في الحقيقة، وهذا قد يستغربه كثير من النَّاس؛ لأنَّنا نعرف أنَّ جبريل تكلَّم مع رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحقيقة، ولكنَّ واقع الأمر أنَّ هذا سيحدث بعد ذلك.

إنَّ هذه الرُّؤيا التي رآها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستتحقَّق بعد ذلك " كفلق الصُّبح"، وسيرىٰ الموقف نفسه الذي رآه في هذه الرُّؤيا علىٰ وجه الحقيقة بعد ذلك بأيَّام، وهذا يُفسِّر لماذا جمعت عائشة رضي الله عنها في روايتها الرُّؤيا الصَّالحة مع موقف زيارة جبريل الأولىٰ، فعائشة رضي الله عنها كانت تتكلَّم في روايتها عن رؤية جبريل علىٰ وجه الحقيقة؛ ولكنَّها ذكرت موضوع الرُّؤيا الصَّالحة في بداية الرِّواية للدّلالة علىٰ أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأىٰ هذا الموقف الذي تتحدَّث عنه عائشة رضي الله عنها في منامه قبل أن يراه علىٰ الحقيقة؛ بل إنَّ هناك روايةً في البخاري تُصَرِّح فيها عائشة رضي الله عنها بذلك، فتقول: " أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جَاءَهُ المَلَكُ، فَقَالَ : **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾** [العلق: ١-٤] . أخرجه البخاري (٤٦٧٣) .

وكما نرىٰ في هذه الرِّواية أنَّ عائشة رضي الله عنها لم تفصل بين كلمة: " الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ " وبين كلمة: "جَاءَهُ المَلَكُ" بأيِّ فاصل من فواصل العطف، وهذا يعني أنَّ الرُّؤيا الصَّادقة كانت عبارة عن مجيء الملك، فهي في هذه الرِّواية تتحدَّث عن موقف يسبق الموقف الذي تتحدَّث عنه في الرِّواية الأَصْليَّة؛ وهي رواية رؤية المَلَك علىٰ الحقيقة، وواضح أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تروي أحيانًا القصَّة مختصرة، وفي أحيان أخرىٰ ترويها مفصَّلة، وهذا الذي جعل الالتباس يدخل عند البعض عند قراءة الرِّوايات مجتمعة.

رُؤيَةُ جِبْرِيْل عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ بَعْدَ المَنَامِ خَارِجَ الغَار!

إذن كانت المرَّة الأولىٰ لجبريل عليه السَّلام في زيارته لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هيئة رجل جاء إليه في المنام، ودار بينهما الحوار المشهور؛ الذي قال فيه المَلَك لِرَسُوْلِ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اقرأ، فقال: ما أقرأ " إلىٰ آخر الحوار المشهور.

هبَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نومه كما يقول: "وَهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي". وفي الغالب كان يُخالطه شعور كبير من الرَّهبة، وقد يكون من الخوف؛ لأنَّ المَلَك كان يضمُّه ضمَّة شديدة، لعلَّها أرهقته حتىٰ عندما استيقظ في الحقيقة، وتَذَكَّر الرُّؤيا التي رآها، خاصَّة وأنَّه يعرف أنَّ رؤاه كانت تتحقَّق كفلق الصُّبح، فهو يتوقَّع أن يرىٰ مثل هذا الحدث علىٰ وجه الحقيقة، بالإضافة إلىٰ أنَّه سمع في هذه الرُّؤيا كلمات غريبة، وحفظها؛ فالجُمل التي سمعها من جبريل عليه السَّلام : **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾** [العلق: ١-٤] هذه الكلمات ليست بالشِّعر ولا بالكهانة،

والرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح العرب قاطبة، ويعلم أنَّها ليست من كلام البشر، فهذا زاد من رهبته، وخاصَّة أنَّ الآيات التي سمعها تتحدَّث عن الإله، الذي يُفكِّر فيه، ويبحث عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الشُّعور بالرَّهبة والخوف دفعه إلىٰ الخروج من الغار، ومحاولة العودة السَّريعة إلىٰ بيته ليَسْكُن إلىٰ زوجته خديجة رضي الله عنها؛ لكنَّ الأزمة اشتدَّت عندما خرج من معتكفه! لقد سمع صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صوتًا من السَّماء في هذا المكان الموحش يقول له: "يا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَأَنَا جِبْرِيلُ". فيقول رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَىٰ السَّمَاءِ أَنْظُرُ، فَإِذَا جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ صَافٍّ قَدَمَيْهِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَأَنَا جِبْرِيلُ."

هذا الوصف مهم؛ لأنَّه مغاير لوصف آخر سيراه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاحقًا، وهذا الذي يُفَسِّر الاختلافات بين الرِّوايات، فهذه المرَّة الأولىٰ التي رأىٰ فيها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عليه السَّلام، رآه في صورة رجل "يقف" في السَّماء.

كان المنظر مرعبًا -لا شكّ- لدرجة أنَّ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يصرف نظره حتىٰ لا يرىٰ الأمر، فيقول عن نفسه: "فَوَقَفْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَمَا أَتَقَدَّمُ وَمَا أَتَأَخَّرُ وَجَعَلْتُ أَصْرِفُ وَجْهِي عَنْهُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ". ولكن عندما أراد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفعل ذلك الأمر ليتجنَّب رؤية الرَّجل الواقف في السَّماء، إذا به يرىٰ منظرًا أشدَّ رعبًا، وأكثر تخويفًا؛ إذ إنَّه رأىٰ الرَّجل في كلِّ الاتجاهات التي حوله! يقول رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "فَلاَ أَنْظُرُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا (أي من السَّماء) إلاَّ رَأَيْتُهُ كَذَلِكَ."!

ثمَّ يُكْمِل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف حالته المرتعبة فيقول: "فَمَا زِلْتُ وَاقِفًا مَا أَتَقَدَّمُ أَمَامِي، وَمَا أَرْجِعُ وَرَائِي حَتَّىٰ بَعَثَتْ خَدِيجَةُ رُسُلَهَا فِي طَلَبِي، فَبَلَغُوا أَعْلَىٰ مَكَّةَ وَرَجَعُوا إِلَيْهَا، وَأَنَا وَاقِفٌ فِي مَكَانِي ذَلِكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِّي" ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٢٣٦) ،والطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٣٠٠) ، وابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ١٨) ، وفي سيرة ابن إسحاق المطبوعة الرواية "عن عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان... عن بعض أهل العلم أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حين أراد الله...". انظر: ابن إسحاق: السير والمغازي (١/ ١٦٧) ، وقال الصوياني: إسناده صحيح: رواه ابن إسحاق: حدثنا وهب بن كيسان مولىٰ آل الزبير قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عميرة بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله من النبوة.. وهذا الإسناد صحيح: ابن إسحاق لم يدلس، ووهب تابعي ثقة.. انظر: تخريج أحاديث السيرة (١/ ٢٢٣)، وسيرة ابن كثير (١/ ٤٠٢). انظر: الصوياني: السيرة النبوية ١/ ٦٤، وقال البرزنجي في صحيح وضعيف تاريخ الطبري: إسناده ضعيف، ورواه بطوله ابن هشام في سيرته... قال ابن إسحاق: وحدثني وهب بن كيسان... وهو يقول لعبيد بن عمير بن

قتادة الليثي. وهذا إسناد مرسل صحيح، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث... قلنا: والحديث حسن بمجموع طرقه. انظر: صحيح وضعيف تاريخ الطبري (٢/ ١٤)

لقد وقف رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكانه، وما استطاع أن يتحرَّك، ويبدو أنَّ الموقف أخذ وقتًا طويلاً؛ لأنَّ خديجة رضي الله عنها رأت أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تأخَّر عن موعده، فأرسلت رسلها تطلبه في كلِّ مكان؛ لكنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد غادر الغار، ووقف في بطن الجبل، ولم يره النَّاس، فظلَّ واقفًا هذه المدَّة الطَّويلة، ثمَّ بعد أن انصرف الرَّجل الواقف في السَّماء عاد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسرعة إلىٰ خديجة رضي الله عنها وهو في حالة من الرُّعب الشَّديد.

من المؤكَّد أنَّ ذهن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مشغولاً في التَّفكُّر في هذا الحدث المهول الذي رآه منذ لحظات؛ فالرَّجل الواقف في السَّماء صرَّح أنَّ محمَّدًا هو رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وصرَّح بكينونته هو؛ حيث عرَّف نفسه علىٰ أنَّه جبريل؛ لكنَّه لم يُكَلِّفه بشيء، والواقع أنَّنا لا ندري إن كان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم علىٰ وجه اليقين أنَّ هذا الزَّمان هو زمان ظهور نبي، أو أنَّ جبريل هو المَلَك الذي ينزل علىٰ الأنبياء، أم لا يعلم هذه الأمور؛ فالسِّيرة لم تُوَضِّح هذه النُّقطة.

نعم ذكر ورقة بن نوفل قبل البعثة لخديجة رضي الله عنها أنَّه من المحتمل أن يكون الضّوء أو الصَّوت الذي يُشاهده ويسمعه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو النَّاموس الذي كان يأتي موسىٰ عليه السَّلام، وذكر لها كذلك أنَّه من المحتمل أن يُصبح محمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولَ الأمَّة، نعم حدث هذا ولكن تبقىٰ كلّ هذه الكلمات من ورقة وغيره مجرَّد احتمالات لا يدعمها دليل قطعي؛ ومن ثَمَّ فهي تندرج تحت الظُّنون لا اليقين، ولذلك عاد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو خائف بشدَّة من الحدث، لا يدري علىٰ وجه الحقيقة إن كان أمر الرِّسالة والنُّبوَّة سيتحقَّق كما أنبأه الرَّجل الواقف في السَّماء، أم أنَّها أوهامٌ لا يدري ما تفسيرها.

وِقْفَةُ تَأَمُّلٍ مَعَ اللَحَظَاتِ الأُوْلَى لِتَلقِّي الوَحْي:

وخوف الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اللحظات الأولىٰ لتلقِّي الوحي لا بُدَّ أن نتوقَّف معه؛ لأنَّ هذا أمر متكرِّر عند لحظات الوحي الأولىٰ مع بعض الأنبياء، وقد قصَّ لنا القرآن الكريم قصَّة اللحظات الأولىٰ من الوحي التي مرَّ بها موسىٰ عليه السَّلام، وهي اللحظات الوحيدة التي شُرحت في القرآن الكريم عن هذه الصذُورة، ونقل لنا فيها ربُّنا عزَّ وجلَّ ما يدلُّ علىٰ خوف موسىٰ عليه السَّلام كذلك، عندما نزل عليه الوحي للمرَّة الأولىٰ، يقول الله عزَّ وجلَّ علىٰ سبيل المثال في سورة النَّمل : **﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ**

كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] ، وقال تعالىٰ : **﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾** [القصص: ٣١] ، فالخوف الذي حدث مع موسىٰ عليه السَّلام بسبب رؤية العصا تتحوَّل إلىٰ حيَّة، حدث مع رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب الضمَّة الشَّديدة، التي ضمَّها إيَّاه جبريل عليه السَّلام في الرُّؤيا، ثم بعد ذلك عندما رأىٰ جبريل عليه السَّلام واقفًا في السَّماء يخاطبه، ولعلَّنا نتفكَّر في سبب هذه الحالة من الخوف التي انتابت الرَّسولين الكريمين عليهما الصَّلاة والسَّلام عند بداية الوحي؛ فنقول: لعلَّ الحكمة من وراء ذلك أن يُدرك النبيُّ أن هذا الأمر حقيقة، وليس نوعًا من الخيال أو الأوهام، كما أنَّ هذا يلفت النَّظر إلىٰ بشريَّة الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهو -وإن كان مؤيَّدًا بالوحي، ومتابعًا من الله عزَّ وجلَّ بشكل مباشر- فإنَّه في النِّهاية بشر.

وقد أمر الله عزَّ وجلَّ رسولنا الكريم أن يُصَرِّح بهذه الحقيقة في مواقف كثيرة من القرآن الكريم؛ قال تعالىٰ : **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** [الكهف: ١١٠] . وهذا كثير في القرآن الكريم بهدف إثبات بشريَّة الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ حتىٰ لا يُغالي النَّاس بعد ذلك فيه، ويرفعوه إلىٰ مقامات أعلىٰ من مقامات البشريَّة، كما فعلوا قبل ذلك مع عيسىٰ عليه السَّلام، وقد يكون هذا الخوف -أيضًا- لإثبات عدم تشوُّف الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرِّسالة، أو توقُّعه إيَّاها، وهذا يُؤَكِّد صدق النُّبوَّة، وصدق الوحي، وأنَّه ليس من اختراع أو ابتداع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وقد يكون لأسباب أخرىٰ غير التي ذكرناها؛ لكنَّها في النِّهاية حقيقة مشاهَدَة، وأمر واقع، أنَّه كان صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حالة شديدة من الخوف عندما مرَّت به هذه الأحداث الكبيرة " ، والله أعلم.

الصُّورة الثَّانِيَة : إِتْيَانُهُ عَلَىٰ الصُّوْرَةِ البَشَرِيَّة : وقد ذكر القرآن العظيم أنَّ الملائكة الأبرار تشكَّلوا بالصُّورة البشريَّة غير مرَّة...

قال تعالىٰ: **﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾** [هود:٧٧] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٦-١٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٨] .

وروىٰ مسلم في صحيحه (٤/٢١٠٦ برقم ٢٧٥٠) بسنده عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ومن الأدلَّة علىٰ جواز رؤيتهم ما رواه مسلم (١/٥٤٨ برقم ٧٩٦) بسنده عَنْ يَزِيدُ بْنُ الْهَادِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ خَبَّابٍ، حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، حَدَّثَهُ أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ، إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَىٰ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَىٰ، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّىٰ مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأِ

ابْنَ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَىٰ قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّىٰ مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ" .

كما جاء في السُّنَّة المُطهَّرة أنَّ الملائكة تشكَّلوا في الصُّورة البشريَّة في حديث سيِّدنا عُمر بن الخطَّاب المشهور ، وكذا في قصَّة المَلَك الذي اختبر الأبرص والأقرع والأعمىٰ من بني إسرائيل ، ورأىٰ الثَّلاثةُ المَلَكَ بصورته البشريَّة ...

الصُّوْرَةُ الثَّالِثَةُ : أن يأتي إلىٰ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خفية من غير أن يراه أحد ، وهي المعبَّر عنها بصلصلة الجرس ، وهذه الصُّورة هي أشدّ الحالات علىٰ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث تظهر علىٰ سيِّدنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملامح التَّغيُّر ... فقد روىٰ البخاري في الصَّحيح (٤/ ١١٢ برقم ٣٢١٥) بسنده عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ قَالَ: «كُلُّ ذَاكَ يَأْتِينِي المَلَك أَحْيَانًا فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، فَيَفْصِمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، وَيَتَمَثَّلُ لِي المَلَك أَحْيَانًا رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ" .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَمَّا ذكَرَتْهُ بَعْضُ المَصَادِرِ مِنْ مُحَاوَلَةِ الرَّسُوْلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الانْتِحَار أَسَفَاً مِنْهُ وَحُزْنَاً عَلَى انْقِطَاعِ الوَحْيِ عَنْهُ ، وَأَنَّه أَرَادَ أَنْ يُلقِي بِنَفْسِهِ مِنْ رُؤُوسِ الجِبَال ؟

الجواب : ممَّا يؤسف له حقَّاً أن ترتبط مدَّة فتور الوحي عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلامٍ يقدحُ في عصمته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو ما ذكرته بعض المصادر من محاولة الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الانتحار أسفاً منه وحزناً علىٰ انقطاع الوحي عنه ، وأنـّه أراد أن يُلقي بنفسه من رؤوس الجبال.

وقد وجدت تلك الرِّوايات آذاناً صاغية وأقلاماً ظالمة مأجورة اتّهمت النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمحاولة الانتحار خلال الفترة التي فتر الوحي فيها عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جاء هذا الكلام المتهافت عبر عدَّة روايات ضعيفة ، وهي:

أوَّلاً: روىٰ البخاري (٩/ ٢٩ برقم ٦٩٨٢) بسنده عن الزُّهري، قال في قصَّة بدء الوحي : ... ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ،

إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ."

قلت: أخرج الزِّيادة التي ذكرها الزُّهري من بلاغاته : أحمد في مسنده (أحمد ص١٩٢٠ برقم ٢٦٤٨٦ بيت الأفكار) ، والبيهقي في دلائل النبوَّة (٢/ ٩٧ برقم ٤٥٥) من طريق عبد الرزَّاق عن معمر عن الزُّهري به.

وقد علَّق الحافظ ابن حجر في " الفتح" (١٢/ ٣٥٩) على هذه الرِّواية فقال : " وَقَوْلُهُ هُنَا فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا بَلَغَنَا هَذَا وَمَا بَعْدَهُ مِنْ زِيَادَةِ مَعْمَرٍ عَلَى رِوَايَةِ عُقَيْلٍ وَيُونُس ، وَصَنِيعُ الْمُؤَلِّفِ يُوهِمُ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي رِوَايَةِ عُقَيْلٍ ، وَقَدْ جَرَى عَلَى ذَلِكَ الْحُمَيْدِيُّ فِي جَمْعِهِ ، فَسَاقَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ : وَفَتَرَ الْوَحْيُ ثُمَّ قَالَ : انْتَهَى حَدِيث عقيل الْمُفْرد عَن ابن شِهَابٍ إِلَى حَيْثُ ذَكَرْنَا ، وَزَادَ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ فِي حَدِيثِهِ الْمُقْتَرِنِ بِمَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ ، فَقَالَ : وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ فَسَاقَهُ إِلَى آخِرِهِ ، وَالَّذِي عِنْدِي : أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ خَاصَّةٌ بِرِوَايَةِ مَعْمَرٍ ، فَقَدْ أَخْرَجَ طَرِيقَ عُقَيْلٍ أَبُو نُعَيْمٍ فِي مُسْتَخْرَجِهِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ عَنْ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ شَيْخِ الْبُخَارِيِّ فِيهِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بِدُونِهَا ، وَأَخْرَجَهُ مَقْرُونًا هُنَا بِرِوَايَةِ مَعْمَرٍ ، وَبَيَّنَ أَنَّ اللَّفْظَ لِمَعْمَرٍ وَكَذَلِكَ صَرَّحَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي رِوَايَةِ مَعْمَرٍ ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالْإِسْمَاعِيلِيُّ وَغَيْرُهُمْ وَأَبُو نُعَيْمٍ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ جَمْعٍ مِنْ أَصْحَابِ اللَّيْثِ عَنِ اللَّيْثِ بِدُونِهَا ثُمَّ إِنَّ الْقَائِلَ فِيمَا بَلَغَنَا هُوَ الزُّهْرِيُّ ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ : أَنَّ فِي جُمْلَةِ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِه الْقِصَّة ، وَهُوَ مِنْ بَلَاغَاتِ الزُّهْرِيِّ ، وَلَيْسَ مَوْصُولًا . وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ : هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَلَغَهُ بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُور."

وأضاف قائلاً (١٢/ ٣٦٠) :" قَوْلُهُ فِيهَا فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ ، قَدْ يَتَمَسَّكُ بِهِ مَنْ يُصَحِّحُ مُرْسَلَ الشَّعْبِيِّ فِي أَنَّ مُدَّةَ الْفَتْرَةِ كَانَتْ سَنَتَيْنِ وَنِصْفًا كَمَا نَقَلْتُهُ فِي أَوَّلِ بَدْءِ الْوَحْيِ ، وَلَكِنْ يُعَارِضُهُ مَا أخرجه بن سعد من حَدِيث بن عَبَّاسٍ بِنَحْوِ هَذَا الْبَلَاغِ الَّذِي ذَكَرَهُ الزُّهْرِيُّ . وَقَوْلُهُ : مَكَثَ أَيَّامًا بَعْدَ مَجِيءِ الْوَحْيِ لَا يَرَى جِبْرِيلَ فَحَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا حَتَّى كَادَ يَغْدُو إِلَى ثَبِيرٍ مَرَّةً وَإِلَى حِرَاءٍ أُخْرَى يُرِيدُ أَنْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَامِدًا لبعض تِلْكَ الْجِبَالِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا فَوَقَفَ فَزِعًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا جِبْرِيلُ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُتَرَبِّعًا يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَأَنَا جِبْرِيلُ ، فَانْصَرَفَ وَقَدْ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ وَانْبَسَطَ جَأْشُهُ

، ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ . فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ : تَسْمِيَةُ بَعْضِ الْجِبَالِ الَّتِي أُبْهِمَتْ فِي رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ ، وَتَقْلِيلُ مُدَّةِ الْفَتْرَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وقد أشار العديدُ من العلماء إلى تهافُت ما جاء في رواية الزُّهري من بلاغاته ، وأنَّها لا تقوم بها حجَّة...

قال الدُّكتور محمَّد أبو شهبة في كتابه : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة (١/ ٢٦٥-٢٦٦ ببعض الاختصار والتَّصرُّف) في تعليقه على الرِّواية : " هذه الرِّواية ليست على شرط الصَّحيح ، لأنَّها من البلاغات ، وهي من قبيل المنقطع ، والمنقطع من قبيل الضَّعيف ، والبخاري لا يخرِّج إلَّا الأحاديث المسندة المتَّصلة برواية العدول الضَّابطين، ولعلَّ البخاري ذكرها لينبِّهنا إلى مخالفتها لما صحَّ عنده من حديث بدء الوحي الذي لم تذكر فيه هذه الزِّيادة...

إنَّ ما استفاض من سيرته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يردُّ ذلك . فقد حدثت له حالات أثناء الدَّعوة إلى ربِّه أشدّ وأقسى من هذه الحالة ، فما فكر في الانتحار بأن يُلقي نفسه من شاهق جبل أو يبخع نفسه...

إنَّنا لا ننكر أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حصلت له حالة أسى وحزن عميقين على انقطاع الوحي خشية أن يكون ذلك عدم رضا من الله ، وهو الذي كان يهوّن عليه كلَّ شيء من لأواء الحياة وشرائرها ما دام في سبيل الله وفيه رضا الله... وليس أدلَّ على ضعف هذه الزِّيادة وتهافتها من أنَّ جبريل كان يقول للنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلَّما أوفى بذروة جبل : يا محمَّد إنَّك رسول الله حقَّاً ، وأنَّه كرَّر ذلك مراراً، ولو صحَّ هذا لكانت مرّة واحدة تكفي في تثبيت النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصرفه عمَّا حدَّثته به نفسه كما زعموا."

قلت : والمتمعِّن في الرِّواية يجد أنَّها رواية باطلة لـ:

١ -أنَّها تخالف أصلَ العِصمة النَّبويَّة ، فمحاولة الانتحار التي تضمَّنتها الرِّواية ، لا تستقيم مع جلال النُّبوَّة...

٢ -لو بلغ حزن النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فتُور الوحي عنه المبلغ الذي ذكرته الرِّواية لكان في ظهور جبريل عليه السَّلام مرَّة واحدة كفاية له كي يتأكد أنَّه رسول ، فلا معنى إذن لأن يبلغ الحزن فيه مبلغاً يحاول معه الانتحار.

٣ -أنَّ الحديث رواه مسلم (برقم١٦١) وغيره من غير ذكر لمحاولة الانتحار.

٤ -أنَّ النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجاب عائشة حين قالت له: " هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي " أخرجه البخاري (٤/ ١١٥ برقم٣٢٣١) .

فلو كانت مكابدته وحزنه أعظم ممَّا لقيه يوم العقبة لذكر...

٥ -أنّ الرِّواية تفرَّد بها معمر دون يونس وعقيل ، فهي شاذَّة.

٦ -أنّها من بلاغات الزُّهري ، وليست موصولة ، فهي مُرسلة ، والمُرسل من أقسام الضَّعيف ، ومُرسل الزُّهري كما هو معلوم من أضعف المراسيل ، قال الذَّهبي في " السِّير " (٥/ ٣٣٨-٣٣٩) : " قَالَ يَحْيَى بنُ سَعِيْدٍ القَطَّانُ: مُرْسَلُ الزُّهْرِيِّ شَرٌّ مِنْ مُرْسَلِ غَيْرِهِ؛ لأَنَّهُ حَافِظٌ، وَكُلُّ مَا قَدِرَ أَنْ يُسَمِّيَ سَمَّى، وَإِنَّمَا يَتْرُكُ مَنْ لاَ يُحِبُّ أَنْ يُسَمِّيَه. قُلْتُ: مَرَاسِيْلُ الزُّهْرِيِّ كَالمُعْضَلِ؛ لأَنَّهُ يَكُوْنُ قَدْ سَقَطَ مِنْهُ اثْنَانِ، وَلاَ يَسُوغُ أَنْ نَظُنَّ بِهِ أَنَّهُ أَسقَطَ الصَّحَابِيَّ فَقَطْ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَه عَنْ صَحَابِيٍّ لأَوضَحَهُ، وَلَمَا عَجِزَ عَنْ وَصْلِهِ، وَلَوْ أَنَّهُ يَقُوْلُ: عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَنْ عَدَّ مُرْسَلَ الزُّهْرِيِّ كَمُرْسَلِ سَعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ، وَعُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ، وَنَحْوِهِمَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَدرِ مَا يَقُوْلُ، نَعَمْ، مُرْسَلُه كَمُرْسَلِ قَتَادَةَ، وَنَحْوِه. أَبُو حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بنُ أَبِي شُرَيْحٍ، سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: إِرسَالُ الزُّهْرِيِّ لَيْسَ بِشَيْءٍ، لأَنَّا نَجِدُه يَرْوِي عَنْ سُلَيْمَانَ بنِ أَرْقَمَ" .

ومن المعلوم أنّ صحيح البخاري اشتمل على الأحاديث المُسندة، وهذه لا شكَّ في صحَّتها، كما اشتمل على العديد من المعلَّقات ، وبعضها ضعيف ، وكذا على البلاغات الضَّعيفة ، ورواية الزُّهري السَّابقة إحداها.

ثانياً : روى ابن سعد في الطَّبقات الكبرى (١/ ٩٤) بسنده عن ابن عبَّاس أنّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نزل عليه الوحي بحراء مكث أيَّاماً لا يرى جبريل ، فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو إلى ثبير مرَّة وإلى حراء مرَّة ، يريد أن يُلقي نفسه منه ، فبينا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كذلك عامداً لبعض تلك الجبال إلى أن سمع صوتاً من السَّماء...

والحديث ضعيف لأنَّه من رواية محمَّد بن عمر الواقدي ، حاله معروفه : قال عنه البخاري : متروك الحديث ، تركه أحمد ، وابن المبارك ، وابن نمير ، وإسماعيل بن زكريَّا ، وكذَّبه أحمد ، وقال يحيى بن معين : ضعيف ليس بشيء ، وكذَّبه النَّسائي ، وقال ابن عدي : أحاديثه غير محفوظة والبلاء منه ، وقال ابن المديني

: عنده عشرون ألف حديث يعني ما لها أصل ، وقال بندار :ما رأيت أكذب منه، وقال إسحق بن راهويه : هو عندي ممَّن يضع ، وتركه أبو زرعة الرَّازي وأبو بشر الدُّولابي والعقيلي. وقال أبو حاتم : حديثه منكر ، واتَّهمه بوضع الحديث... انظر: تهذيب التَّهذيب (٩/ ٣١٥-٣١٧) ، الوافي بالوفيات (٤/ ١٦٨-١٦٩) ، ديوان الضُّعفاء والمتروكين (٢/ ٣٢٥-٣٢٦) ، ،كتاب الضُّعفاء الكبير (٤/ ١٠٧-١٠٩) ، سير أعلام النُّبلاء (٩/ ٤٥٤ فما بعدها) ، تهذيب الكمال في أسماء الرِّجال (٢٦/ ١٨٠ فما بعدها) .

وإبراهيم بن محمَّد بن أبي موسىٰ لم أتبيَّنه....

أمَّا داوود بن الحصين ، فضعيف، قال سفيان بن عيينة : كنَّا نتَّقي حديثه . وقال أبو زرعة: ليِّن، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، ولولا أنَّ مالكاً روىٰ عنه لترك حديثه ، وضعَّفه عبَّاس الدُّوري ، وتكلَّم التِّرمذي في حفظه ، وله غرائب تُنكر عليه ، وقال السَّاجي : منكر الحديث ، وقال الجوزجاني : لا يحمد النَّاس حديثه ، وعاب غير واحد علىٰ مالك الرِّواية عنه ، وقال أحمد بن عدي : صالح الحديث إذا روىٰ عنه ثقة فهو صالح الرِّواية إلَّا أن يروي عنه ضعيف ، فيكون البلاء منه. انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال (٣/ ٦-٨) ، سير أعلام النُّبلاء (٦/ ١٠٦) ، الوافي بالوفيات (١٣/ ٢٩١) ، تهذيب التَّهذيب (٣/ ١٦٣-١٦٤) ، كتاب الضُّعفاء الكبير (٢/ ٣٥-٣٦) ، ديوان الضُّعفاء والمتروكين (١/ ٢٦٨) ، تهذيب الكمال (٨/ ٣٧٩-٣٨١) . وعليه فالحديث ضعيف ...

ثَالِثَاً : روىٰ الطَّبري في تاريخه (٢٢/ ٢٩٨) بسنده عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا ابتدئ به رسول الله ص مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، كَانَتْ تَجِيءُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، فَكَانَ بغار بحراء يَتَحَنَّثُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ فَجَأَهُ الْحَقُّ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهَّ! قَالَ رَسُولُ الله ص: فَجَثَوْتُ لِرُكْبَتَيَّ وَأَنَا قَائِمٌ، ثُمَّ زَحَفْتُ تَرْجُفُ بَوَادِرِي، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي! حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنِّي الرَّوْعُ، ثُمَّ أَتَانِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهَّ قَالَ: فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حَالقٍ مِنْ جَبَلٍ، فَتَبَدَّىٰ لِي حِينَ هَمَمْتُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنَا جِبْرِيلُ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهَّ ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَقْرَأُ؟ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَتَّنِي ثلاثَ مَرَّاتٍ، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ قَالَ: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» ، فَقَرَأْتُ فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ " ...

والحديث ضعيف ، ففي سنده:

١ -النُّعمان بن راشد الجزري: قال علي بن المديني : ذكره يحيىٰ القطَّان فضعَّفه جدَّاً ، وقال عبد الله بن أحمد : سألت أبي عنه فقال : مضطرب الحديث ، روىٰ أحاديث مناكير ، وقال ابن معين : ضعيف ، وقال مرَّة :

ليس بشيء. وقال البخاري وأبو حاتم : في حديثه وهمٌ كثير ، وقال ابن أبي حاتم : أدخله البخاري في الضُّعفاء ، وقال أبو داوود : ضعيف ، وقال النَّسائي : ضعيف كثير الغلط ، وقال في موضع آخر ، أحاديثه مقلوبه . وقال النَّسائي: صدوقٌ فيه ضعف ، وقال ابن معين: ضعيف مضطرب الحديث . وقال العقيلي: ليس بالقوي يعرف منه الضَّعف. انظر: تهذيب التَّهذيب (١٠/ ٤٠٤) ، كتاب الضُّعفاء الكبير (٤/ ٢٦٨) ، ديوان الضُّعفاء والمتروكين (٢/ ٤٠٤) .

٢ -أنَّ نصَّ الحديث مخالف لجميع النُّصوص التي رويت في الصِّحاح والسُّنن ، والتي جاء فيها قول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل : ما أنا بقارئ ، ولم يقل له كما جاء في هذه الرِّواية : ما أقرأ ؟ فالرِّواية منكرة.

٣ -ثمَّ إنَّ الرِّواية مخالفة للنُّصوص الصَّحيحة الواردة في الصِّحاح والسُّنن والتي جاء فيها أنَّ نزول سورة (إقرأ) كانت منذ مفاجأة جبريل لسيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس في المرَّة الثانية ، كما جاء في هذه الرِّواية ، وهذا ممَّا يؤكِّد نكارتها.

٤ -وأخيراً ، فإنَّ هذه الرِّواية توضِّح أنَّ همَّ النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطرح نفسه من أعالي الجبال ، كان قبل أن ينـزل عليه القرآن ، فحتَّىٰ هذا الأمر المرفوض نقلاً وعقلاً دخله الاضطراب ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله...

رابعاً: روىٰ الطَّبري في تاريخه (٢/ ٣٠٠-٣٠١) بسنده عن ابن حميد، قال: حَدَّثَنَا سلمة، عن مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ مَوْلَىٰ آلِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ يَقُولُ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ قَتَادَةَ اللَّيْثِيِّ: حَدِّثْنَا يَا عُبَيْدُ كَيْفَ كَانَ بَدْءُ مَا ابْتُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النُّبوَّة حين جاء جبريل عليه السَّلام ؟ فَقَالَ عُبَيْدٌ- وَأَنَا حَاضِرٌ يُحَدِّثُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ النَّاسِ: كَانَ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجاور في حراء من كُلِّ سَنَةٍ شَهْرًا، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَنَّثَ بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ... فكان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَاوِرُ ذَلِكَ الشَّهْرَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، يُطْعِمُ من جاءه من المساكين، فإذا قضىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِوارَهُ مِنْ شَهْرِهِ ذَلِكَ، كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ- إِذَا انْصَرَفَ مِنْ جِوَارِهِ- الْكَعْبَةَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ، فَيَطُوفُ بِهَا سَبْعًا، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِهِ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ الشَّهْرُ الَّذِي أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ، مِنَ السَّنَةِ الَّتِي بَعَثَهُ فِيهَا، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، خَرَجَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حِرَاءٍ- كَمَا كَانَ يَخْرُجُ لِجِوَارِهِ- مَعَهُ أَهْلُهُ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي

أَكْرَمَهُ اللهُ فِيهَا بِرِسَالَتِهِ وَرُحِمَ الْعِبَادُ بِهَا، جَاءَهُ جبريل بأمر الله ،فقال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَاءَنِي وَأَنَا نَائِمٌ بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ، فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَقْرَأُ ؟ فَغَتَّنِي، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ الْمَوْتُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَاذَا أَقْرَأُ؟ وَمَا أَقُولُ ذَلِكَ إِلا افْتِدَاءً مِنْهُ أَنْ يَعُودَ إِلَيَّ بِمِثْلِ مَا صَنَعَ بِي، قَالَ : **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** إِلَىٰ قَوْلِهِ : **﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** ، قَالَ: فَقَرَأْتُهُ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَىٰ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِّي وَهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي، وَكَأَنَّمَا كُتِبَ فِي قَلْبِي كِتَابًا.

قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحَدٌ أَبْغَض إِلَيَّ مِنْ شَاعِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ، كُنْتُ لا أُطِيقُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهِمَا، قَالَ: قُلْتُ إِنَّ الأَبْعَدَ- يَعْنِي نَفْسَهُ- لَشَاعِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، لا تُحَدِّثُ بِهَا عَنِّي قُرَيْشٌ أَبَدًا! لأَعْمَدَنَّ إِلَىٰ حَالِقٍ مِنَ الْجَبَلِ فَلأَطْرَحَنَّ نَفْسِي مِنْهُ فَلأَقْتُلَنَّهَا فَلأَسْتَرِيحَنَّ ... " . والحديث منكر ، اشتمل علىٰ ألوان من الألفاظ المُنكَرَة:

١ -قوله : ما أقرأ ، وهذا مخالف لعشرات الرِّوايات التي قال فيها النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسيِّدنا جبريل عليه السَّلام : ما أنا بقارئ.

٢ -قوله : فقرأته ، وهذا أيضاً مخالف للرِّوايات التي نصَّت علىٰ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وهو أمّيٌّ لم يقرأ ولم يكتب.

٣ -أنَّ الرِّواية نصَّت علىٰ أنَّ جبريل جاءه وهو نائم ، وهذا مخالف للرِّوايات الصَّحيحة التي أثبتت أنَّ جبريل جاءه في حالة اليقظة... فمتن الحديث فيه نكارة ، كما أنَّ السَّند فيه:

١ -إرسال عبيد بن عمير ، وهو تابعي وليس صحابيّاً . انظر ترجمته في: تهذيب التَّهذيب (٧/ ٦٤) ، سير أعلام النُّبلاء (٤/ ١٥٦-١٥٧) .

٢ -محمَّد بن حميد الرَّازي ، قال يعقوب بن أبي شيبة : كثير المناكير ، وقال البخاري: في حديثه نظر ، وقال النَّسائي : ليس بثقة ، وقال الجوزجاني : رديء المذهب غير ثقة ، وقال صالح بن محمّد الأسدي : كلّ شيء كان يحدِّثنا ابن حميد كنَّا نتَّهمه فيه ، وقال في موضع آخر : كانت أحاديثه تزيد وما رأيت أحداً أجرأ علىٰ الله منه ، كان يأخذ أحاديث النَّاس فيقلب بعضه علىٰ بعض ، وقال أيضاً : ما رأيت أحداً أحذق بالكذب من رجلين : سليمان الشَّاذكوني ، ومحمَّد بن حميد ، وقال أبو نعيم بن عدي : سمعت أبا حاتم الرَّازي في منـزله وعنده ابن خراش وجماعة من مشايخ أهل الريّ وحفَّاظهم ، فذكروا ابن حميد فأجمعوا علىٰ أنَّه ضعيف في الحديث جدَّاً ، وأنَّه يحدِّث بما لم يسمعه ، وقال النَّسائي: ليس بشيء، وقال عنه في موضع آخر : كذَّاب ،

وقال أبو زرعة : كذَّاب ، وقال الذَّهبي : وهو مع إمامته منكر الحديث ، صاحب عجائب . انظر: تهذيب التَّهذيب (٩/ ١٠٩-١١١) ، الوافي بالوفيات (٣/ ٢٤) ، كتاب الضُّعفاء الكبير (٤/ ٦٠) ، ديوان الضُّعفاء والمتروكين (٢/ ٢٩٣) ، سير أعلام النُّبلاء (١١/ ٥٠٣-٥٠٦) ، تهذيب الكمال (٢٥/ ١٠١-١٠٨) ، ميزان الاعتدال (٦/ ١٢٦-١٢٧) .

٣ -سلمة بن الفضل الأبرش ، قال البخاري: عنده مناكير ، وهَّنه علي _ أي ابن المديني _ ، ثمَّ قال علي: ما خرجنا من الريّ حتى رمينا بحديثه ، وكذَّبه أبو زرعة ، وقال أبو حاتم : في حديثه إنكار ، وقال النَّسائي : ضعيف. وقال أبو حاتم : يُكتب حديثه ولا يُحتجُّ به . انظر : ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٣-٢٧٤) ، لسان الميزان (٣/ ٨٢) ، كتاب الضُّعفاء الكبير (٢/ ١٥٠) ، الوافي بالوفيات (١٥/ ٢٠٠) ، تهذيب التَّهذيب (٤/ ١٣٨-١٣٩) .

﴿سُؤال﴾ : مَاذَا عَنْ فُتُوْرِ الوَحْيِ الأَوَّل ؟

الجواب : من المعلوم أنَّ القرآن أُنزل على النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يتحنَّث في غار حراء ، وأوَّل ما أنزل عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى :**﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [١-٥] .

وأخرج البخاري (١/ ٧ برقم ٣) ومسلم (١/ ١٣٩ برقم ١٦٠) بسندهما عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَك فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» ، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ : **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾** [العلق: ١-٣] "، وكان ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان من سنة أربعين بعد الفيل.

فأوّل سورة أنزلت على النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي سورة (اقرأ) ، وهذا الاسم هو الذي اشتهرت به هذه السُّورة في عهد السَّلف الصَّالح ، وجاءت تسميتها بهذا الاسم على لسان السيِّدة عائشة ، رضي الله عنها . فقد روى الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٠ برقم ٢٨٧٣، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه ، ووافقه

الذَّهبي في التَّخليص) بسنده عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: " أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ : ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١] . ثمَّ سُمِّيت بعد في المصاحف بسورة العلق ، لاشتمال السُّورة على لفظ العلق ...

وبعد نزول هذه السُّورة الكريمة على النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غار حراء ، فتر الوحيُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومعنى فتوره : تأخُّره عنه عليه الصَّلاة والسَّلام. ...

وقد تباينت أقوال العلماء في تحديد المدَّة التي فتر فيها الوحيُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ورأيت خلطاً واضحاً للعلماء بين المدَّة التي فتر فيها الوحي بعد نزول سورة (اقْرَأ) والمدَّة التي فتر فيها الوحي قبل نزول سورة "الضُّحَى" ، إذ من الثَّابت أنَّ الوحي فتر عن النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّتين : الأولى : قبل نزول سورة المدثِّر ، والثَّانية : قبل نزول سورة الضُّحَى ، وتراوحت أقوال العلماء في تحديد مدَّة الفتور الأوَّل ما بين أيَّام إلى ثلاثة أعوام...

قال الإمام الطَّاهر بن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير " (٣٠/ ٣٩٦) : " وَاحْتِبَاسُ الْوَحْيِ عَنِ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَعَ مَرَّتَيْنِ:

أُولَاهُمَا: قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ أَوِ الْمُزَّمِّلِ، أَيْ بَعْدَ نُزُولِ سُورَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى الْخِلَافِ فِي الْأَسْبَقِ مِنْ سُورَتَيِ الْمُزَّمِّلِ وَالْمُدَّثِّرِ، وَتِلْكَ الْفَتْرَةُ هِيَ الَّتِي خَشِيَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونَ قَدِ انْقَطَعَ عَنْهُ الْوَحْيُ، وَهِيَ الَّتِي رَأَى عَقِبَهَا جِبْرِيلَ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مُدَّةَ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَمْ يَشْعُرْ بِهَا الْمُشْرِكُونَ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي مَبْدَأِ نُزُولِ الْوَحْيِ قَبْلَ أَنْ يَشِيعَ الْحَدِيثُ بَيْنَهُمْ فِيهِ وَقَبْلَ أَنْ يَقُومَ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ لَيْلًا.

وَثَانِيَتُهُمَا: فَتْرَةٌ بَعْدَ نُزُولِ نَحْوٍ مِنْ ثَمَانِ سُوَرٍ، أَيِ السُّوَرِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ الْفَتْرَةِ الْأُولَى فَتَكُونُ بَعْدَ تَجَمُّعِ عَشْرِ سُوَرٍ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ هَذِهِ السُّورَةُ حَادِيَةَ عَشْرَةَ فَيَتَوَافَقُ ذَلِكَ مَعَ عَدَدِهَا فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ " .

فالقول بأنَّ مدَّة الفترة الأولى كانت أربعين يوماً ، هو أحد الأقوال المنقولة في هذه المسألة.

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " (١/ ٢٧) : " وَقَعَ فِي تَارِيخِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ مُدَّةَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ كَانَت ثَلَاث سِنِين ، وَبِه جزم بن إِسْحَاق ، وَحَكَى الْبَيْهَقِيُّ أَنَّ مُدَّةَ الرُّؤْيَا كَانَتْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَعَلَى هَذَا فَابْتِدَاءُ النُّبُوَّةِ بِالرُّؤْيَا وَقَعَ مِنْ شَهْرِ مَوْلِدِهِ وَهُوَ رَبِيعٌ الْأَوَّلُ بَعْدَ إِكْمَالِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَابْتِدَاءُ وَحْيِ الْيَقَظَةِ

وَقَعَ فِي رَمَضَانَ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِفَتْرَةِ الْوَحْيِ الْمُقَدَّرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ وَهِيَ مَا بَيْنَ نُزُولِ **﴿أَقرأ﴾** وَ **﴿يَا أَيهَا المدثِّر﴾** عَدَمَ مَجِيءِ جِبْرِيلَ إِلَيْهِ بَلْ تَأَخُّرُ نُزُولِ الْقُرْآنَ فَقَطْ ، ثُمَّ رَاجَعْتُ الْمَنْقُولَ عَنِ الشَّعْبِيِّ مِنْ تَارِيخِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَلَفْظُهُ مِنْ طَرِيقِ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ : أنزلت عَلَيْهِ النُّبُوَّة وَهُوَ بن أَرْبَعِينَ سَنَةً فَقُرِنَ بِنُبُوَّتِهِ إِسْرَافِيلُ ثَلَاثَ سِنِينَ ، فَكَانَ يُعَلِّمُهُ الْكَلِمَةَ وَالشَّيْءَ وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ ، فَلَمَّا مَضَتْ ثَلَاثُ سِنِينَ قُرِنَ بِنُبُوَّتِهِ جِبْرِيلُ فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانه عشْرين سنة .

وَأخرجه بن أَبِي خَيْثَمَةَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ مُخْتَصَرًا عَنْ دَاوُدَ بِلَفْظِ : بُعِثَ لِأَرْبَعِينَ ، وَوُكِّلَ بِهِ إِسْرَافِيلُ ثَلَاثَ سِنِينَ ثُمَّ وُكِّلَ بِهِ جِبْرِيلُ ، فَعَلَى هَذَا فَيَحْسُنُ بِهَذَا الْمُرْسَلِ إِنْ ثَبَتَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فِي قَدْرِ إِقَامَتِهِ بِمَكَّةَ بَعْدَ الْبَعْثَةِ ، فَقَدْ قِيلَ : ثَلَاثَ عَشْرَةَ ، وَقِيلَ : عَشْرٌ وَلَا يَتَعَلَّقُ ذَلِكَ بِقَدْرِ مُدَّةِ الْفَتْرَةِ ، وَاللهُ أعلم.

وَقد حكى بن التِّينِ هَذِهِ الْقِصَّةَ لَكِنْ وَقَعَ عِنْدَهُ مِيكَائِيلُ بَدَلَ إِسْرَافِيلَ ، وَأَنْكَرَ الْوَاقِدِيُّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ الْمُرْسَلَةَ ، وَقَالَ : لَمْ يُقْرَنْ بِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا جِبْرِيلُ ، انْتَهَى.

وَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ ، فَإِنَّ الْمُثْبتَ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّافِي إِلَّا إِنْ صَحِبَ النَّافِيَ دَلِيلُ نَفْيِهِ فَيُقَدَّمُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَأَخَذَ السُّهَيْلِيُّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ فَجَمَعَ بِهَا الْمُخْتَلِفَ فِي مُكْثِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ ، فَإِنَّهُ قَالَ : جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ الْمُسْنَدَةِ أَنَّ مُدَّةَ الْفَتْرَةِ سَنَتَانِ وَنِصْفٌ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ مُدَّةَ الرُّؤْيَا سِتَّةُ أَشْهُرٍ ، فَمَنْ قَالَ : مَكَثَ عَشْرَ سِنِينَ حَذَفَ مُدَّةَ الرُّؤْيَا وَالْفَتْرَةَ ، وَمَنْ قَالَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ أَضَافَهُمَا ، وَهَذَا الَّذِي اعْتَمَدَهُ السُّهَيْلِيُّ مِنَ الِاحْتِجَاجِ بِمُرْسَلِ الشَّعْبِيِّ لَا يثبت ، وَقد عَارضه مَا جَاءَ عَن بن عَبَّاسٍ أَنَّ مُدَّةَ الْفَتْرَةِ الْمَذْكُورَةِ كَانَتْ أَيَّامًا."

قلت : هذا ما قاله الحافظ ونقله عن جمع من أهل العلم ، ولنا عليه مؤآخذتان:

١ -أمَّا مسألة قرْن إسرافيل بالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث سنين ، فهذا ممَّا لا دليل عليه ، بل المحفوظ عن أهل العلم أنَّه لم يقرن به غير جبريل ، قال ابن سعد في " الطَّبقات" (١/ ١٥٠) : " فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ فَقَالَ: لَيْسَ يَعْرِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِبَلَدِنَا أَنَّ إِسْرَافِيلَ قُرِنَ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ وَأَهْلَ السِّيرَةِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ لَمْ يُقْرَنْ بِهِ غَيْرُ جِبْرِيلَ مِنْ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ إِلَى أَنْ قُبِضَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ، لأنَّ جبريل هو صاحب الوحي إلى أنبياء الله تعالى ورسله. ...

وقول الحافظ في اعتراضه على الواقدي: " ولا يخفى ما فيه، فإنَّ المثبت مقدَّم على النَّافي..." كلام غريب ، لأنَّ كلام الشَّعبي كلام غير مُسند ، وكلام العلماء ليس حجَّة في ديننا ، فالحقُّ لا يُعرف بالرِّجال إنَّما يُعرف الرِّجال بالحقِّ ، فالرِّواية مرسلة ، وشاذَّة ، والمُرسل كما هو معلوم من أقسام الضَّعيف. ...

٢ -وأمَّا ما نقله الحافظ عن السُّهيلي، فهو كسابقه ضعيف ، فقد بناه على كلام الشَّعبي السَّابق ، وما بُني على الضَّعيف فهو ضعيف ، على أنَّني وجدت الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧١٠) يؤكِّد في موضع آخر على أنَّ الحقَّ في مدَّة الفتور الأوَّل دامت أيَّاماً فقط ، وأنَّ ما سوى ذلك من الرِّوايات لا يثبت...

وعلى كلِّ حال ، فإنَّ الرِّوايات المنقولة حدَّدت الفترة الأولى بثلاث سنين أو بسنتين ، أو بأيَّام...

قال صفيُّ الرَّحمن المباركفوري في " الرَّحيق المختوم " (ص٥٨) : " أمَّا مدَّة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عبَّاس ما يفيد أنَّها كانت أيَّاماً ، وهذا الذي يترجَّح بل يتعيَّن بعد إدارة النَّظر في جميع الجوانب. وأمَّا ما اشتهر من أنَّها دامت طيلة ثلاثة سنين أو سنتين ونصف فلا يصحّ بحال، وليس هذا موضع التَّفصيل في ردِّه" . وذهب الإمام الألوسي في روح المعاني (١٥/٣٧٦) إلى أنَّ الوقوف على المدَّة التي استغرقها فتور الوحي الأوَّل لا يمكن إلَّا من خلال كلام المعصوم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يحدِّد زمان لذلك ، فقال : " وأنت تعلم أنَّ مثل ذلك ممَّا يتفاوت العلم بمبدئه ، ولا يكاد يعلم على التَّحقيق إلَّا منه عليه الصَّلاة والسَّلام ، والله تعالى أعلم. "

وقد غاب عن الجميع أنَّ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمنا بما من خلاله نستطيع التَّعرُّف على المدَّة التي انقطع فيها الوحي في المرَّة الأولى ، وذلك فيما رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٤٤ برقم ١٦١) بسنده عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ - يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾** [المدثر:٢] .

قال النَّووي في " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج " (٢/٢٠٨) : " قوله "فإذا هو على العرش في الهواء" المراد بالعرش الكرسي، كما تقدّم من الرِّواية الأخرى : " على كرسي بين السَّماء والأرض .

فالنَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاور بحراء شهراً ، وفي هذه الفترة كان الوحي منقطعاً عنه ، بدليل نزول سورة الْمُدثِّر عقبها ، وفي أثناء رجوعه إلىٰ بيته رأىٰ جبريل علىٰ هيئته الملائكيَّة ، فلو فرضنا أنَّ النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عانىٰ من حرّ الشَّوق لجبريل عدداً من الأيَّام هرع بعدها لمناجاة ربِّه لكان في ذلك ما يؤكِّد علىٰ أنَّ المدَّة التي فترَ فيها الوحي عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تزيد علىٰ أربعين يوماً ، والله أعلم.

فهذه الفترة هي التي خشي فيها الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون الوحي قد انقطع عنه ، وهو الفتور الأوَّل عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وفيه حزن حزناً عميقاً ، وحقَّ له أن يحزن ، لأنَّه بالوحي اتَّصل بفاطر الأرض والسَّموات ، فسمت روحه ، واشرأبَّت نفسه لذلك اللقاء العظيم، وقد أحزنه عليه الصَّلاة والسَّلام ، بحسب الطَّبيعة البشريَّة ، تعيير المشركين إيَّاه بانقطاع الوحي عنه...

وعلىٰ كلِّ حال ، فإنَّ في فتور الوحي عن النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك المدَّة من الزَّمان حكمة أرادها الله تعالىٰ من ذلكم الفتور، قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " (١٢/ ٣٦٠) : " أَنَّ عَادَةَ اللهَّ جَرَتْ بِأَنَّ الْأَمْرَ الْجَلِيلَ إِذَا قُضِيَ بِإِيصَالِهِ إِلَى الْخَلْقِ أَنْ يَقْدَمهُ تَرْشِيحٌ وَتَأْسِيسٌ ، فَكَانَ مَا يَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ وَمَحَبَّةِ الْخَلْوَةِ وَالتَّعَبُّدِ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا فَجِئَهُ الْمَلَك فَجِئَهُ بَغْتَةً أَمْرٌ خَالَفَ الْعَادَةَ وَالْمَأْلُوفَ فَنَفَرَ طَبْعُهُ الْبَشَرِيُّ مِنْهُ ، وَهَالَهُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ التَّأَمُّلِ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، لِأَنَّ النُّبُوَّةَ لَا تُزِيلُ طِبَاعَ الْبَشَرِيَّةِ كُلَّهَا ، فَلَا يُتَعَجَّبُ أَنْ يَجْزَعَ مِمَّا لَمْ يَأْلَفْهُ ، وَيَنْفِرَ طَبْعُهُ مِنْهُ ، حَتَّى إِذَا تَدَرَّجَ عَلَيْهِ وَأَلِفَهُ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ ، فَلِذَلِكَ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ الَّتِي أَلِفَ تَأْنِيسَهَا لَهُ فَأَعْلَمَهَا بِمَا وَقَعَ لَهُ فَهَوَّنَتْ عَلَيْهِ خَشْيَتَهُ بِمَا عَرَفَتْهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ وَطَرِيقَتِهِ الْحَسَنَةِ ، فَأَرَادَتِ الِاسْتِظْهَارَ بِمَسِيرِهَا بِهِ إِلَى وَرَقَةَ لِمَعْرِفَتِهَا بِصِدْقِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَقِرَاءَتِهِ الْكُتُبَ الْقَدِيمَةَ ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُ أَيْقَنَ بِالْحَقِّ وَاعْتَرَفَ بِهِ ، ثُمَّ كَانَ مِنْ مُقَدِّمَاتِ تَأْسِيسِ النُّبُوَّةِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ لِيَتَدَرَّجَ فِيهِ وَيَمْرُنَ عَلَيْهِ ف، َشَقَّ عَلَيْهِ فُتُورُهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ خُوطِبَ عَنِ اللهَّ بَعْدُ أَنَّكَ رَسُولٌ مِنَ اللهَّ وَمَبْعُوثٌ إِلَى عِبَادِهِ ، فَأَشْفَقَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَمر بُدِئَ بِهِ ثُمَّ لَمْ يرِدِ اسْتِفْهَامُهُ ، فَحَزِنَ لِذَلِكَ ، حَتَّى تَدَرَّجَ عَلَى احْتِمَالِ أَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالصَّبْرِ عَلَى ثِقَلِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ فَتَحَ اللهَّ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ بِمَا فَتَحَ."

وقال الحافظ في موضع آخر من " الفتح " (١/ ٢٧) : " وَكَانَ ذَلِكَ لِيَذْهَبَ مَا كَانَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَهُ مِنَ الرَّوْعِ وَلِيَحْصُلَ لَهُ التَّشَوُّفُ إِلَى الْعَوْدِ."

وقال الشَّيخ الخضري في " نور اليقين " (ص٢٧) في بيان الحكمة من الفُتور : " ... ليشتدَّ شوق الرَّسول للوحي ، وقد كان."...

فذهاب الخوف والفزع الذي وجده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما فجأه جبريل في غار حراء أوَّل مرَّة ، وحصول الشَّوق ، والتَّرقُّب لنـزوله ثانياً ، وتربية النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصَّبر وتحمُّل الأعباء ، من أعظم حِكَم فتور الوحي عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ جبريل عليه السَّلام ما كـان ينـزل على قلب الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا بأمر الله تعالى الذي لا يسأل عمَّا يفعل وهم يسألون . فقد روي البخاري (٤/ ١١٢ برقم ٣٢١٨) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجِبْرِيلَ: «أَلاَ تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» ، قَالَ: فَنَزَلَتْ : **﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾** [مريم: ٦٤] الآيَةَ .

﴿سُؤالٌ﴾ : مَاذَا عَنْ فُتُوْرِ الوَحْي الثَّانِي ؟

الجواب : اختلف العلماءُ في تحديد المدَّة الثَّانية التي فتر فيها الوحي عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، على أقوال عديدة:

١ –قيل: خمسة عشر يوماً، وهذا مرويّ عن ابن عبَّاس ، في إحدى الرِّوايتين عنه . انظر: التحرير واالتنوير (٣٠/ ٢٤٩) ، تفسير البغوي (ص١٤١٥) ، تفسير الخازن (٦/ ٤٤٤) ، حاشية الصّاوي على الجلالين (٦/ ٢٩٥) ، تفسير الجلالين (ص٥٩٦) ، زاد المسير في علم التفسير (ص٨٩١) .

٢ –وقيل: أربعين يوماً، وهذا مرويّ عن مقاتل، وعكرمة، والفرَّاء، والسّدِّي، والكلبي، والضحَّاك . انظر: زاد المسير ، (ص٨٩١) ، تفسير البغوي (ص١٤١٥) ، معاني القرآن (٣/ ٢٧٣) .

٣ –وقيل: اثنا عشر يوماً، وهذا مرويّ عن مقاتل أيضاً ، وابن جريج . انظر: تفسير الخازن (٦/ ٤٤٤) ، تفسير البغوي (ص١٤١٥) ، روح المعاني (١٥/ ٣٧٦) ، تفسير الرازي (٣١/ ١٩٠) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٩٢) ، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين (٦/ ٢٩٥) .

٤ –وقيل: خمسة وعشرون يوماً، وهذا مرويّ عن ابن عبَّاس ، في الرِّواية الثَّانية عنه ، والثَّعلبي . انظر: تفسير الرازي (٣١/ ٩٠) ، تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٢) .

٥ –وقيل: ثلاثة أيَّام، وهذا مرويّ عن مقاتل أيضاً . انظر: تفسير مقاتل (٤/ ٢٢٢) .

هذه هي الأقوال التي وقفت عليها في تحديد الفترة الثَّانية لفتور الوحي ، والنَّاظر فيها يجد:

أَوَّلاً : أنَّها أقوال متشابكة مختلطة مع الأقوال الواردة في مدَّة الفترة الأولى.

ثَانِياً : أنَّ الكثير منها لا يخلو من مقال ...

وقد عقَّب الحافظ ابن حجر عليها فقال: " وكلّ هذه الرِّوايات لا تثبت ، والحقّ أنَّ الفترة المذكورة في سبب نزول "والضُّحى" غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي ، فإنَّ تلك دامت أيَّاماً ، وهذه لم تكن إلَّا ليلتين أو ثلاثاً ، فاختلطتا على بعض الرُّواة ، وتحرير الأمر ما بيَّنته" . انظر : فتح الباري (٨/ ٧١٠) .

ففتور الوحي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمرَّة الثَّانية ثابت ، جاءت به الرِّوايات الصَّحيحة والآثار ، وقد أعقبه الله تعالى بإنزال سورة الضُّحى على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الإمام الطَّاهر بن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير " (٣٠/ ٣٩٦) : " وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ عَقِبَ فَتْرَةٍ ثَانِيَةٍ فَتَرَ فِيهَا الْوَحْيُ بَعْدَ الْفَتْرَةِ الَّتِي نَزَلَتْ إِثْرَهَا سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ: «احْتَبَسَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا أَوْ نَحْوَهَا. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلَاهُ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ" .

جاء في " السِّيرة النَّبويَّة " لابن هشام (١/ ٢٤١) : " قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتْرَةً مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَحْزَنَهُ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الضُّحَى، يُقْسِمُ لَهُ رَبُّهُ، وَهُوَ الَّذِي أَكْرَمَهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ، مَا وَدَّعَهُ وَمَا قَلَاهُ " ، وليبطل " قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ زَعَمُوا أَنَّ مَا يَأْتِي مِنَ الْوَحْيِ لِلنَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِ انْقَطَعَ عَنْهُ.

وَزَادَهُ بِشَارَةً بِأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْأُولَى عَلَى مَعْنَيَيْنِ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى. وَأَنَّهُ سَيُعْطِيهِ رَبُّهُ مَا فِيهِ رِضَاهُ. وَذَلِكَ يَغِيظُ الْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ ذَكَّرَهُ اللَّهُ بِمَا حَفَّهُ بِهِ مِنْ أَلْطَافِهِ وَعِنَايَتِهِ فِيبل صِبَاهُ وَفِي فُتُوَّتِهِ وَفِي وَقْتِ اكْتِهَالِهِ وَأَمَرَهُ بِالشُّكْرِ عَلَى تِلْكَ النِّعَمِ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنْ نَفْعٍ لِعَبِيدِهِ وَثَنَاءٍ عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ " . انظر : التَّحرير والتَّنوير (٣٠/ ٣٩٤) .

قول المشركين إذ زعموا أنّ ما يأتي من الوحي للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد انقطع عنه.

وقد اختلف العلماء في السَّبب الذي لأجله فتر الوحي عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجاء في بعض الأخبار أنَّ ثمَّة أسباب ماديَّة وقفت حاجزاً أمام نزول الوحي ، زادت على عشرة أسباب ، مع أنَّ الكثير منها لا يخلو من مقال ، وقد تكلَّم العلماء على العديد منها ، ومن الرِّوايات التي ذكرت في ذلك:

الأُوْلَى : روىٰ البخاري (٦/ ١٧٢ برقم ٤٩٥٠) ومسلم (٣/ ١٤٢٢ برقم ١٧٩٧) بسندهما عن جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ - أَوْ ثَلاَثًا -» ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ - أَوْ ثَلاَثَةٍ - فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ﴿ :**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ [الضحى:٢] .

الثَّانِيَة : ما رواه التِّرمذي (٥/ ٢٩٩ برقم ٣٣٤٥ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) بسنده عَنْ جُنْدَبٍ البَجَلِيِّ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَارٍ، فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ ، قَالَ: وَأَبْطَأَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّدٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ﴿ :**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ .

والرِّواية أخرجها البخاري (٤/ ١٨ برقم ٢٨٠٢) ومسلم (٣/ ١٤٢١ برقم ١٧٩٦) من غير ذكر لكونها سبباً للنُّزول... قال الإمام ابن كثير في التَّفسير (٨/ ٤٢٤) في تعليقه علىٰ الرِّواية : "... وَلَكِنَّ الْغَرِيبَ هَاهُنَا جَعْلُهُ سَبَبًا لِتَرْكِهِ الْقِيَامِ، وَنُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ " ؟

الثَّالِثَة : ما رواه الحاكم في " المستدرك " (٢/ ٥٧٣ برقم ٣٩٤٥ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ كَمَا حَدَّثَنَاهُ هَذَا الشَّيْخُ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ لَهُ عِلَّةً) بسنده عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ إِلَىٰ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا**﴾ [المسد: ٤-٥] حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ قَالَ: فَقِيلَ لِامْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ هَجَاكِ فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَلَأِ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ مَا تَهْجُونِي؟ قَالَ: فَقَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا هَجَوْتُكِ مَا هَجَاكِ إِلَّا اللهُ» قَالَ: فَقَالَتْ: هَلْ رَأَيْتَنِي أَحْمِلُ حَطَبًا أَوْ رَأَيْتَ فِي جِيدِي حَبْلًا مِنْ مَسَدٍ؟ ثُمَّ انْطَلَقَتْ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّامًا لَا يُنَزَّلُ عَلَيْهِ فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ مَا أَرَىٰ صَاحِبَكَ إِلَّا قَدْ وَدَّعَكَ وَقَلَاكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ [الضحىٰ: ١] .

الرَّابِعَةُ : ما رواه ابن جرير الطَّبري في " التَّفسير " (٢٤٤٨٧) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ [الضحىٰ: ٣] قَالَ: لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، أَبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ أَيَّامًا، فَعُيِّرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلاهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ [الضحىٰ: ٣] .

الخَامِسَةُ : ما رواه البيهقي في " دلائل النُّبوَّة (٧/ ٦١) عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: رَأَيْتُ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي، كَفْرًا كَفْرًا فَسَرَّنِي ذَلِكَ. فَنَزَلَتْ: **﴿وَالضُّحى، وَاللَّيْلِ إِذا سَجى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾** إِلَى قَوْلِهِ: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾** .

السَّادِسَةُ : ما رواه الطَّبراني في " المعجم الكبير " (٢٤/ ٢٤٩ برقم ٦٣٦) بسنده عن حَفْصُ بْنُ سَعِيدٍ الْقُرَشِيُّ، حَدَّثَتْنِي أُمِّي، عَنْ أُمِّهَا، وَكَانَتْ خَادِمَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ جِرْوًا دَخَلَ الْبَيْتَ وَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ وَمَاتَ فَمَكَثَ نَبِيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيَّامًا لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَقَالَ: "يَا خَوْلَةُ مَا حَدَثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ الله جِبْرِيلُ لَا يَأْتِينِي فَهَلْ حَدَثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ الله حَدَثٌ فَقُلْتُ: وَالله مَا أَتَى عَلَيْنَا يَوْمٌ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِنَا فَأَخَذَ بُرْدَهُ فَلَبِسَهُ وَخَرَجَ فَقُلْتُ: لَوْ هَيَّأْتُ الْبَيْتَ، وكَنَسْتَهُ فَأَهْوَيْتُ بِالْمِكْنَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ فَإِذَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أَخْرَجْتُهُ فَإِذَا بِجِرْوٍ مَيِّتٍ فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي فَأَلْقَيْتُهُ خَلْفَ الدَّارِ فَجَاءَ نَبِيُّ الله تَرْعَدُ لَحْيَيْهِ، وَكَانَ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ أَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ فَقَالَ: " يَا خَوْلَةُ دَثِّرِينِي فَأَنْزَلَ اللهُ : **﴿وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ، وَمَا قَلَى﴾** [الضحى: ١-٣] . قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " (٨/ ٧١٠) في تعليقه على هذه الرِّواية : " وَوَجَدْتُ الْآنَ فِي الطَّبَرَانِيِّ بِإِسْنَادٍ فِيهِ مَنْ لَا يُعْرَفُ أَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا وُجُودُ جَرْوِ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ فَأَبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ لِذَلِكَ ، وَقِصَّةُ إِبْطَاءِ جِبْرِيلَ بِسَبَبِ كَوْنِ الْكَلْبِ تَحْتَ سَرِيرِهِ مَشْهُورَةٌ لَكِنْ كَوْنُهَا سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ غَرِيبٌ بَلْ شَاذٌّ مَرْدُودٌ بِمَا فِي الصَّحِيحِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ."

السَّابِعَة : ما رواه البيهقي في " دلائل النُّبوَّة " (٧/ ٦٠) بسنده عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ خَدِيجَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا أَبْطَأَ عَلَى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ، جَزِعَ مِنْ ذَلِكَ جَزَعًا شَدِيدًا فَقُلْتُ لَهُ مِمَّا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ: لَقَدْ قَلَاكَ رَبُّكَ مِمَّا يَرَى مِنْ جَزَعِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى " . قال البيهقي : " فِي هَذَا الْإِسْنَادِ انْقِطَاعٌ فَإِنْ صَحَّ فَقَوْلُ خَدِيجَةَ يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ السُّؤال أَوِ الِاهْتِمَامِ بِهِ."

قال الإمام ابن كثير في " التَّفسير " (٨/ ٤٢٥) عن هذه الرِّواية : " حَدِيثٌ مُرْسَلٌ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ، وَلَعَلَّ ذِكْرَ خَدِيجَةَ لَيْسَ مَحْفُوظًا، أَوْ قَالَتْهُ عَلَى وَجْهِ التَّأَسُّفِ وَالتَّحَزُّنِ، وَاللهُ أَعْلَمُ" .

وقال الإمام الألوسي في " روح المعاني " (١٥/ ٣٧٧) : " والقول بأنّها رضي الله تعالى عنها أرادت أنَّ هذا الجزع لا ينبغي أن يكون إلّا من قلى ربِّك إيَّاك وحاشى أن يقلاك فما هذا الجزع بعيد غاية البُعد ، والمعوَّل ما عليه الجمهور وصحَّت به الأخبار أنَّ القائل هم المشركون."

الثَّامِنَة : ما روي عن الحسن أنَّه قال : أبطأ الوحي على رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال لخديجة : إنّ ربّي ودّعني وقلاني " يشكو إليها، فقالت : كلَّا والذي بعثك بالحقِّ ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة إلَّا وهو سبحانه يريد أن يتمَّها لك ، فنزلت " انظر: روح المعاني (١٥/ ٣٧٦) ، تفسير الرَّازي (٣١/ ١٩١) .

قال الإمام الرَّازي في " التَّفسير " (٣١/ ١٩٢) : " طَعَنَ الْأُصُولِيُّونَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يَلِيقُ بِالرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ وَدَّعَهُ وَقَلَاهُ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ عَزْلَ النَّبِيِّ عَنِ النُّبُوَّةِ غَيْرُ جَائِزٍ فِي حِكْمَةِ اللهَّ تَعَالَىٰ، وَيَعْلَمُ أَنَّ نُزُولَ الْوَحْيِ يَكُونُ بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ، وَرُبَّمَا كَانَ الصَّلَاحُ تَأْخِيرَهُ، وَرُبَّمَا كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ غَيْرُ لَائِقٍ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ إِنْ صَحَّ ذَلِكَ يُحْمَلُ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ مَقْصُودُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُجَرِّبَهَا لِيَعْرِفَ قَدْرَ عِلْمِهَا، أَوْ لِيَعْرِفَ النَّاسُ قَدْرَ عِلْمِهَا."

وبمثل ما قال الإمام الرَّازي قال الإمام الألوسي ، ثمَّ عقَّب على ما قال بقوله : " وأنت تعلم أنَّ هذه الرِّواية شاذَّة لا يعوَّل عليها ولا يلتفت إليها فلا ينبغي إتعاب الذِّهن بتأويلها" . انظر : روح المعاني (١٥/ ٣٧٧)

.

التَّاسِعَة : ما رواه الطَّبراني في التَّفسير (٦/ ٥١٥) عن ابن عبَّاس وقتادة: لَّما سألت اليهود رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرُّوح ، وعن ذي القرنين ، وأصحاب الكهف ، قال لهم : "سأخبركم غداً" ، ولم يقل : إنشاء الله ، فاحتبس الوحي عنه ، وأبطأ عنه جبريل خمس عشرة ليلة لتركه الاستثناء ، فقال المشركون والمنافقون : إنَّ محمَّداً ودَّعه ربُّه وقلاه ، فأنزل الله هذه السُّورة تكذيباً لهم ، وأقسم ببياض النَّهار وسواد الليل أنَّه سبحانه لم يودِّعه ولم يقله.

هذه هي أشهر الرِّوايات الواردة في سبب نزول سورة الضُّحىٰ ... تلك السُّورة التي سبقها انقطاع للوحي عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والحقّ أنَّ الكثير منها لا يخلو من مقال ، وقد تكلَّم العلماء عليها ، وأنَّ الثَّابت منها ما جاء في الرِّواية الأولى التي أخرجها الشَّيخان...

قال الإمام الطَّاهر بن عاشور في " التَّحرير والتَّنوير " (٣٠/ ٣٩٦) : " وَالِاخْتِلَافُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ وُضُوحِهِ لِلرُّوَاةِ، فَالَّذِي نَظُنُّهُ أَنَّ احْتِبَاسَ الْوَحْيِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ لِمُدَّةٍ نَحْوٍ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا وَأَنَّهُ مَا كَانَ إِلَّا لِلرِّفْقِ بِالنَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْ تَسْتَجِمَّ نَفْسُهُ وَتَعْتَادَ قُوَّتُهُ تَحَمُّلَ أَعْبَاءِ الْوَحْيِ إِذْ كَانَتِ الْفَتْرَةُ الْأُولَىٰ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ كَانَتِ الثَّانِيَةُ اثْنَىٰ عَشَرَ يَوْمًا أَوْ نَحْوَهَا، فَيَكُونُ نُزُولُ سُورَةِ

الضُّحَىٰ هُوَ النُّزُولَ الثَّالِثَ، وَفِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ يَحْصُلُ الِارْتِيَاضُ فِي الْأُمُورِ الشَّاقَّةِ وَلِذَلِكَ يَكْثُرُ الْأَمْرُ بِتَكَرُّرِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ ثَلَاثًا، وَبِهَذَا الْوَجْهِ يُجْمَعُ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْأَخْبَارِ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ وَسَبَبِ نُزُولِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ."

وبعد استعراض الرِّوايات السَّابقة التي حدَّدت مدَّة الانقطاع يتبيَّن لنا ما يأتي:

حدَّدت الرِّواية الأولى والثَّانية مدَّة الانقطاع بليلتين أو ثلاثاً ، وحدَّدتها الرِّواية الثَّالثة والرَّابعة والسَّادسة بأيَّام ، وأشارت الرِّوايات السَّابعة والثَّامنة إلى إبطاء الوحي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبهمة العدد ، أمَّا الرِّواية التَّاسعة فحدَّدت المدَّة بخمس عشرة ليلة...

ومن المعلوم أنَّ الأيَّام جمع قلَّة، يدلُّ على قلَّة عدد تلك الأيَّام ، فالمدَّة التي فَتَر فيها الوحي عن الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تتجاوز خمس عشرة ليلة ، فهي محصورة بين ليلتين أو ثلاثاً إلى خمس عشرة ليلة ، وبذلك يُجمع بين الأخبار ، والله أعلم .